

جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

الخيانة في القرآن الكريم

إعداد

محمد أحمد محمود الحاج حسن

إشراف

د. عودة عبد الله

قدّمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في أصول الدين بكلية
الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس - فلسطين

2010م

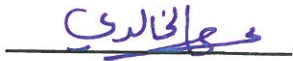
الخيانة في القرآن الكريم

إعداد

محمد أحمد محمود الحاج حسن

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ 2 / 2 / 2010 ، وأجيزت .

التوقيع



أعضاء لجنة المناقشة

د. عودة عبد الله (مشرفاً ورئيساً)

د. حاتم جلال (متحناً خارجياً)

د. محسن الخالدي (متحناً داخلياً)

الإهداء

- إلى الذين اکتووا بنار الخيانة في كل مكان .
- إلى الذين عانوا وابتلوا وكابدوا ظلما وحشة السجون وآلام القهر والعذاب .
- إلى الذين قضوا من أجل دينهم ومقدساتهم وأعراضهم وأوطانهم .
- إلى الذين عرفوا وعاشوا معنى المكر والخديعة .
- إلى الذين طالتهم خناجر الغدر المسمومة في ظهورهم .
- وإلى الذين هم على طريق الهدى والحق سائرون لا يضرهم من خذلهم ولا من خانهم .
- إلى المرابطين على ثرى فلسطين الطاهر .
- إلى كل المخلصين الذين يحفظون أمانة الله المناطة في أعناقهم ، فلا يفرطون ولا يضيعون .
- إليهم جميعا أهدي هذا الجهد سائلا المولى سبحانه وتعالى الرضا والقبول .

شكر وتقدير

بعد حمد الله وشكره على ما أعان ويسر وسهل لي إنجاز هذا العمل ، وعلى كل نعمه وعطاياه التي لا تعد ولا تحصى ، أتقدم بجميل الشكر والعرفان ، وعظيم الفضل والامتنان ، إلى الدكتور الفاضل : عودة عبد الله ، حفظه الله ورعاه ، ونفع به ، وجزاه عنا خير الجزاء ؛ على ما بذل من جهده ووقته ، وتوجيهه وإرشاده ، من أجل إتمام هذا البحث وإخراجه بصورة لائقة نافعة إن شاء الله تعالى .

كما وأتقدم بالشكر والتقدير للأستاذين الكريمين : د. محسن الخالدي و د. حاتم جلال ، اللذين تكرما بمناقشة هذه الرسالة ، وأبديا ملاحظاتهم السديدة على هذا العمل ، فجزاهما الله عن أهل العلم خير الجزاء .

إقرار

أنا الموقع أدناه ، مقدم الرسالة التي تحمل العنوان :

الخيانة في القرآن الكريم

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخالص ، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد ، وإن هذه الرسالة ككل ، أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أي درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى .

Declaration

The work provided in this thesis , unless otherwise referenced , is the researcher's own work , and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification .

Student's Name : اسم الطالب : محمد أحمد محمود الحاج حسن

Signature : التوقيع :

Date : التاريخ : 2010/2/2 م

فهرست الموضوعات

الصفحة	الموضوع	الرقم
ت	الإهداء	1
ث	شكر وتقدير	2
ج	إقرار	3
ح	فهرست المحتويات	4
ذ	الملخص	5
1	مقدمة	6
2	الدراسات السابقة	7
3	أهمية الدراسة	8
3	أسباب اختيار الموضوع	9
4	مشكلة الدراسة	10
5	أهداف الدراسة	11
5	منهجية الدراسة	12
6	حدود الدراسة	13
6	خطة الدراسة	14
9	الفصل الأول : مفهوم الخيانة ودلالاتها في السياق القرآني	15
10	المبحث الأول : التعريف بمفهوم الخيانة	16
10	أولا : الخيانة في اللغة	17
11	ثانيا : الخيانة في الاصطلاح	18
11	ثالثا : معنى خيانة الأمانة	19
17	المبحث الثاني : الخيانة في السياق القرآني	20
27	المبحث الثالث : نظائر الخيانة في القرآن الكريم	21
27	المطلب الأول : المكر	22
28	المطلب الثاني : الكيد	23
29	المطلب الثالث : التجسس	24
30	المطلب الرابع : الخداع	25
32	المطلب الخامس : النفاق	26

35	الفصل الثاني : أنواع الخيانة في القرآن الكريم	27
36	المبحث الأول : خيانة الدين	28
40	المبحث الثاني : خيانة الأمة والوطن	29
46	المبحث الثالث : خيانة العرض	30
50	المبحث الرابع : خيانة النفس والجوارح	31
56	الفصل الثالث : نماذج قرآنية للخيانة	32
57	المبحث الأول : خيانة أهل الكتاب	33
64	المبحث الثاني : خيانة امرأة العزيز	34
72	المبحث الثالث : خيانة إخوة يوسف	35
80	المبحث الرابع : خيانة امرأتي نوح ولوط عليهما السلام	36
83	المبحث الخامس : خيانة حاطب بن أبي بلتعة	37
89	الفصل الرابع : الخيانة من خلال آيات النفاق	38
92	المبحث الأول : بيان صفات وأفعال الخائنين	39
92	المطلب الأول : بيان صفات الخائنين	40
106	المطلب الثاني : بيان أفعال الخائنين	41
121	المطلب الثالث : الخيانة من أفعال الكفار وصفاتهم	42
125	المطلب الرابع : التنفير من الخائنين ومن سلوك طرقهم	43
131	المبحث الثاني : عاقبة الخيانة	44
131	المطلب الأول : حرمان الخائنين من هداية الله تعالى	45
132	المطلب الثاني : إبطال كيد الخائنين	46
135	المطلب الثالث : لباس الخائنين لباس الذل والهوان	47
136	المطلب الرابع : تدمير الخائنين وإهلاكهم في الدنيا	48
141	المطلب الخامس : مصير الخائنين يوم القيامة	49
150	المبحث الثالث : منهج القرآن الكريم في معالجة ظاهرة الخيانة	50
150	المطلب الأول : الوقاية من الخيانة بالتربية والتحصين	51
154	المطلب الثاني : بيان طريق التعامل مع الخائنين	52
179	الخاتمة	53
183	الفهارس الفنية	54

184	فهرس الآيات القرآنية	55
196	فهرس الأحاديث النبوية	56
198	فهرس الأعلام	57
199	قائمة المصادر والمراجع	58
b	ملخص بالإنجليزية	59

الخيانة في القرآن الكريم

إعداد

محمد أحمد محمود الحاج حسن

إشراف

الدكتور عودة عبد الله

الملخص

الخيانة جريمة نكراء ، نبّه القرآن الكريم ، بل وأكد على خطورتها من خلال حشد كبير من الآيات الكريمة التي تحدثت عن هذه الخيانة من جوانب متعددة ، فقد بيّنت الآيات صفات الخائنين وأفعالهم ، كما بيّنت أنواعا متعددة للخيانة ؛ كخيانة الدين ، والعرض ، والوطن ، والجوارح . وعرض القرآن الكريم نماذج من الخيانة ؛ كخيانة أهل الكتاب ، وخيانة امرأة العزيز ، وخيانة امرأتي نوح ولوط عليهما السلام ، وخيانة إخوة يوسف ، وخيانة حاطب بن أبي بلتعة . كما بين القرآن الكريم عاقبة أهل الخيانة في الدنيا والآخرة . وقد شكل مجموع الآيات التي تحدثت عن الخيانة منهج القرآن الكريم في التعامل مع هذه الظاهرة .

وقد بدأت هذه الدراسة بالتعريف بالخيانة في اللغة والاصطلاح ، وبينت دلالتها في السياق القرآني ، وبينت المقصود بخيانة الأمانة ، وهي الخيانة الشاملة التي تعم كل الأمانات ؛ كأمانة الدين والتكاليف الشرعية ، وأمانة العرض والشرف ، وأمانة الوطن والمقدسات ، وأمانة النفس والجوارح ، وسائر الأمانات .

ودرست هذا الموضوع من خلال لفظة الخيانة ، واستفدت من نظائر هذه اللفظة كما وردت في القرآن الكريم ، وهي : المكر ، والخديعة ، والكيد ، والتجسس ، والنفاق .

واستخلصت منها بالاستعانة بكتب التفسير وغيرها المعاني والدلالات والعبر والدروس ، وقمت بعرضها في أربعة فصول ، ذكرت في الأول تعريفا بالخيانة ، وفي الفصل الثاني ذكرت أنواعا لخيانة الأمانة ، وفي الفصل الثالث ذكرت نماذج قرآنية للخيانة مثل (خيانة أهل الكتاب ، وخيانة امرأة العزيز ...) ، وفي الفصل الرابع كان الحديث عن الخيانة في ظلال آيات النفاق ، حيث ذكرت صفات وأفعال الخائنين ، ثم تحدثت عن عاقبة الخيانة في الدنيا والآخرة ، وبينت فيه منهج القرآن الكريم في التعامل مع ظاهرة الخيانة ، سواء بالوقاية أو العلاج .

مقدمة :

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ

تَعْلَمُونَ }¹. وقال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا }².

الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة الإسلام ، ومنَّ علينا بالهدى والإيمان ، وأمرنا بالإخلاص للواحد الديان ، وأنزل علينا الكتاب والفرقان ، الذي في التزامه في الدنيا الصلاح والأمان ، وفي الآخرة الفوز بالنعيم والجنان ، وفي الحياد عنه الضياع والخسران . والصلاة والسلام على المصطفى العدنان ، الذي طبَّقَ فينا شريعة القرآن ، وجاهد في الله حتى أظهر الحق وأبان ، وأمط اللثام عن كل ماكر خوَّان ، وعلى آله وصحبه خير الأنام ، وكل السائرين على درب الهدى إلى آخر الزمان .

وبعد ، فإن من سنة الله سبحانه وتعالى أن أرسل الرسل لهذه البشرية تترى على مر العصور والأزمان ، وأنزل معهم الهدى والفرقان ، والمعجزات البيّنات العظام ، فمن الناس من اتبع الهدى وسار مع ركب الإيمان بإخلاص وإحسان ، ومنهم من عاند الحق وعادى أهله وتكذب سواء الصراط ، ومنهم من اتخذ سبيلا ثالثا ؛ فلا هو آمن وأخلص واستقام ، ولا هو جاهر بالكفر وأظهر العدوان ، بل استخفى خلف ستائر الظلام ؛ ليحقيق المكر السيئ بأهل الإسلام ، فمكر وكاد ونافق وخادع وخان .

هذا الصنف الثالث هو مدار الحديث في هذه الدراسة ؛ وذلك للخطورة البالغة التي يمثلها هذا الصنف من الناس على الدين والأوطان والإنسان ، فلا هو صديق تأمنه ، ولا هو عدو ظاهر تحذره ، فهو الذي تأتي طعناته من الخلف ، فتكون أشد فتكا وضرا وإيلا ما ؛ ولذلك حذرنا القرآن الكريم من هذا الصنف من الناس أشد تحذير . وقد عرفنا الله تعالى بصفاتهم وأعمالهم ، كما ذكر أصنافهم وفئاتهم ، وذكر أمثلة حية منهم ، وبيّن عقابهم في الدنيا والآخرة ، وأعطانا العلاج الشافي لهذا الداء العياء ، الذي سماه الله تعالى في كتابه العزيز بأسماء كثيرة تتكامل في معناها لتؤدي مؤدىً واحدا ، يكمن في إلحاق الأذى بالمسلمين من حيث لا يحتسبوا ، فسماه (الخيانة ، والمكر ، والخديعة ، والتجسس ، والنفاق ، والكيد) .

¹ سورة الأنفال ، آية 27

² سورة النساء ، آية 58

وهذه الدراسة هي عبارة عن كشف لهذا الخلق الذميمة بصورة حية واضحة متكاملة ، ببيان مفهومه ، وعرض الأمثلة عليه ، وبيان خطورته وتأثيره في شتى المجالات ، مع ربط ذلك بالواقع ، ثم تشخيص الداء من خلال كشف اللثام عن أهله والمتصفين به ، وفضح صفاتهم وأعمالهم ، وأخيرا وصف الدواء الشافي من أذاهم وأفعالهم ، وذكر وسائل الوقاية من الوقوع في شركهم . كل ذلك من خلال كتاب الله تعالى ، وجمع الآيات المتعلقة بالموضوع ، والإبحار في تفسيراتها ، مع عدم إغفال الشواهد الدالة على موضوعنا من السنة المطهرة وأقوال السلف ، وبعض ما ورد من حكم وأشعار . وقد أسميت هذه الدراسة : **الخيانة في القرآن الكريم** .

ومن أخلص لله في علمه ، سهل الله له سبيله ، وجعل فيه النفع والخير لكاتبه وقارئه ، جعلني الله والقارئين من عباده المخلصين ، وأبعد عنا الرياء والنفاق والخيانة ، إنه سميع مجيب ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الدراسات السابقة :

إن مادة هذه الدراسة مثل كل الدراسات القرآنية جاءت من خلال آيات القرآن الكريم ، حيث عرض القرآن الكريم موضوع الخيانة ونظائر هذه اللفظة في آيات كثيرة ، جهَدتُ كتب التفسير في شرحها وبيان معانيها ، كما ذكرت السنة والسيرة كذلك شواهد عليها . ولقد تقيست ما كتب في الموضوع بشكل مستقل ، فما وجدت غير كلام في أحد مواقع النت يشير إلى كتاب أَلَّف مؤخرًا للدكتور فريد السمان المدرس في كلية أصول الدين في الرياض بعنوان : الخيانة : أسبابها - أنواعها - آثارها¹ . ولم يتسن لي الإطلاع عليه . وقد ورد موضوع الخيانة في ثنايا كتب الأخلاق والزهد وكتب الفكر ، ككتاب " إحياء علوم الدين " للغزالي ، " وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان " ، " ومدارج السالكين " لابن قيم الجوزية ، " وصلاح الأمة في علو الهمة " للدكتور سيد بن حسين القفاني ، ، وغير ذلك من الكتب التي ذُكر فيها موضوع الخيانة بعيدا عن طريقة التفسير الموضوعي ، التي كتبت بها هذه الدراسة .

وبناء على ما سبق فسيكون المعول في هذه الدراسة على كتاب الله تعالى ، وما ورد في الأحاديث الصحيحة من السنة النبوية مما له صلة بموضوع الآيات ، وكذلك ما ورد في تفاسير علمائنا ، قديمها وحديثها ، وما ذكرته كتب السيرة من أمثلة واقعية للخيانة كأفعال المنافقين ،

¹ www.tafsir.org

وفعلة حاطب بن أبي بلتعة ، كما سيتم الرجوع بالطبع قبل ذلك إلى مراجع اللغة ؛ للوقوف على المعنى اللغوي للمفاهيم الرئيسية التي يتمحور البحث حولها .

وبهذا سيكون دوري في لم شمل هذه المادة العلمية من المصادر المذكورة ، وعرضها بطريقة التفسير الموضوعي ، مع الربط بالواقع الذي نعيش ؛ لعله يكون مفتاحا ومقدمة لمزيد من البحث والكتابة في هذا الموضوع إن شاء الله تعالى .

أهمية الدراسة :

تتبع أهمية الدراسة من الأمور الآتية :

- 1- كونها دراسة قرآنية جاءت خدمة لكتاب الله تعالى .
- 2- كونها تلبي ضرورة ملحة في بيان وكشف مكائد ومؤامرات الخائنين والمتآمرين على أمة الإسلام ومستقبل هذا الدين .
- 3- ارتباطها بالواقع الذي نعيش ، ففيها تجسيد وإسقاط لمفهوم الخيانة الوارد في القرآن الكريم على الواقع المعاش .
- 4- فيها الكثير من الدروس والعبر المستفادة من بيان صفات وأفعال هذه الفئة من الناس ، ومن ذكر نماذج قرآنية للخيانة ، وبيان مصائر الخائنين في الدنيا والآخرة .

أسباب اختيار الموضوع :

يكمُن سبب اختياري الكتابة في هذا الموضوع فيما يأتي :

- 1- استشعار مدى خطورة هذا البحث وأهميته لكل زمان ، وخاصة في مثل هذا الزمان العجيب الذي نعيش فيه ، والذي اختلطت فيه الأمور على كثير من أبناء المسلمين ، فلم يعودوا يميزون بين الغث والسمين ، وبين الخيانة والأمانة ، فهو الزمان الذي يؤتمن فيه الخائن ويخون فيه الأمين .

2- واقع حالنا في فلسطين ؛ حيث نعيش تحت احتلال يعمل جاهدا على تجنيد أبناء هذا الشعب لخيانة دينهم ووطنهم .

3- الواقع الاجتماعي الفاسد من جوانب عديدة ، والذي تمارس فيه الخيانة بأشكالها المختلفة ، مثل : (خيانة الدين ، وخيانة العرض ، وخيانة النفس ، وغير ذلك) .

4- الواقع السياسي ؛ حيث خيانة الأمة من خلال زعمائها وحكامها .

5- الميل الشخصي للتعرف على ما جاء في كتاب الله تعالى حول هذا الخلق الذميمة ؛ للاستفادة والتعلم ، ونفع الآخرين إن شاء الله تعالى .

6- عدم وجود دراسة مختصة تعالج هذا الموضوع بطريقة التفسير الموضوعي .

ولأهمية هذا الموضوع في كل زمان ومكان ؛ ولما تشكل ظاهرة الخيانة من خطورة بالغة على المسلمين أفرادا وجماعات ؛ وللصلة الوثيقة لهذا الموضوع بالناس وحياتهم الاجتماعية والأخلاقية والسياسية ؛ كان لا بد من الكتابة في هذا الموضوع ، وتفصيل الحديث فيه ، لعل الله تعالى أن ينفع به ، فيفتح به آذاننا صمًا ، وأعيننا عميا ، وقلوبنا غلفا ، ويهدي به من ضل السبيل ، ويرشد به من طلب الهدى ، اللهم آمين .

مشكلة الدراسة :

تحاول هذه الدراسة الإجابة عن الأسئلة الآتية :

1- ما مدى اهتمام القرآن الكريم بموضوع الخيانة ؟

2- هل خيانة الأمانة تقتصر على المفهوم المتبادر منها ، وهو جود أمانات الناس ؟

3- ما الدروس والعبر المستفادة مما عرضه القرآن الكريم من نماذج خيانية ؟

4- ما هي أنواع الخيانة التي تعرّض لها القرآن الكريم ؟

5- ما عاقبة الخائنين للأمانات في الدنيا والآخرة ؟

6- كيف عالج القرآن الكريم ظاهرة الخيانة ؟

أهداف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة إلى ما يأتي :

- 1- الاطلاع على ما جاء في كتاب الله تعالى حول ظاهرة الخيانة .
- 2- الإسهام في الكتابة في الدراسات القرآنية ، والإفادة منها في شتى مجالات الحياة ، وفيها التأكيد على أن هذا الكتاب العظيم صالح ونافع لكل زمان ومكان .
- 3- زيادة الوعي بعظيم خطر هذه الظاهرة بكل أشكالها .
- 4- أخذ العبرة والعظة من مصائر الخائنين .
- 5- التعريف بأصحاب هذا الخلق ، ببيان صفاتهم وأفعالهم ، وفضحهم وتعريتهم .
- 6- بيان عقاب الله تعالى للخائنين في الدنيا والآخرة .
- 7- وصف سبل الوقاية من كيد الخائنين والوقوع في حبالهم .

منهجية الدراسة :

استخدمتُ في هذه الدراسة المنهج الاستقرائي التحليلي ، وذلك باتباع الخطوات الآتية :

- 1- تتبُّع الآيات القرآنية ذات الصلة بمصطلح الخيانة ونظائره ، وهي : المكر ، والخديعة ، والتجسس ، والكيد ، والنفاق .
- 2- استقراء المشاهد والأمثلة القرآنية المتعلقة بالخيانة .

3- دراسة أقوال أهل التفسير السابقين منهم والمحدثين في الآيات موضوع الدراسة ، ونقل ما يتناسب منها مع مواضيع وعناوين الدراسة .

4- الاستعانة بالأحاديث الصحيحة والأقوال والأشعار على شكل شواهد فقط ؛ لتدعيم الأفكار والمواضيع قيد الدراسة والبحث .

5- توثيق النقول توثيقاً علمياً ؛ بحيث يتم التوثيق كاملاً عند أول ذكر للمرجع ، ثم بعد ذلك الاكتفاء بذكر شهرة المؤلف واسم الكتاب والجزء ورقم الصفحة .

6- عزو الآيات القرآنية بذكر اسم السورة ورقم الآية ، في الهامش .

7- نسبة الأحاديث إلى مصادرها ، والاكتفاء بما صح منها ، والحكم على الأحاديث التي في غير الصحيحين .

8- كتابة ملخص بنتائج الدراسة وعرض موجز لما تم التوصل إليه من نتائج في آخر الدراسة .

حدود الدراسة :

إن كون هذه الدراسة تعالج موضوعاً قرآنياً ، هو : الخيانة ؛ فإن حدود الدراسة ستدور حول هذا المفهوم ، والمفاهيم المرتبطة به من حيث المعنى ، وهي ما يسمى : بالنظائر . ونظائر الخيانة في القرآن الكريم هي : (المكر والخديعة والكيد والتجسس والنفاق) . وبناء على ما سبق فسيشكل مفهوم الخيانة في القرآن الكريم حدود هذه الدراسة ، مع الإفادة من الآيات الواردة في نظائر الخيانة ، خاصة آيات النفاق .

خطة الدراسة :

تضمنت هذه الدراسة بعد المقدمة أربعة فصول ، في كل فصل منها مباحث ، ويتفرع عن بعض المباحث مطالب فرعية ، وذلك على النحو الآتي :

الفصل الأول : مفهوم الخيانة ودلالاتها في السياق القرآني ، وفيه :

المبحث الأول : التعريف بمفهوم الخيانة .

المبحث الثاني : الخيانة في السياق القرآني .

المبحث الثالث : نظائر الخيانة في القرآن الكريم .

الفصل الثاني : أنواع الخيانة في القرآن الكريم ، وفيه :

المبحث الأول : خيانة الدين .

المبحث الثاني : خيانة الأمة والوطن .

المبحث الثالث : خيانة العرض .

المبحث الرابع : خيانة النفس والجوارح .

الفصل الثالث : نماذج قرآنية للخيانة ، وفيه :

المبحث الأول : خيانة أهل الكتاب .

المبحث الثاني : خيانة امرأة العزيز .

المبحث الثالث : خيانة إخوة يوسف عليه السلام .

المبحث الرابع : خيانة امرأتي نوح ولوط عليهما السلام .

المبحث الخامس : خيانة حاطب بن أبي بلتعة .

الفصل الرابع : الخيانة من خلال آيات النفاق ، وفيه :

المبحث الأول : بيان صفات الخائنين وأفعالهم .

المبحث الثاني : عاقبة الخيانة

المبحث الثالث : منهج القرآن الكريم في معالجة ظاهرة الخيانة

الفصل الأول

مفهوم الخيانة ودلالاتها في السياق القرآني

المبحث الأول : التعريف بمفهوم الخيانة

المبحث الثاني : الخيانة في السياق القرآني

المبحث الثالث : نظائر الخيانة في القرآن الكريم

المبحث الأول التعريف بالخيانة

أولاً : الخيانة في اللغة

التقت معاجم اللغة على أن أصل الخَوْن : النقص ، وقد ورد بمعانٍ متقاربة مع هذا المعنى ، كالضَّعْف ، والانقطاع ، وغيرهما . ومما ورد في معاجم اللغة في المعنى اللغوي للفظـة (الخيانة) ما يأتي :

* النقص . " أصل الخَوْن : النقص ؛ لأن الخائن ينقص المخون شيئاً مما خانه فيه "1 . يقول صاحب الكشاف² : " معنى الخون : النقص ؛ كما أن معنى الوفاء : التمام . ومنه : تخونه ، إذا تتقصه ، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء ؛ لأنك إذا خنت الرجل في شيء ، فقد أدخلت عليه النقصان فيه "3 .

* الضعف . " الخون : الضعف . يقال : في ظهره خَوْنٌ : أي ضعف ، وهو مجاز "4 . ويقال : خانته رجلاه : إذا لم يقدر على المشي . وخانه سيفه : نبا . وخانه الدهر : غير حاله من اللين إلى الشدة⁵ . قال الأعشى⁶ :

¹ الزبيدي ، محمد مرتضى الحسيني ، ت1301هـ ، تاج العروس من جواهر القاموس ، دار الهداية ، (بدون طبعة ولا بلد ولا سنة النشر) ، (499/34) .

² هو : أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري ، العَلَّامة ، كبير المعتزلة ، صاحب الكشاف والمفصل ، كان رأساً في البلاغة العربية ، وقد برع في الأدب كذلك ، توفي ليلة عرفة سنة 538هـ . انظر : الذهبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ، ت748هـ ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط وغيره ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، (1413/9 هـ) ، (156 - 151/20) .

³ الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمر ، ت538هـ ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) ، (202/2)

⁴ الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمر ، ت538هـ ، أساس البلاغة ، دار الفكر - بيروت ، (طبعة سنة 1399هـ) ، (ص178) .

⁵ انظر : المرجع السابق ، (ص178) . ابن منظور ، محمد بن أبي العز مكرم بن علي ، ت711هـ ، لسان العرب ، دار صادر - بيروت ، (ط1/بدون سنة نشر) ، (144/13) .

⁶ هو : ميمون بن قيس بن شراحيل بن عوف ، المكنى أبا بصير ، والمعروف بالأعشى و صناجة العرب ، أحد فحول الشعراء ، وفد على آل جفنة الغسانيين ، وكان أهل الكوفة يقدمونه على غيره من الشعراء ، ذُكر أنه وفد إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، ومدحه ، توفي سنة 7هـ . انظر : الشافعي ، أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله ، ت571هـ ، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل ، تحقيق : محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري ، دار الفكر - بيروت ، (ط سنة 1995م) ، (329 - 327/61) .

وخان النعيم أبا مالك وأي امرئ لم يخنه الزمن¹
* الانقطاع . " يقال : خان الدلو الرشاء : إذا انقطع"² .
* التعهد . " تخوّته : أي تعهده . يقال : الحمى تخونه : أي تعهده"³ . يقول الزمخشري رحمه الله : " وأما تخوّنته : تعهدته ، فمعناه : تجنبت أن أخونه"⁴ .
* مسارقة النظر إلى الحرام . وفي التنزيل : { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ }⁵ .
" وخيانة الأعين : مسارعة النظر إلى ما لا يحل"⁶ .

ثانياً : الخيانة في الاصطلاح

للخيانة معان متعددة باعتبار ما نسبت إليه ، وكلها تدل على الانتقاص ، والغدر ، وإضرار الأذى سرّاً بالمخون . فالخيانة : " التفريط في الأمانة"⁷ . وهذا يشمل كل أمانة ؛ فالتفريط في أمانة الدين والتكاليف الشرعية هو خيانة لله تعالى ، وفي هذا قوله تعالى : { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا }⁸ . ويقاس على ذلك أمانة الوطن ، وأمانة النفس ، وأمانة العلم ، وأمانات الناس ، وما إلى ذلك . فالتفريط فيها هو خيانة لها .

ثالثاً : معنى خيانة الأمانة

بما أن الخيانة ضدها الأمانة ، و" الأشياء إنما تعرف بأضدادها"⁹ ؛ كان لا بد من التعريف

¹ الأعرشى ، ميمون بن قيس بن جندل ، ت 7هـ ، ديوان الأعرشى ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) ، (234/1) .
² الزمخشري ، أساس البلاغة ، (ص178) .
³ ابن منظور ، لسان العرب ، (145/13) .
⁴ الزمخشري ، أساس البلاغة ، (ص178) .
⁵ سورة غافر ، آية 19
⁶ السمعاني ، منصور بن محمد بن عبد الجبار ، ت489هـ تفسير القرآن العزيز ، تحقيق : ياسر بن إبراهيم ، وغيره ، دار الوطن - الرياض ، (ط1/1418هـ) ، (13/5) .
⁷ المناوي ، محمد عبد الرؤوف ، ت1031هـ ، التوقيف على مهمات التعاريف ، تحقيق : محمد رضوان الداوية ، دار الفكر - بيروت ، (ط1/1410هـ) ، (ص329) .
⁸ سورة الأحزاب ، آية 72
⁹ الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد ، ت310هـ ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، دار الفكر - بيروت ، (طبعة سنة 1405هـ) ، (19/19) .

بالأمانة ، ومعنى خيانة الأمانة .

* الأمانة في اللغة :

الأمانة في اللغة يدور معناها على السلامة والحفظ والأمن والأمان . وضدها الخيانة والخوف . قال ابن فارس : " أمن : الهمزة والميم والنون ، أصلان متقاربان ، أحدهما الأمانة : التي هي ضد الخيانة ، ومعناها : سكون القلب ، والآخر : التصديق "1. وقال ابن منظور² : " والأمن ضد الخوف ، والأمانة ضد الخيانة ، والإيمان ضد الكفر "3.

" والأمين : القوي ؛ لأنه يُوثَقُ بِقُوَّتِهِ وَيُؤْمَنُ ضَعْفُهُ ، والأمينُ صفةُ الله تعالى ، وفيه نظر ، ... وقيل : هو الذي يَصَدِّقُ عِبَادَهُ ما وعدهم ، فهو من الإيمان : التصديق ، أو يَوْمُنُهُم في القيامة عذابَهُ ، فهو من الأمان ضد الخوف ، قاله ابن الأثير"4.

* الأمانة في الاصطلاح

الأمن : " عدم توقع مكروه في الزمن الآتي ، وأصله : طمأنينة النفس ، وزوال الخوف ، وأمن أمانةً ، فهو أمين ، ثم استعمل المصدر في الأعيان مجازاً ، فقيل للوديعة : أمانة ، ونحو ذلك "5. فالأمانة كل ما يؤتمن عليه ، كالأموال والأسرار ، ويدخل في ذلك " كل ما افترض الله على العباد ، فهو أمانة ، كصلاةٍ وزكاةٍ وصيامٍ وأداءٍ دينٍ ، وأوكدها الودائع ، وأوكده الودائع كتم الأسرار "6.

¹ ابن فارس ، أحمد بن فارس بن زكريا ، ت395هـ ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الجليل - بيروت ، (ط2/1420هـ) ، (133/1) .

² هو : محمد بن أبي العز مكرم بن علي بن أحمد الخزرجي أبي الفضل جمال الدين ، ولد بالقاهرة سنة 630هـ ، وتوفي سنة 711هـ ، صاحب لسان العرب من أهم معاجم اللغة . انظر : الغلاني ، صلاح بن محمد ، ت1218هـ ، **قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر** ، تحقيق : عامر حسن صبري ، دار الشروق - مكة ، (ط1/1405هـ) ، (ص224) .

³ ابن منظور ، لسان العرب ، (21/13) .

⁴ الزبيدي ، تاج العروس ، (188/34) .

⁵ المناوي ، التعريف ، (ص94) .

⁶ أبو البقاء ، أيوب بن موسى الحسيني ، ت1094هـ ، **الكليات معجم في المصطلحات والفرق اللغوية** ، تحقيق : عدنان درويش وغيره ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، (طبعة سنة 1419هـ) ، (ص187) .

" فالأمانة جنس يعم الوديعه وغيرها ... فالوديعه أخص من الأمانة ، فكل وديعه أمانة ، دون العكس "1.

وقد ذكر أهل التفسير آراءً كثيرة في معنى الأمانة الواردة في قوله تعالى : { إِنَّا عَرَضْنَا

الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا

الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا }². ومن هذه المعاني : الطاعة والفرائض التي فرضها الله

على عباده³ ؛ من أداء الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت ، وصدق الحديث ، وقضاء الدين ، والعدل في المكيال والميزان ، والودائع ، والوفاء بالعهد ، والغسل من الجنابة وما أمروا به ونهوا عنه . وما يخفى من الشرائع⁴ . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص⁵ : (أول ما خلق الله من الإنسان فرجه ، وقال : هذه أمانة استودعتكها ، فالفرج أمانة ، والأذن أمانة ، والعين أمانة ، واليد أمانة ، والرجل أمانة ، ولا إيمان لمن لا أمانة له)⁶ .

¹ الأحمد نكري ، عبد النبي بن عبد الرسول ، ت 961هـ ، دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون ، تحقيق : حسن هاني فحص ، دار الكتب العلمية - لبنان ، (ط 1421/1هـ) ، (311/3) .

² سورة الأحزاب ، آية 72

³ انظر : الرازي ، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس المعروف بابن أبي حاتم ، ت 327هـ ، تفسير القرآن العظيم ، تحقيق : أسعد محمد الطيب ، المكتبة العصرية - صيدا ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) ، (3159/10) . الطبري ، جامع البيان ، (54/22) .

⁴ انظر : البغوي ، الحسين بن مسعود بن محمد ، ت 516هـ ، معالم التنزيل في التفسير ، تحقيق : خالد عبد الرحمن العك ، دار المعرفة - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) ، (546/3) . وانظر : القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ، ت 631هـ ، الجامع لأحكام القرآن ، دار الشعب - القاهرة ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) ، (254/14) .

⁵ هو : عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم القرشي السهمي ، كنيته عند الأكثر أبو محمد ، من الصحابة الكرام ، وممن روى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلم قبل أبيه ، عمي في آخر عمره ، مات بالشام سنة 65هـ ، وهو ابن 72 سنة . انظر : العسقلاني ، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر ، ت 852هـ ، الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق : علي محمد الجاوي ، دار الجيل - بيروت ، (ط 1412/1هـ) ، (193 - 192/4) .

⁶ روي بالإسناد بألفاظ متعددة . انظر : ابن أبي الدنيا ، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي ، ت 281هـ ، الورع ، تحقيق : أبي عبد الله محمد بن حمد الحمود ، دار السلفية - الكويت ، (ط 1408/1هـ) ، (ص 92) . وأورده أيضا في كتابه : مكارم الأخلاق ، تحقيق : مجدي السيد إبراهيم ، دار مكتبة القرآن - القاهرة ، (طبعة سنة 1411هـ) (ص 90) . ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن ، ت 597هـ ، ذم الهوى ، تحقيق : مصطفى عبد الواحد ، (طبعة سنة 1962م) ، (ص 193) . وقد ورد منسوباً للنبي عليه السلام ، انظر : الرازي ، أبو القاسم تمام بن

قال الآلوسي¹ رحمه الله : " ولا يخفى أن تفسير الأمانة في الآية بالأعضاء مما لا ينبغي أن يُلتفت إليه . والخبر المذكور إن صح لا يدل عليه "²، ثم رجّح القول بأن الأمانة المقصودة في الآية هي أمانة التكليف والفرائض ، من فعلٍ وترك ، دون تخصيص ذلك بأمرٍ دون غيره ، فهي الأوامر والنواهي على العموم ³.

" ومن هذه الأمانات - الداخلة في ثنايا ما سبق - أمانة التعامل مع الناس ، ورد أماناتهم إليهم ... وأمانة النصيحة للراعي وللرعية ، وأمانة القيام على الأطفال الناشئة ، وأمانة المحافظة على حرمان الجماعة وأموالها وثغراتها ، وسائر ما يجلوه المنهج الرباني من الواجبات والتكاليف في كل مجالات الحياة على وجه الإجمال ، فهذه من الأمانات التي يأمر الله أن تؤدى "⁴.

من هنا يتضح أن الأمانة لها معنى واسعاً ، ورد ذلك عن بعض الصحابة وعن كثير من أهل العلم ، ولعل من الإشارات الدالة على هذا المعنى الشامل لخيانة الأمانة السياق القرآني الذي وردت فيه الآية الكريمة التي تنهى عن الخيانة ، وهي قوله تعالى : { يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }⁵ . فعدا عن أن الآية ذكرت أنواعاً للخيانة : خيانة الله ، وخيانة الرسول ، وخيانة الأمانات ، فقد جاءت في سياق يشير إلى تعدد الأمانات التي يجب على المسلم أدائها ، والحذر من الوقوع في خيانتها ، فقبل هذه الآية بآيتين جاء قوله تعالى : { يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا

محمد ، ت414هـ ، الفوائد ، تحقيق : حمدي عبد المجيد السلفي ، مكتبة الرشد - الرياض ، (ط1/1412هـ) ، (358/1) .

¹ هو : شهاب الدين السيد محمود بن عبد الله بن محمود بن درويش ، العلامة أبو الثناء الآلوسي البغدادي ، الشافعي ، مفتي الحنفية فيها ، سافر إلى القسطنطينية ، ورجع إلى بلده ، وتوفي بها سنة 1270هـ ، وكانت ولادته سنة 1217هـ ، وله من المصنفات : الأجوبة العراقية عن الأسئلة الإيرانية ، التبيان في شرح البرهان ، وتفسير روح المعاني ، وغيرها الكثير . انظر : القسطنطيني ، مصطفى بن عبد الله الرومي ، ت1050هـ ، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (طبعة سنة 1413هـ) ، (419-418/6) .

² الآلوسي ، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي ، ت1270هـ ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) ، (97/22) .

³ انظر : المرجع السابق ، (97/22) .

⁴ قطب ، سيد ، ت1386هـ ، في ظلال القرآن ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (ط5/1386هـ) ، (414/5) .

⁵ سورة الأنفال ، آية 27

تُحْيِيكُمْ¹. حيث دعت الآية إلى التزام التكليف الشرعية ، والتي هي من الأمانات ، وعدم الاستجابة لهذا النداء الرباني يعد خيانة لله تعالى . وهذا ما أكدته الآية التالية ، التي تحذر من عقوبة الدنيا والآخرة لمن خان الله والرسول ، ولم يستجب لنداء الحق . قال تعالى: {وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }².

وفي ذات السياق - وبعد الآية التي تنهى عن الخيانة - جاء بيان آخر لنوع آخر من الأمانات التي يجب الحذر من خيانتها ، وذلك في قوله تعالى : { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا آموالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ }³. فالمال والولد أمانة ، لا ينجح في الوفاء بها كل أحد . وفي ذات السياق أيضا يضرب الله تعالى المثل في خيانة قوم النبي صلى الله عليه وسلم إياه ، ومكرهم به ، ليكون بذلك قد اكتمل المشهد . قال تعالى : { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ }⁴. وهكذا يمكن فهم الآية من كلام الله تعالى في سياقها فتتضح الصورة ويكتمل المشهد .

فالأمانة التي هي ضد الخيانة ، تشمل كل ما أوتمن عليه الإنسان ؛ من أمانة التكليف الشرعية ، وأمانة الوطن والمقدسات ، وأمانة العهد والميثاق ، وأمانة الودائع والأموال ، وأمانة الرابطة الزوجية ، وأمانة النفس والجوارح والأعضاء ، وغير ذلك من الأمانات ، التي يطالب المسلم بأدائها ، ويحرم عليه خيانتها ، امتثالاً لقول الله عز وجل : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَخَوْنُوا أَمْنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }⁵.

¹ سورة الأنفال ، آية 24

² سورة الأنفال ، آية 25

³ سورة الأنفال ، آية 28

⁴ سورة الأنفال ، آية 30

⁵ سورة الأنفال ، آية 27

فِعصيان الله تعالى ومخالفة أمره ، خيانة لله ، والحياد عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومخالفة أمره ، خيانة للرسول ، والتكاليف الشرعية أمانة وعدم أدائها خيانة للدين ، وأرض المسلمين ومقدساتهم أمانة ، والتفريط فيها وتضييعها والإخلال بأمنها خيانة للأمة ، كذلك الرابطة الزوجية برباطها الوثيق المقدس أمانة ، والاستهانة بها والخروج عن ضوابطها الشرعية خيانة ، وما استحفظ عليه الإنسان من الودائع والأموال ، وكذلك الأسرار هو أمانة ، وتضييع الأموال أو جحودها ، وكذلك إفشاء الأسرار خيانة ، حتى ما أنعمه الله تعالى علينا من النعم ، وما سخر لنا في هذا الكون ، وما أعطانا من جوارح وعقول وغير ذلك ، كل ذلك أمانة ، وتسخيره في غير ما أراد الله تعالى خيانة للأمانة .

المبحث الثاني الخيانة في السياق القرآني

وردت مادة "خ و ن" ومشتقاتها في القرآن الكريم في إحدى عشرة آية ، وذلك في ثمانى سور من سور القرآن الكريم ، بألفاظ مختلفة ، بيان ذلك في الجدول الآتي :

الرقم	اسم السورة	مكية أو مدنية	رقم الآية	اللفظة
1	البقرة	مدنية	187	حَتَّانُونَ
2	النساء	مدنية	105 107	لِلْخَائِبِينَ يَحْتَتُونَ / حَوَانًا
3	المائدة	مدنية	13	خَائِبَةٌ
4	الأنفال	مدنية	27 58 71	تَحُونُوا / وَتَحُونُوا خِيَانَةٌ / الْخَائِبِينَ خِيَاتَتِكَ / خَانُوا
5	يوسف	مكية	52	أَخْنَهُ / الْخَائِبِينَ
6	الحج	مدنية ، على خلاف	38	خَوَانٍ
7	غافر	مكية	19	خَائِبَةٌ
8	التحریم	مدنية	10	فَخَانَتَاهُمَا

ومن الجدير بالملاحظة أن جميع السور المذكورة ، والتي وردت فيها مادة (خ و ن) ، سور مدنية ، باستثناء سورتي : يوسف وغافر¹ ؛ وذلك لأن ظاهرة الخيانة والنفاق لم تكن قد نشأت

¹ اختلف العلماء في سورة الحج كونها مكية أو مدنية ، وذكر صاحب البرهان أنها مدنية إلا أربع آيات . انظر : الزركشي ، أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله ، ت794 هـ ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق : محمد أبو الفضل

إلا في جو المدينة ، ولم يكن للكيد والمكر بالمسلمين ما يدعو إليه إلا عندما أصبح للمسلمين دولة وقوة وهيبة ، فكان عندها التآمر ، والخيانة والدس ؛ لأجل هدم بنيان هذا المجتمع ، وتقويض أسسه . أما ما كان من العداء للمسلمين في العهد المكي فقد كان جهرة ، ولم يكن يخشى أحد من المشركين الاعتداء على الإسلام وأهله .

وما ورد من لفظ الخيانة في السورتين المكيّتين ، قد يُفهم على النحو الآتي : سورة يوسف جاء اللفظ فيها في سياق الحديث عن قصة خيانة امرأة العزيز ، فهو حديث عن قصص السابقين . مع العلم أن الخيانة في عصور ما قبل الإسلام كانت موجودة ، بل هي موجودة منذ وجود البشرية على هذه الأرض . وأما في سورة غافر فالآية تتحدث عن الخيانة بالنظرة المحرمة ، وهو أمر وارد في العهد المكي كما في العهد المدني ، كما في كل العصور والأزمان ، وفيه تربية للمسلمين في كل زمن .

وقد جاءت ألفاظ الخيانة المذكورة تحمل وجوهاً متقاربةً في سياقاتها ، يجمعها ما سبق بيانه من المعنى الذي تضمّنه لفظ الخيانة في اللغة والاصطلاح ، وهذه الوجوه خمسة¹ :

* الوجه الأول : المعصية ، ومنه قوله تعالى في البقرة : { عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ

تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ }² . أورد البخاري في صحيحه في سبب نزول هذه الآية ، عن البراء رضي الله عنه : " لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كلّه ، وكان رجال يخونون أنفسهم ، فأنزل الله { عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ }"³ ، فالخيانة هنا معناها : " تخونون أنفسكم بالمباشرة في ليالي الصوم ، ومن عصى الله فقد خان نفسه ؛ إذ جلب

إبراهيم ، دار المعرفة - بيروت ، (ط سنة 1391 هـ) ، (202/1) . الصالح ، صبحي ، ت 1406 هـ ، مباحث في علوم القرآن ، دار العلم للملايين - بيروت ، (ط 17/1988 م) ، (ص 182) .

¹ انظر : ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ، ت 597 هـ ، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ، تحقيق : محمد عبد الكريم كاظم الراضي ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، (ط 1404 هـ) ، (ص 281) .

² سورة البقرة ، آية 187

³ البخاري ، محمد بن إسماعيل الجعفي ، ت 256 هـ ، الجامع الصحيح المختصر ، تحقيق : مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير - بيروت ، (ط 1407/3 هـ) ، كتاب : تفسير القرآن ، باب : { أحل لكم ليلة الصيام ... } ، حديث : 4238 ، (1639/4) .

إليها العقاب"¹. وفي الأنفال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمَنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }². ولا شك في أن خيانة الله تعالى ، وخيانة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وخيانة الأمانات ، هي معصية وذنب ، وقد أورد الطبري³ معنى الخيانة الوارد في الآية الكريمة فقال : " وخيانتهم الله ورسوله كانت بإظهار من أظهر منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الإيمان في الظاهر والنصيحة ، وهو يستسر الكفر والغش لهم في الباطن ، يدلون المشركين على عورتهم ، ويخبرونهم بما خفي عنهم من خبرهم . وقد اختلف أهل التأويل فيمن نزلت هذه الآية ، وفي السبب الذي نزلت فيه . فقال بعضهم : نزلت في منافق كتب إلى أبي سفيان⁴ يطلعه على سر المسلمين ... وقال آخرون : بل نزلت في أبي لبابة⁵ للذي كان من أمره وأمر بني قريظة ... وقال آخرون : نزلت في شأن قتل عثمان رضي الله عنه ... وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ، أن يقال : إن الله نهى المؤمنين عن خيانتهم ، وخيانة رسوله ، وخيانة أمانته . وجائز أن تكون نزلت في أبي لبابة ، وجائز أن تكون نزلت في غيره⁶ . ولا خبر عندنا بأي ذلك كان يجب التسليم له بصحته"⁷. يقول ابن كثير⁸ رحمه الله : " والصحيح أن

¹ القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (315/2) .

² سورة الأنفال ، آية 27

³ هو : محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري ، صاحب المصنفات والتفسير والتاريخ ، ولد في طبرستان سنة 224 هـ ، كان أحد أئمة العلم ، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، له الكثير من المصنفات ، منها : تهذيب الآثار ، وتفسير جامع البيان ، توفي في شوال سنة 310 هـ في بغداد . انظر : الذهبي ، أبا عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ، ت748 هـ ، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ، تحقيق : بشار عواد وآخرون ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، (ط1 / 1404 هـ) ، (266/1) .

⁴ هو : أبو سفيان بن حرب ، اسمه صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس ، والد معاوية بن أبي سفيان ، أسلم يوم فتح مكة ، مات سنة 31 هـ . انظر : البستي ، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد ، ت354 هـ ، مشاهير علماء الأمصار ، تحقيق : م. فلايشهمر ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (ط سنة 1959 م) ، (ص32) .

⁵ هو : أبو لبابة بن عبد المنذر الأنصاري ، يُقال : اسمه بشير ، كان نقيباً ، شهد العقبة وبدر ، أمره النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة لما خرج إلى غزوة السويق ، قيل أنه اقتترف ذنباً عندما أشار إلى حلفائه من بني قريظة أنه السذبح إن نزلتم على حكم سعد بن معاذ ، وأشار إلى حلقه ، وقيل : أن ذنبه كان يتخلفه عن الجهاد يوم تبوك ، مات في خلافة علي رضي الله عنهما . انظر : ابن عبد البر ، يوسف بن عبد الله بن محمد ، ت463 هـ ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار الجليل - بيروت ، (ط1 / 1412 هـ) ، (1740/4 - 1742) .

⁶ ولم يثبت بعد البحث صحة الأخبار الواردة في سبب نزول هذه الآية .

⁷ الطبري ، جامع البيان ، (222/9) .

⁸ هو : إسماعيل بن عمر بن كثير الإمام الفقيه المحدث الأوحد البارح ، فقيه متقن ، ومحدث متقن ، ومفسر نقال ، وله تصانيف مفيدة ، ولد سنة نيّف وسبعمائة ، وتوفي سنة 774 هـ . انظر : الذهبي ، أبا عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ،

أن الآية عامة ، وإن صح أنها وردت على سبب خاص ، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء . والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار ، اللازمة والمتعدية ¹ . " ففي هذه الآية سمى الله المعصية بالخيانة " ² . وقد ورد في معنى الخيانة الوارد في الآية الكريمة أقوالاً أخرى ، مثل : الغلول من الغنائم ، وإفشاء الأسرار للمشركين ³ ، والإخلال بالسلاح في البعث ⁴ ، وكل ذلك لا شك من المعاصي والذنوب . وفي الحكمة البيانية من إعادة لفظة { وَخُونُوا } عند ذكر الأمانات يقول صاحب البحر المحيط ⁵ : " وجوزوا في { وَخُونُوا } أن يكون مجزوما عطفاً على { لَا تَخُونُوا } ، ومنصوباً على جواب النهي ، وكونه مجزوماً هو الراجح ؛ لأن النصب يقتضي النهي عن الجمع ، والجزم يقتضي النهي عن كل واحد " ⁶ . فالمقصود في النهي إذن : لا تخونوا الله ، ولا تخونوا الرسول ، ولا تخونوا أماناتكم . وفي معنى قوله تعالى : { وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } قيل : هي " جملة حالية ، أي وأنتم تعلمون تبعاً ذلك ووباله ، فكان ذلك أبعد لكم من الوقوع في الخيانة ؛ لأن العالم بما يترتب على الذنب يكون أبعد الناس عنه . وقيل : وأنتم تعلمون أن الخيانة توجد منكم عن تعمد ، لا عن سهو . وقيل : وأنتم عالمون ، تعلمون قبح القبيح وحسن الحسن ⁷ . وهذا يبعدنا عن الفهم المغلوط الذي قد يتبادر للمرء من جواز الوقوع في الخيانة لمن لا يعلم أنها خيانة ؛ أي بسبب الجهل .

ت 748هـ ، المعجم المختص بالمحدثين ، تحقيق : محمد الحبيب الهيلة ، مكتبة الصديق - الطائف ، (ط1/1408 هـ) ، (ص75) .

¹ ابن كثير ، إسماعيل بن عمر الدمشقي ، ت 774هـ ، تفسير القرآن العظيم ، دار الفكر - بيروت ، (طبعة سنة 1401هـ) ، (302/2) .

² الرازي ، فخر الدين محمد بن عمر التميمي ، ت 606هـ ، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (ط1/1421هـ) ، (91/5) .

³ انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (395/7) .

⁴ الرازي ، تفسير القرآن العظيم ، (1684/5) .

⁵ هو : محمد بن يوسف بن علي بن حبان الأندلسي ، صاحب التصانيف البديعة ، ولد سنة 654هـ ، أخذ عن علماء الأندلس والعدوة ومصر ، توفي في صفر سنة 745هـ . انظر : الذهبي ، المعجم المختص بالمحدثين ، (ص268) .

⁶ أبو حيان ، محمد بن يوسف الأندلسي ، ت 745هـ ، البحر المحيط ، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وآخرون ، دار الكتب العلمية - لبنان ، (ط1/1422هـ) ، (480/4) .

⁷ المرجع السابق ، (480/4) . وانظر : الشوكاني ، محمد بن علي بن محمد ، ت 1250هـ ، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، دار الفكر - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) ، (301/2) .

وفي حم المؤمن : { يَعْلَمُ خَائِبَةً الْأَعْيُنِ }¹. " يعني الغمزة فيما لا يحل بعينه ، والنظرة في المعصية "².

وفي النساء أيضا جاء النهي عن المدافعة والمجادلة عن الذين يختانون أنفسهم بالمعاصي والذنوب ، مثل طعمة بن أبيرق³ ومن معه ، كما ورد في سبب نزول الآية⁴ ، قال تعالى : { وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا }⁵، وقد وقد ذكر أهل التفسير قولين في معنى خيانة النفس هنا ، فقيل : " وجعلت خيانة الغير خيانة لأنفسهم ؛ لأن وبالها وضررها عائد عليهم ، ويحتمل أنه جعلت المعصية خيانة ، فمعنى { يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ } : يظلمونها باكتساب المعاصي ، وارتكاب الآثام "⁶. وهذا الرأي الأخير هو ما عليه أكثر أهل التأويل⁷. وجاء اللفظ تعقيبا بصيغة {خَوَّانًا} ؛ لأنه " أبلغ ؛ لأنه من أبنية المبالغة ، وإنما كان ذلك لعظم قدر تلك الخيانة والله أعلم "⁸. قال الزمخشري رحمه الله : " {خَوَّانًا أَثِيمًا} على المبالغة ، قلت : كان الله عالما من طعمة بالإفراط في الخيانة وركوب المآثم ، ومن كانت تلك خاتمة أمره لم يُشكَّ في حاله ، وقيل : إذا عتَّرت من رجل على سيئة ، فاعلم أن لها أخوات "⁹. وقيل : " أتى بصيغة المبالغة فيهما ؛ ليُخرج منه مَنْ وقع في الإثم والخيانة مرة ، ومَنْ صدر منه ذلك على سبيل الغفلة ، وعدم القصد "¹⁰. " وإرداف الخوان بالأثيم ، قيل : للمبالغة ، وقيل : إن الأول باعتبار السرقة ، أو إنكار الوديعة ، والثاني باعتبار

¹ سورة غافر ، آية 19

² مقاتل ، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي ، ت150هـ ، تفسير مقاتل بن سليمان ، تحقيق : أحمد فريد ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (ط1/1424هـ) ، (3/146) .

³ هو : طعمة بن أبيرق بن عمرو الأنصاري ، ذُكر في الصحابة ، وقيل إنه شهد المشاهد كلها إلا بدرأ ، وقد نُكِّم في إيمانه . انظر : العسقلاني ، الإصابة ، (3/518) .

⁴ انظر : الرازي ، تفسير القرآن العظيم ، (4/1060) . الطبري ، جامع البيان ، (5/271) .

⁵ سورة النساء ، آية 107

⁶ الألويسي ، روح المعاني ، (5/141) .

⁷ انظر : الطبري ، جامع البيان ، (5/271) . البغوي ، معالم التنزيل ، (1/478) . البيضاوي ، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي ، ت685هـ ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، دار الفكر - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) ، (2/249) . أبو حيان ، البحر المحيط ، (3/359) .

⁸ القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (5/378) .

⁹ الزمخشري ، الكشاف ، (1/596) .

¹⁰ الألويسي ، روح المعاني ، (5/141) . وانظر : أبو حيان ، البحر المحيط ، (3/359) .

تهمة البريء ... وقُدِّمت صفة الخيانة على صفة الإثم ؛ لأنها سبب له ، أو لأن وقوعهما كان كذلك ، أو لتواخي الفواصل على ما قيل ¹ .

* الوجه الثاني : **نقض العهد** ، ومنه قوله تعالى في المائدة : { وَلَا تَرَالُ تَطَّلُعُ عَلَىٰ حَٰبِنَةٍ مِّنْهُمْ }² . والكلام عن اليهود ، " وكانت خيانتهم نقضهم العهد بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومظاهرتهم المشركين على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كيوم الأحزاب ، وغير ذلك من همهم بقتله وسبّه ³ . وفي الأنفال : { وَإِذَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً }⁴ . خيانة : أي : " نقضا لما بينك وبينهم من الموائيق والعهود ⁵ . والخيانة المقصودة هنا هي الخيانة المتوقعة والمخوفة ، لا المتيقنة ، بل التي دلت عليها القرائن ⁶ . فجاء التعبير في الآية ب (تَخَافُ) هنا للتدليل على أن الأمر لم يحدث ، ولكن بدت علاماته ، ف " معنى الخيانة هنا : الإحساس بالخيانة ⁷ . وقال بعض المفسرين : " الخوف ها هنا بمعنى العلم ، والمعنى : إن علمت من قوم عاهدتهم خيانة وهي : نقض العهد ⁸ . ولا أرى خلافاً بين القولين ، فالإحساس المقصود هو الذي دلت عليه قرائن واضحة مؤكدة تدل على نوايا خبيثة مبيتة لنقض العهد . ويؤيد ذلك تنكير لفظة { خِيَانَةً } ، أي : أيّ خيانة ، أو إشارة تدل على الخيانة .

¹ الألويسي ، روح المعاني ، (141/5) . وانظر : أبو حيان ، البحر المحيط ، (359/3) .

² سورة المائدة ، آية 13

³ القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (116/6) .

⁴ سورة الأنفال ، آية 58

⁵ ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، (321/2) . وانظر : الواحدي ، أبو الحسن علي بن أحمد ، ت468هـ ، السجيز في تفسير الكتاب العزيز ، تحقيق : صفوان عدنان داوودي ، دار القلم - دمشق ، (ط1/1415هـ) ، (445/1) .

⁶ انظر : الزمخشري ، الكشاف ، (219/2) ، البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (117/3) .

⁷ السمعاني ، تفسير القرآن ، (274/2) .

⁸ ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ، ت597هـ ، زاد المسير في علم التفسير ، دار المكتب الإسلامي - بيروت ، (ط3/1404) ، (373/3) . وانظر : ابن عطية ، عبد الحق بن غالب الأندلسي ، ت541هـ ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية - لبنان ، (ط1/1413هـ) ، (543/2) . أبي السعود ، محمد بن محمد العمادي ، ت982هـ ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، المعروف بتفسير أبي السعود ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) (31/4) .

ومن هنا كان الأمر للنبي عليه السلام بنقض العهد مع المعاهدين الذين بدت منهم إمارات وإشارات تدل قطعاً على نيتهم نقض العهد ، وفي ذلك وقاية من شرورهم ، وأذاهم ؛ لأن انتظار مفاجأتهم للمسلمين بنقض العهد ، سيكون سبباً ولا شك في إلحاق الأذى بالمسلمين . وفي بيان الحكمة من نبذ العهد هنا ، يقول ابن العربي¹ : " إن قيل كيف يجوز نقض العهد مع خوف الخيانة ، والخوف ظن لا يقين معه ؟ فكيف يسقط يقين العهد بظن الخيانة ؟ فعنه جوابان ، أحدهما : أن خوفها هنا بمعنى اليقين ، كما يأتي الرجاء بمعنى العلم كقوله : { لَا تَرَجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا }². الثاني : إنه إذا ظهرت آثار الخيانة ، وثبتت دلائلها ، وجب نبذ العهد لئلا يوقع التمادي عليه في الهلكة . وجاز إسقاط اليقين هنا بالظن للضرورة ، وإذا كان العهد قد وقع ، فهذا الشرط عادة ، وإن لم يصرح به لفظاً ؛ إذ لا يمكن أكثر من هذا"³. وفي عدم جواز نقض نقض العهد بدون دلائل واضحة ، يقول الإمام الشافعي رحمه الله : " فإن قال الإمام : أخاف خيانة قوم . ولا دلالة له على خيانتهم ، من خبر ولا عيان ، فليس له ، والله تعالى أعلم نقض مدتهم ، إذا كانت صحيحة ؛ لأن معقولا أن خوف من خيانتهم الذي يجوز به النبذ إليهم ، لا يكون إلا بدلالة على خوف"⁴.

ويستفاد من الجار والمجرور في قوله تعالى : { مِنْ قَوْمٍ } ، أي : من كل قوم تخاف منهم خبانة ، فانبذ إليهم على سواء ، وهذا أيضاً تأكيد على الحرص والوقاية من الخائنين ، ومن شرورهم وأذاهم . قال الشوكاني⁵ :

¹ هو : ابن العربي العلامة الحافظ القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد الإشبيلي ، ولد سنة 468هـ ، ورحل مع أبيه إلى المشرق ، صنّف في الحديث والفقه والأصول وعلوم القرآن والأدب والنحو والتاريخ ، توفي في ربيع الآخر سنة 543هـ . انظر : الذهبي ، أبا عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ، ت 748هـ ، تذكرة الحفاظ ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (ط1/ بدون سنة نشر) ، (1294/4 - 1297) .

² سورة نوح ، آية 13

³ ابن العربي ، أبو بكر محمد بن عبد الله ، ت 543هـ ، أحكام القرآن ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، دار الفكر للطباعة والنشر - لبنان ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) ، (420/2) . انظر أيضاً : الطبري ، جامع البيان ، (27/10) .

⁴ الشافعي ، أبو عبد الله محمد بن إدريس ، ت 204هـ ، الأم ، دار المعرفة - بيروت ، (ط2/1393هـ) ، (4/185) .

⁵ هو : محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، ولد في الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة سنة 1172هـ ، له العديد من التصانيف مثل : التفسير المسمى فتح القدير ، والدرر البهية في الفقه ، والفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ، وإرشاد الفحول ، وغيرها ، وكانت وفاته في شهر جمادى الآخرة سنة 1250هـ تقريباً . انظر : القنوجي ، صديق بن

" والظاهر أن هذه الآية عامة في كل معاهد يُخاف من وقوع النقص منه "1.

* الوجه الثالث : **ترك الأمانة** ، ومنه قوله تعالى في سورة النساء : { وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا }². نزلت في طعمة بن أبيرق ، كان عنده درع فخانها³. ومن ذلك أيضا : قوله تعالى : { لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتِكُمْ }⁴. وقد ذكر بعض أهل التفسير⁵ أن العطف بالواو في قوله تعالى : (وتخونوا) ، يفيد المغايرة ، أي أن خيانة الأمانة غير خيانة الله والرسول . والله تعالى سمى بنص الآية الكريمة ترك الأمانة ، خيانة .

* الوجه الرابع : **المخالفة في الدين** . ومنه قوله تعالى في سورة النساء : { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا }⁶. وقد ذكر أن الآية نزلت في طعمة بن أبيرق ، وكان منافقا⁷. " فإن قيل لم قال { خَوَانًا أَثِيمًا } ، مع أن الصادر عنه خيانة واحدة ، وإثم واحد ؟ قلنا : علم الله تعالى أنه كان في طبع ذلك الرجل الخيانة الكثيرة ، والإثم الكثير ؛ فذكر اللفظ الدال على المبالغة بسبب ما كان في طبعه من الميل إلى ذلك . ويدل عليه ما روينا ، أنه بعد هذه الواقعة هرب إلى مكة ، وارتد ، ونقب حائط إنسان لأجل السرقة ، فسقط الحائط عليه ، ومات ، ومن كانت خاتمته كذلك ، لم يُشكَّ في خيانتها . وأيضا طلب من النبي عليه الصلاة والسلام ، أن يدفع السرقة عنه ويلحقها باليهودي ، وهذا يبطل رسالة الرسول ، ومن حاول إبطال رسالة الرسول ، وأراد إظهار كذبه ، فقد كفر . فلهذا المعنى وصفه الله بالمبالغة في الخيانة والإثم "8.

حسن ، ت1357هـ ، أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم ، تحقيق : عبد الجبار زكار ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (طبعة سنة 1978م) ، (201/3) .

¹ الشوكاني ، فتح القدير ، (320/2) . وانظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ، (543/2) .

² سورة النساء ، آية 105

³ انظر : ص162

⁴ سورة الأنفال ، آية 27

⁵ انظر : الرازي ، التفسير الكبير ، (122/15) .

⁶ سورة النساء ، آية 107

⁷ انظر : ص162

⁸ الرازي ، التفسير الكبير ، (29/11) .

وفي الأنفال : { وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ }¹. والمراد بالخيانة هنا : الخيانة في الدين ، وذلك بالكفر². وإن كان في معنى الخيانة هنا ثلاثة أقوال³. وفي التحريم : { كَاتَبَتْكَ عِبْدٌ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتْهُمَا }⁴. نقل القرطبي⁵ القرطبي⁵ رحمه الله القول بأن الخيانة المقصودة هنا ، هي الخيانة بالكفر ومخالفة الدين⁶. كما ذكر أقوالاً أخرى في معناها ، ونقل كلام ابن عباس رضي الله عنهما : " ما بغت امرأة نبي قط"⁷ ، وأكد على إجماع المفسرين على ذلك⁸.

* الوجه الخامس : الزنا . ومنه قوله تعالى في سورة يوسف : { وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ }⁹. نقل بعض أهل التفسير القول بأن معنى الآية ، أن الله لا يصلح ، ولا يصوب عمل

¹ سورة الأنفال ، آية 71

² انظر : الطبري ، جامع البيان ، (50/10) . الواحدي ، الوجيز ، (449/1) . الرازي ، التفسير الكبير ، (164/15) . البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (123/3) .

³ انظر : الرازي ، التفسير الكبير ، (164/15) .

⁴ سورة التحريم ، آية 10

⁵ هو : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي المالكي أبو عبد الله القرطبي ، مصنف التفسير المشهور المشهور المسمى : جامع أحكام القرآن ، وله أيضا كتاب : التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ، توفي سنة 631هـ . انظر : الأذنه وي ، أحمد بن محمد ، ت ق 11 هـ ، طبقات المفسرين ، تحقيق : سليمان بن صالح الخزبي ، مكتبة العلوم والحكم - السعودية ، (ط1/1417هـ) ، (ص 246 - 247) .

⁶ انظر أيضا : البغوي ، معالم التنزيل ، (368/4) . الجلالين : المحلي ، جلال الدين محمد بن أحمد ، ت 864هـ . والسيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ، ت 911هـ ، تفسير الجلالين ، دار الحديث - القاهرة ، (ط1/ بدون سنة نشر) ، (753/1) .

⁷ أخرجه : الصنعاني ، عبد الرزاق بن همام ، ت 211هـ ، تفسير القرآن ، تحقيق : مصطفى مسلم محمد ، مكتبة الرشيد - الرياض ، (ط1/1410هـ) ، (310/2) . وانظر : الزيلعي ، جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد ، ت 762هـ ، تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري ، تحقيق : عبد الله بن عبد الرحمن السعد ، دار ابن خزيمة - الرياض ، (ط1/1414هـ) ، (66/4) .

⁸ انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (202/18) .

⁹ سورة يوسف ، آية 52

عمل الزناة¹. وفي الآية تعريض بامرأة العزيز في خيانتها أمانة زوجها بمرادة يوسف عليه السلام عن نفسه².

¹ انظر : ابن الجوزي ، زاد المسير ، (240/4) . ابن أبي زمنين ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله ، تفسير القرآن العزيز ، تحقيق : أبو عبد الله حسين بن عكاشة وغيره ، دار الفاروق الحديثة - القاهرة ، (ط1/1423) ، (2/330) .
² انظر : النسفي ، عمر بن محمد بن إسماعيل ، ت 537هـ ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، (بدون طبعة ولا سنة ولا بلد نشر) ، (2/193) . الزمخشري ، الكشاف ، (2/452) . البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (3/294) . الشوكاني ، فتح القدير ، (3/34) .

المبحث الثالث

نظائر الخيانة في القرآن الكريم

النظائر : " جمع نظيرة ، وهي المثل والشبه في الأشكال والأخلاق والأفعال والأقوال "1. والمراد هنا : الألفاظ الواردة في القرآن الكريم ، والتي تشبه في المعنى لفظة الخيانة ، وهي : المكر ، والكيد ، والتجسس ، والخداع ، والنفاق . وبيان وجه الشبه والعلاقة بينها وبين لفظة الخيانة في المطالب الخمسة الآتية :

المطلب الأول : المكر

يدور معنى المكر في اللغة على : الاحتيال والخديعة . جاء في لسان العرب : " المكر احتيال في خفية "2.

أما في الاصطلاح فهو : " صرف الغير عما يقصده بحيلة . وذلك ضربان : محمود ، وهو : أن يتحرى به فعل جميل ، ومذموم وهو : أن يتحرى به فعل قبيح "3. فالمكر : " الخديعة والاحتيال للممكور به بالغدر ، ليورطه الماكر به مكروها من الأمر "4. ولا بد هنا من التفريق بين المكر المذموم من فعل الناس ، والمكر الذي وصف الله تعالى به نفسه . وقد فرق ابن القيم⁵ رحمه الله بين المكرين ، فقال : " وأما المكر الذي وصف الله به نفسه ، فهو مجازاته للماكرين بأوليائه ورسله ، فيقابل مكرهم السيئ بمكره الحسن ، فيكون المكر منهم أقبح شيء ، ومنه أحسن شيء ؛ لأنه عدل ومجازاة . وكذلك المخادعة منه جزاء على مخادعة رسله وأوليائه ، فلا أحسن من تلك المخادعة والمكر "6.

¹ ابن منظور ، لسان العرب ، (219/5) .

² المرجع السابق ، (183/5) .

³ المناوي ، التوقيف على مهمات التعاريف ، (ص673) .

⁴ الطبري ، جامع البيان ، (25/8) .

⁵ هو : الشيخ محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي ، العالم الفاضل المحقق شمس الدين ، قد فسّر الفاتحة ، وصنف التبيان في أقسام القرآن ، وتوفي في سنة 751هـ . الأذنه وي ، طبقات المفسرين ، (ص284) .

⁶ ابن قيم الجوزية ، محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي ، ت751هـ ، الفوائد ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (ط1393هـ) ، (ص163) .

ومن هنا فليس كل مكر خيانة ، فهناك مكر حسن ، في حين الخيانة كلها شر وأذى ، وليس هناك خيانة حسنة ، ولا يطلق لفظ الخيانة إلا على كل فعل قبيح .
ويلاحظ اشتراك المكر والخيانة في الاحتيال في الخفاء ، فكما أن المكر احتيال في خفية ، فكذا جاء " استعمال الخيانة فيما خفي عن المخون " ¹.

وقد وردت مادة (م ك ر) ومشتقاتها في القرآن الكريم في ثلاثة وأربعين موضعا ، وذلك في ثلاث وعشرين آية ² ، وكان ورودها في أربع عشرة سورة من سور القرآن الكريم ، مثل قوله تعالى : { وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } ³ ، وقوله تعالى : { وَمَكْرُؤًا مَكَرًا كُبَارًا } ⁴ . وورودها في هذه الأربع عشرة سورة فيه دلالة واضحة على المساحة الكبيرة التي خصصها القرآن الكريم لهذه اللفظة ومدلولاتها ، مما يشير إلى الأهمية الكبيرة التي أولاها القرآن الكريم لهذا المعنى .

المطلب الثاني : الكيد

يطلق الكيد في اللغة على الخبث والمكر ، وعلى التدبير بباطل أو حق ⁵.

وعرفه الجرجاني بقوله : " إرادة مضرة الغير خفية ، وهو من الخلق : الحيلة السيئة ، ومن الله : التدبير بالحق لمجازاة أعمال الخلق " ⁶ . وهو كما قال الرازي : " فعل يسوء من نزل به ، وإن حسن ممن صدر منه " ⁷ . وعلى هذا فهناك فرق بين الكيد والخيانة ، كما سبق الحديث عن

¹ ابن تيمية ، أبو العباس أحمد عبد الحلیم بن تيمية الحراني ، ت 728هـ ، كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (مجموع الفتاوى) ، تحقيق : عبد الرحمن بن محمد العاصمي ، مكتبة ابن تيمية ، (ط2/ بدون سنة نشر) ، (440/14) .

² عبد الباقي ، محمد فؤاد ، ت 1388هـ ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، دار الفكر - بيروت ، (ط 1401/2هـ) ، (ص 670-671) .

³ سورة النمل ، آية 50

⁴ سورة نوح ، آية 22

⁵ انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، (384/3) .

⁶ الجرجاني ، علي بن محمد بن علي ، ت 816 هـ ، التعريفات ، تحقيق : إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب العربي - بيروت ، (ط 1405/1هـ) ، (ص 241) .

⁷ الرازي ، التفسير الكبير ، (234/28) .

الفرق بين المكر والخيانة ؛ وذلك أن الخيانة لا تطلق على الخير ، فهي دائما فيها المذمة والعيب لمن يفعلها ، في حين أن الكيد قد يكون في الخير كما ذكر . وتشترك مع الخيانة في التدبير بالخفاء والحيلة ، وفيها على المعنى السلبي : إرادة مضرة الغير والتدبير بالباطل ، وهذه هي الخيانة . وقد قرن الله تعالى بين المكر والخيانة في قوله تعالى : { ذَلِكْ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ }¹. والمراد بالكيد : أي كيدها بيوسف عليه السلام ، وبالخيانة : أي خيانتها لزوجها². وذكر البيضاوي³ أن المعنى : " لا يهدي الخائنين بكيدهم ، فأوقع الفعل على الكيد مبالغة"⁴. وفي القرن بين اللفظين دلالة على التقارب في المعنى بينهما .

ووردت مادة (ك ي د) في القرآن الكريم في تسع وعشرين آية⁵ ، في ست عشرة سورة . في خمسة وثلاثين موضعا ، منها قوله تعالى : { إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا }⁶ ، وفي ذلك دلالة أخرى على اعتناء القرآن الكريم بمعالجة هذه الظاهرة والتأكيد على خطورتها .

المطلب الثالث : التجسس

يطلق التجسس في اللغة على البحث والتفتيش وطلب الأخبار وتلمسها⁷.

¹ سورة يوسف ، آية 52

² انظر : الشوكاني ، فتح القدير ، (34/3) .

³ هو : عبد الله بن عمر بن محمد بن علي أبو الخير القاضي ناصر الدين البيضاوي ، صاحب الطوابع ، والمصباح في أصول الدين ، والغاية القصوى في الفقه ، والمنهاج في أصول الفقه ، ومختصر الكشاف في التفسير ، وشرح المصباح في الحديث ، كان إماما مبرزاً نظارا صالحا متعبدا زاهدا ، ولي قضاء القضاة بشيراز . السبكي ، تاج الدين بن علي بن عبد الكافي ، ت771هـ ، طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق : محمود محمد الطناحي وغيره ، هجر للطباعة والنشر والتوزيع - بدون بلد نشر ، (ط2/1413هـ) ، (157/8) .

⁴ البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (294/3) .

⁵ عبد الباقي ، المعجم المفهرس ، (ص642) .

⁶ سورة الطارق ، آية 15-16

⁷ انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، (38/6) .

وفي الاصطلاح : " جس الأخبار وتجسسها : تتبّعها . ومنه الجاسوس ؛ لأنه يتتبع الأخبار ، ويفحص عن بواطن الأمور " ¹.

وعلى هذا فالتجسس لفظ عام يستخدم في الخير وفي الشر ؛ فإن كان التجسس لتتبع أخبار الأعداء لمصلحة المسلمين ، فلا شك في أن هذا التجسس مطلوب ، بخلاف التجسس على عورات المسلمين الذي جاء النهي عنه في قوله تعالى : { وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا } ². ومن هنا يشترك التجسس في معناه مع الخيانة في جانبه المذموم ، ويفترق معه في جانبه المحمود ، فليس كل تجسس خيانة ، وإن كان التجسس المذموم من أفعال الخائنين .

ولفظ التجسس لم يرد في القرآن الكريم إلا في موضع واحد من سورة الحجرات - وهي سورة مدنية - في قوله تعالى : { يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا } ³ ، وذلك في معرض تربية المؤمنين على الأخلاق والقيم الإيمانية ، والنهي عن الأخلاق الذميمة ، والتي منها تتبع عورات المسلمين والتجسس عليهم ، بشكل عام ، ومن أجل خدمة الأعداء بشكل خاص .

المطلب الرابع : الخداع

الخدع في اللغة : " إظهار خلاف ما تخفيه ... وخدعه : أي أراد به المكروه وختله " ⁴. " وأخدعت الشيء : أخفيته ، ومنه المخدع : وهي الخزانة ، والأخدعان : العرقان في العنق لخدائهما " ⁵.

¹ انظر : المناوي ، التوقيف على مهمات التعاريف ، (ص244) .

² سورة الحجرات ، آية 12

³ سورة الحجرات ، آية 12

⁴ ابن منظور ، لسان العرب ، (63/8) .

⁵ السعدي ، أبو القاسم علي بن جعفر ، ت 514هـ ، الأفعال ، عالم الكتب - بيروت ، (ط1/1403هـ) ، (1 /

(286) .

وفي الاصطلاح : الخداع : " إنزال الغير عما هو بصدده ، بأمر يبيديه على خلاف ما يخفيه"¹. ومعنى ما سبق : إرادة الشر والمكروه بحيلة خفية ظاهرها الخير . وهذا الذي يشترك فيه الخداع مع الخيانة ، فهو مكر في الخفاء ، وهو كذلك إرادة الشر والمكروه بالغير . ويفترق مع الخيانة في كونه يحمل وجها إيجابيا ، وهو مخادعة الأعداء في الحرب ، ودليله ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : [الحرب خدعة]². وقد نسب الله تعالى الخداع لنفسه ، فقال تعالى : { إِنَّ الْمُنْفِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ }³. " والخداع من الله : مجازاتهم على خداعهم أوليائه ورسله"⁴.

وقد وردت مادة (خ د ع) في القرآن الكريم في خمسة مواضع ، في ثلاث سور ، في ثلاث آيات⁵ ، هي : قوله تعالى : { تُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا تُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ }⁶. " ومخادعتهم : ما أظهروه من الإيمان ، خلاف ما أبطنوه من الكفر"⁷. وقوله تعالى : { إِنَّ الْمُنْفِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ }⁸. " يفعلون ما يفعل يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر... (وَهُوَ خَادِعُهُمْ) : فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع"⁹.

¹ المناوي ، التوقيف على مهمات التعاريف ، (ص309) .

² البخاري ، الجامع الصحيح ، كتاب : الجهاد والسير ، باب : الحرب خدعة ، حديث : 2866 ، (1102/3) .

³ سورة النساء ، آية 142

⁴ القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (422/5) .

⁵ عبد الباقي ، المعجم المفهرس ، (ص227) .

⁶ سورة البقرة ، آية 9

⁷ القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (195/1 - 196) .

⁸ سورة النساء ، آية 142

⁹ الزمخشري ، الكشاف ، (613/1) .

وقوله تعالى : { وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ تَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِخَبْرِهِ وَيَا الْمُؤْمِنِينَ }¹. ومخادعتهم : بأن "يظهروا لك السلم ، ويبطنوا الغدر والخيانة"².

المطلب الخامس : النفاق

النفاق في اللغة : " يقال : نافق ينافق منافقة ونفاقا ، وهو مأخوذ من النافق³ ، لا من النفق : وهو السرب الذي يستتر فيه لستره كفره"⁴.

وفي الاصطلاح : " إظهار الإيمان باللسان ، وكتمان الكفر بالقلب"⁵. فالمنافق مسلم من حيث الظاهر ، بأفعاله وتطبيقه لأوامر الشرع ، وكافر من حيث الباطن ، غير مؤمن ولا مصدق بما يؤمن به المؤمنون .

قال الراغب مقارنا بين الخيانة والنفاق : " الخيانة والنفاق واحد ، إلا أن الخيانة تقال اعتبارا بالعهد والأمانة ، والنفاق يقال اعتبارا بالدين ، ثم يتداخلان ، فالخيانة : مخالفة الحق بنقض العهد في السر . ونقيض الخيانة : الأمانة"⁶. وتشتبك الخيانة مع النفاق أيضا في الاستتار ، فالخائن يغدر سرا في الغالب ، وكذا المنافق الذي يستتر كفره . والنفاق بهذا المعنى ، هو النفاق الأكبر المتعلق بالعقيدة لا بالعمل فحسب ، وهو لا شك الصورة الأعظم من صور خيانة الدين . وقد ورد الربط بين الخيانة والنفاق جليا في تفسير الطبري رحمه الله لقوله تعالى : { لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتِكُمْ }⁷ فقال : " وخيانتهم الله ورسوله كانت بإظهار من أظهر

¹ سورة الأنفال ، آية 62

² القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (42/8) .

³ النفاقاء : " إحدى جرة اليربوع ، يكتمها ويظهر غيرها " . مصطفى ، إبراهيم وآخرون ، المعجم الوسيط ، تحقيق : مجمع اللغة العربية ، دار الدعوة ، (بدون طبعة ولا سنة ولا بلد نشر) ، (942/2) .

⁴ ابن منظور ، لسان العرب ، (359/10) .

⁵ الجرجاني ، التعريفات ، (311/1) .

⁶ الراغب ، الحسين بن محمد ، ت 369هـ ، المفردات في غريب القرآن ، تحقيق : محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة - لبنان ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) ، (ص163) .

⁷ سورة الأنفال ، آية 27

منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الإيمان في الظاهر والنصيحة ، وهو يستسر الكفر والغش لهم في الباطن ... "1.

والفرق بين الخيانة والنفاق هو في العموم والخصوص ، إذ الخيانة أعم من النفاق وأشمل ، فالخيانة تشمل النفاق ، والنفاق من الخيانة ، فهو خيانة للدين . ولفظة الخيانة تاريخياً أسبق في التداول من النفاق . فالخيانة لفظة قديمة أطلقها القرآن الكريم على أفعال السابقين ، كفعل امرأة نوح ، وامرأة لوط ، وكذلك على فعل امرأة العزيز ، وغيرهم ، أما لفظة النفاق فبدأ تداولها في صدر الدولة الإسلامية ، وأريد بها تلك الفئة من الناس التي أظهرت الإيمان وأبطنت الكفر . وكلًا من الخيانة والنفاق يقسم إلى مستويات ودرجات ، فمنها العظيم والخطير والكبير ، ومنها ما هو أقل شأنًا ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

وقد ورد لفظ النفاق وتصريفاته في القرآن الكريم في تسع وعشرين آية² ، في إحدى عشرة سورة ، في ستة وثلاثين موضعًا ، كقوله تعالى : { الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ }³ ، " أي هم كالشيء الواحد في الخروج عن الدين "4. والسور التي ورد فيها لفظ النفاق سور مدنية ، باستثناء سورة العنكبوت ؛ وذلك لأن النفاق بمعناه المذكور لم يكن قد ظهر إلا في العهد المدني . وهناك العديد من الآيات الأخرى التي تحدثت عن النفاق والمنافقين بدون ذكر اللفظ ، مثل آيات سورة البقرة (8-18) ، وغيرها . ومن الملاحظ أن مساحة كبيرة أعطيت في كتاب الله تعالى لمعالجة ظاهرة النفاق ، حتى إن سورة من سور القرآن الكريم سميت باسمهم ، وليس معنى هذا أن ما لم يتوسع القرآن الكريم في ذكره يعني عدم أهميته ، ولكن تركيز القرآن الكريم على موضوع النفاق فيه إشارة إلى عظم خطورة هذه الظاهرة ؛ فهي موجبة تحديداً للمجتمع المسلم ؛ بقصد هدمه وتخريبه .

ومن الجدير ذكره أن هناك بعض الألفاظ التي تشير إلى أفعال تعد من الخيانة وتدخل في معناها ، كالسرقة والغلول ، وذلك مثل قوله تعالى : { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ

¹ الطبري ، جامع البيان ، (221/9) .

² عبد الباقي ، المعجم المفهرس ، (ص716-717) .

³ سورة التوبة ، آية 67

⁴ القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (199/8) .

بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفِّي كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ¹ . ومعنى الآية :
" ما صح لنبي أن يخون في الغنائم ، فإن النبوة تنافي الخيانة . يقال : غلَّ شيئاً من المغنم ، يغل
غلولاً ، وأغلَّ إغلالاً : إذا أخذه في خفية"² . فالسرقة عموماً ، والسرقة من الغنائم خصوصاً ،
تعد فعلاً من أفعال الخيانة . وفي هذا المبحث تم ذكر الألفاظ التي تعد من نظائر الخيانة ، حيث
يتعذر إدراج جميع الألفاظ الدالة على أفعال الخائنين ، وسيكون تفصيلها في مبحث صفات
وأفعال الخائنين بإذن الله تعالى .

ومن الملاحظ في نهاية هذا المبحث الارتباط الكبير بين مفهوم الخيانة ونظائره . فجميع
هذه المفاهيم تشترك في معنى إضرار الشر بقصد إيقاع الضرر ، كما أن الخائن يستتر بالخفاء
لإيقاع الضرر بالآخرين ، فكذاك يفعل الماكر والكائد والجاسوس والخادع والمنافق .
فالخيانة تتضمن جميع معاني المكر والخداع والكذب والتزوير والتجسس وتزييف الحق وكشف
عورات المسلمين وتتبعها ، كل ذلك بالغدر والسر والنفاق والخفاء ، بغرض إيجاد الطمأنينة
والثقة والأمان عند المغدور ، ثم طعنه من الخلف .

¹ سورة آل عمران ، آية 161

² البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (109/2) .

الفصل الثاني أنواع الخيانة في القرآن الكريم

المبحث الأول : خيانة الدين

المبحث الثاني : خيانة الأمة والوطن

المبحث الثالث : خيانة العرض

المبحث الرابع : خيانة النفس والجوارح

المبحث الأول خيانة الدين

المقصود بخيانة الدين : الخروج عن التكاليف الشرعية التي افترضها الله تعالى على عباده . وهذا المعنى أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى : { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا }¹. والمقصود بهذه الأمانة على الراجح² ، أمانة التكاليف التي كلفها الله الناس من خلال الرسل . وما يترتب على ذلك من تطبيقها ، وتبليغها للناس ، فهي الأمانة الكبرى³. و" الأمانة التي انتمن الله عليها المكلفين هي : امتثال الأوامر واجتناب المحارم في حال السر والخفية كحال العلانية ... فانقسم الناس بحسب قيامهم بها وعدمه إلى ثلاثة أقسام : منافقون قاموا بها ظاهرا لا باطنا ، ومشركون تركوها ظاهرا وباطنا ، ومؤمنون قائمون بها ظاهرا وباطنا"⁴.

ومما يدل على أن الأمانة تعني فيما تعنيه أمانة الدين ، ما أخرجه الطبري عن ابن زيد في تفسير قوله تعالى : { وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ }⁵، أي دينكم⁶ .

¹ سورة الأحزاب ، آية 72

² انظر ما ورد فيها من أقوال ص 13

³ انظر : الواحدي ، الوجيز ، (2/875) . البيهقي ، معالم التنزيل ، (3/546) . الشوكاني ، فتح القدير ، (4/308).

⁴ السعدي ، عبد الرحمن بن ناصر ، ت 1376هـ ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، تحقيق : محمد بن صالح العثيمين ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، (طبعة سنة 1421هـ) ، (ص673- 674) .

⁵ سورة الأنفال ، آية 27

⁶ انظر : الطبري ، جامع البيان ، (9/223) .

يقول سيد قطب¹ رحمه الله : " والأمانات تبدأ من الأمانة الكبرى ، الأمانة التي ناط الله بها فطرة الإنسان ، والتي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان ، أمانة الهداية والمعرفة والإيمان بالله عن قصد وإرادة وجهد واتجاه ... وهذه أمانة حملها ، وعليه أن يؤديها أول ما يؤدي من الأمانات . ومن هذه الأمانة الكبرى ، تنبثق سائر الأمانات ، التي يأمر الله أن تؤدي : ومن هذه الأمانات : أمانة الشهادة لهذا الدين ، الشهادة له في النفس أولا ، بمجاهدة النفس حتى تكون ترجمة له . ترجمة حية في شعورها وسلوكها . حتى يرى الناس صورة الإيمان في هذه النفس ... والشهادة له بدعوة الناس إليه ، وبيان فضله ومزيبته ... فما يكفي أن يؤدي المؤمن الشهادة للإيمان في ذات نفسه ، إذا هو لم يدع إليها الناس كذلك ، وما يكون قد أدى أمانة الدعوة والتبليغ والبيان ، وهي إحدى الأمانات . ثم الشهادة لهذا الدين بمحاولة إقراره في الأرض ، منهجا للجماعة المؤمنة ، ومنهجا للبشرية جميعا ... فأقرار هذا المنهج في حياة البشر هو كبرى الأمانات ، بعد الإيمان الذاتي . ولا يعفى من هذه الأمانة الأخيرة فرد ولا جماعة"².

فإذا أشفقت السماوات والأرض والجبال من حمل هذه الأمانة ؛ لعظمها وثقلها ؛ فإن الإنسان الذي قبل حملها ، كان ظلوما جهولا . وقد أخرج الطبري عن ابن عباس³ قوله : " إنا عرضنا الأمانة : الطاعة ، عرضها عليها قبل أن يعرضها على آدم ، فلم تطعها . فقال لآدم : يا آدم إني قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال ، فلم تطعها . فهل أنت آخذها بما فيها ؟ فقال : يا رب وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحملها . فذلك قوله : (فحملها الإنسان ، إنه كان ظلوما جهولا)⁴ .

¹ هو : سيد قطب إبراهيم حسين شادلي ، مفكر إسلامي مصري ، ولد في صعيد مصر عام 1906م . عمل في جريدة الأهرام ، ثم مدرسا في وزارة المعارف ، وشغل فيها عدة مناصب ، ثم استقال منها عام 1953م ، وانضم إلى صفوف جماعة الإخوان المسلمين ، سجن عدة مرات ، وحكم عليه بالإعدام ونفذ فيه الحكم عام 1966م ، من أهم مؤلفاته : في ظلال القرآن ، التصوير الفني في القرآن الكريم ، معالم في الطريق . انظر : الخالدي ، صلاح عبد الفتاح ، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد ، الدار الشامية - بيروت ، (ط1/1991م) ، (ص 15-17) .

² قطب ، في ظلال القرآن ، (413/5-414) .

³ وروي قريبا من هذا القول عن ابن عمر رضي الله عنهما . البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله ، ت458هـ ، كتاب الزهد الكبير ، تحقيق : عامر أحمد حيدر ، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت ، (ط3/1996م) ، (ص 277) .

⁴ الطبري ، جامع البيان ، (54/22) . وانظر : البغوي ، معالم التنزيل ، (546/3) . ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، (523/3) .

وبما أن الإنسان قد حمل هذه الأمانة العظيمة ، كان لا بد له من أدائها على الوجه الذي أمر الله تعالى . وإلا كان خائناً لها . فمخالفة التكاليف الشرعية خيانة ؛ ولذلك فالكفر خيانة للدين ؛ قال تعالى : { وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ }¹ . أي كفروا به² . وهو ما ذكره الله تعالى من خيانة امرأتي النبيين نوح ولوط عليها السلام في قوله تعالى³ : { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَاتِ نُوحٍ وَأَمْرَأَاتِ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ }⁴ . أي خانتاهما في الدين بأن كفرتا⁵ .

فعدم امتثال أمر الله تعالى ، والوقوع في معصيته ، هو خيانة لله . وعدم امتثال أمر النبي عليه الصلاة والسلام وعدم التزام نهجه هو خيانة للرسول صلى الله عليه وسلم . قال تعالى يأمرنا بتجنب خيانة الله ورسوله : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }⁶ . " والمعنى : لا تخونوا الله بأن تعطلوا فرائضه ، ورسوله بأن بأن لا تستنوا به ، وأماناتكم فيما بينكم بأن لا تحفظوها "⁷ . وقد سبق بيان ما ورد في تفسير هذه الآية مفصلاً في موضع سابق⁸ .

وبناء على ما سبق بيانه فإن الكافر الذي لا يرتضي لنفسه دين الله تعالى ، من لدن آدم عليه السلام إلى هذا اليوم ، خائن للدين . فالذين خرجوا عن تعاليم أنبيائهم ورسولهم ، وخالفوهم

¹ سورة الأنفال ، آية 71

² انظر : الواحدي ، الوجيز ، (449/1) . البغوي ، معالم التنزيل ، (263/2) . الشوكاني ، فتح القدير ، (329/2) .

³ انظر ما ورد من أقوال في تفسير هذه الآية ص80

⁴ سورة التحريم ، آية 10

⁵ انظر : السمعاني ، تفسير القرآن العزيز ، (478/5) . القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (202/18) .

⁶ سورة الأنفال ، آية 27

⁷ الزمخشري ، الكشاف ، (202/2) . وانظر : الرازي ، تفسير القرآن العظيم ، (1683/5) . الألوسي ، روح

المعاني ، (195/9) .

⁸ انظر تفسير الآية مفصلاً ص 19 ، 20

وكفروا بهم وقتلوهم ، هم لا شك خانوا الدين . والذين حرفوا وغيروا وبدلوا في الدين بعد
رسلهم وأنبيائهم ، هم كذلك وقعوا في خيانة الدين ، كأهل الكتاب الذين ذكر الله تعالى خيانتهم
في تغيير تعاليم الله تعالى ، قال تعالى فيهم : { فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا
قُلُوبَهُمْ قَسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ۖ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۗ وَلَا تَزَالُ
تَطَّلُعُ عَلَىٰ حَايِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ }¹.

وإن المسلم الذي ينتسب للإسلام انتسابا ، وليس له من الإسلام إلا الاسم ، فلا يؤدي ما
كلفه الله تعالى به ، وما افترضه عليه ، من العبادات كالصلاة والزكاة والصوم وغيرها . ولا
يأتمر بأمر الله في المعاملات ، كالصدق ، والوفاء بالعهود ، وصلة الرحم ، وبر الوالدين ،
وغير ذلك ، ويقع في ما حرم الله عليه ، فتجده يمشي بالنميمة ، ويغتاب الناس ، ويسرق ،
ويزني ، ويشرب الخمر ، هو كذلك خائن للدين ، والعياذ بالله .

¹ سورة المائدة ، آية 13

المبحث الثاني خيانة الأمة والوطن

المقصود بخيانة الأمة والوطن : التآمر على مقدرات المسلمين ومصالحهم وأرضهم ومقدساتهم ، والتلاعب بأمنهم وأرواحهم واقتصادهم وأرزاقهم ، وتقديم المساعدة للأعداء ؛ للإضرار بالمسلمين ، من خلال التخابر معهم ، وتقديم المعلومات لهم ؛ لاستغلالها ضد المسلمين . فكل ذلك خيانة للأمة .

كما أن قيام المسؤولين - الذين انتدبتهم الأمة - بمخالفة أمانة الأمة الملقاة على عاتقهم ، والتي على رأسها تحكيم شرع الله في الأمة ، في كل نواحي الحياة ، ومجاهدة أعداء الله ، ونشر دين الله في ربوع العالمين ، والمحافظة على دماء المسلمين ، وصيانة أعراضهم ، وحفظ أرضهم ومقدساتهم ؛ وذلك بالتفريط فيما سبق ولو بشيء يسير منه ، هو خيانة للأمة . وهو واقع في النهي الوارد في قوله تعالى : { يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْنُوتُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحْنُوتُوا ءَامَنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }¹ . ولا شك في أن من أعظم الأمانات أمانة الأمة ، وأرضها ، ومقدساتها . وخيانتها لا شك كذلك في أنه من أعظم الخيانات .

وقد جاء النهي من الله تعالى عن مولاة الكفار ، ومناصرتهم ، ومعاونتهم على المؤمنين ، في نصوص قرآنية كثيرة . من ذلك ما جاء في فاتحة سورة الممتحنة في قوله تعالى : { يَتَّيِبُهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ

¹ سورة الأنفال ، آية 27

جَهْدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ {¹.

" وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالاته الكفار ، من المشركين وغيرهم ، وإلقاء المودة إليهم . وأن ذلك مناف للإيمان ، ومخالف لملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، ومنافق للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من العدو ... فإن المودة إذا حصلت تبعثها النصره والموالاته . فخرج العبد من الإيمان وصار من جملة أهل الكفران . وهذا المتخذ للكافر ولياً عادماً المروءة أيضاً ؛ فإنه كيف يوالي أعدى أعدائه الذي لا يريد له إلا الشر ، ويخالف ربه ووليه الذي يريد به الخير ، ويأمره به ويحثه عليه ؟ "².

وهذه الآيات نزلت في حاطب بن أبي بلتعة³ ، الذي تخابر مع قريش يخبرهم بخبر خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتح مكة . وسيأتي تفصيل الحديث في فصلة حاطب لاحقاً⁴ بإذن الله تعالى .

وقال تعالى أيضاً في النهي عن موالاتهم : { لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكُفْرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ

دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتَهُ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ }⁵ . " ومعنى ذلك : لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهراً وأنصاراً توالونهم على دينهم ، وتظاهروا بهم على المسلمين من دون المؤمنين ، وتدلونهم على عوراتهم ، فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء ، يعني بذلك : فقد برئ من الله ، وبرئ الله منه بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر "⁶ . ومعنى { إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ }⁷

¹ سورة الممتحنة ، آية 1

² السعدي ، تيسير الكريم الرحمن ، (ص 855) .

³ انظر : الطبري ، جامع البيان ، (58/28) . السيوطي ، أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ، ت 911هـ -
لباب النقول في أسباب النزول ، دار إحياء العلوم - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) ، (ص 210) .

⁴ انظر : ص 83

⁵ سورة آل عمران ، آية 28

⁶ الطبري ، جامع البيان ، (228/3) . وانظر : ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، (358/1) . السعدي ، تيسير
الكريم الرحمن ، (ص 127) .

تُقَدَّةٌ { أي : " أن تخافوا من جهتهم أمرا يجب اتقاؤه ... فرخص لهم في موالاتهم إذا خافوهم ، والمراد بتلك الموالاة : مخالفة ومعاشرة ظاهرة ، والقلب مطمئن بالعداوة والبغضاء " ¹. وقيل معنى الاستثناء هنا : حسن معاملتهم ومخالقتهم في الدنيا ، وقيل صلة الأقارب منهم ². وقد أورد صاحب التفسير الكبير جملة من الأحكام المتعلقة بالنقية ، منها : أن النقية تكون مع الكفار عند الخوف ، مع جواز بل أفضلية عدم العمل بها ، وأنها لا تجوز في حال ترتب عليها قتل نفس أو زنا أو غصب أموال أو شهادة زور ³.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية روايات مختلفة منها ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما " قال : كان الحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف وابن أبي الحقيق وقيس بن زيد ، قد بطنوا ⁴ بنفر من الأنصار ؛ ليفتنوهم عن دينهم ، فقال رفاعة بن المنذر بن زبير وعبد الله بن جبير وسعد بن خيثمة لأولئك النفر : اجتنبوا هؤلاء اليهود ، واحذروا لزومهم ومباظنتهم ؛ لا يفتنوكم عن دينكم ، فأبى أولئك النفر إلا مباظنتهم ولزومهم ؛ فأنزل الله عز وجل : { لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ } ⁵.

ومن الروايات الواردة في سبب نزول الآية ما رواه الكلبي ⁶ عن ابن عباس أيضا قال : " نزلت في المنافقين ، عبد الله بن أبي وأصحابه ؛ كانوا يتولون اليهود والمشركين ، ويأتونهم بالأخبار ، يرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية ،

¹ الزمخشري ، الكشاف ، (380/1) . البغوي ، معالم التنزيل ، (292/1) .

² انظر : الطبري ، جامع البيان ، (229/3) . الرازي ، تفسير القرآن العظيم ، (630/2) .

³ انظر : الرازي ، التفسير الكبير ، (12/8) .

⁴ بطن به : دخل في أمره . ابن منظور ، لسان العرب ، (55/13) .

⁵ الطبري ، جامع البيان ، (228/3) .

⁶ هو : محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن جزي الكلبي ، يكنى أبا القاسم ، من أهل غرناطة ، له من المؤلفات الكثير ، منها : وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم ، والأقوال السنية في الكلمات السنية ، والدعوات والأذكار المخرجة من صحيح الأخبار ، وتقريب الوصول إلى علم الأصول ، وغيرها ، توفي شهيدا عام 741 هـ . انظر : ابن فرحون ، إبراهيم بن علي بن محمد ، ت799 هـ ، الديباج المذهب في معرفة علماء أهل المذهب ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) ، (ص 295 - 296) .

ونهى المؤمنين عن مثل فعلهم¹ . وقيل : نزلت في حاطب بن أبي بلتعة تحديدا ، وقيل : في عبادة بن الصامت ، كان له حلفاء من اليهود² .
والأخبار الواردة في سبب النزول جميعها توضح وتبين حرمة موالة الأعداء ، واتخاذهم أولياء من دون المؤمنين ، والحذر منهم ومن دسائسهم ومكائدهم .

وقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }³ . والنهي في الآية الكريمة واضح ، فقد نهى الله تعالى " المؤمنين جميعا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارا وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله ، وأخبر أنه من اتخذهم نصيرا ، وحليفا ، ووليا من دون الله ورسوله والمؤمنين ، فإنه منهم في التحزب على الله ، وعلى رسوله والمؤمنين ، وأن الله ورسوله منه بريئان "⁴ .

وقد أخرج الطبري وابن أبي حاتم في سبب نزول هذه الآية أقوالاً عديدة منها : " جاء عبادة بن الصامت من بني الحرث بن الخزرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله إن لي موالى من يهود ، كثير عددهم ، وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، وأتولّى الله ورسوله . فقال عبد الله بن أبي : إنى رجل أخاف الدوائر ، لا أبرأ من ولاية موالى ... "⁵ .
" وقال آخرون : بل عني بذلك قوم من المؤمنين كانوا همّوا حين نالهم بأحد من أعدائهم من المشركين ما نالهم ، أن يأخذوا من اليهود عصما ، فنهاهم الله عن ذلك ، وأعلمهم أن من فعل ذلك منهم فهو منهم ... وقال آخرون : بل عني أبو لبابة بن عبد المنذر في إعلامه بني قريظة إذ رضوا بحكم سعد أنه الذبح "⁶ .

¹ العسقلاني ، أحمد بن علي بن حجر ، ت 852هـ ، العجائب في بيان الأسباب ، تحقيق : عبد الحكيم محمد الأنيس ، دار ابن الجوزي - السعودية ، (ط1/1418هـ) ، (676/2) .

² انظر : المرجع السابق ، (676/2 - 677) .

³ سورة المائدة ، آية 51

⁴ الطبري ، جامع البيان ، (276/6) . وانظر : السمرقندي ، نصر بن محمد بن أحمد ، ت 393هـ ، تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم ، تحقيق : محمود مطرجي ، دار الفكر - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) ، (421/1) . البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (333/2 - 334) .

⁵ الطبري ، جامع البيان ، (275/6) . وانظر : الرازي ، تفسير القرآن العظيم ، (1155/4) .

⁶ الطبري ، جامع البيان ، (276/6) .

وفي صحة هذه النقول ، عقّب الطبري رحمه الله بعد سردها بالقول : " ولم يصح بواحد من هذه الثلاثة خبر يثبت بمثله حجة ، فيسلم لصحته القول بأنه كما قيل ، فإذا كان ذلك كذلك ، فالصواب أن يحكم لظاهر التنزيل بالعموم على ما عم ، ويجوز ما قاله أهل التأويل فيه من القول الذي لا علم عندنا بخلافه ، غير أنه لا شك أن الآية نزلت في منافق كان يوالي يهود أو نصارى ؛ خوفا على نفسه من دوائر الدهر ؛ لأن الآية التي بعد هذه تدل على ذلك ، وذلك قوله : { فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ خَشِيَ أَنْ تَصِيبَنَا دَآئِرَةٌ }¹ 2".

وفي كتاب الله تعالى آيات كثيرة تنهى عن موالاته الكفار ، ومناصرتهم ، وطاعتهم ، والركون إليهم ، مثل قوله تعالى : { إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَنُّوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ }³. وقوله أيضا : { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ }⁴. وقوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ آرْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ }⁵ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنَطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ }⁵. وقوله تعالى : { تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَبْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ }⁶ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا

¹ سورة المائدة ، آية 52

² الطبري ، جامع البيان ، (276/6) .

³ سورة الممتحنة ، آية 9

⁴ سورة المجادلة ، آية 22

⁵ سورة محمد ، آية 25-26

أَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ¹. وقوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ بِكُمْ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ².

ومن المظاهر الخيانية لموالاتة الكفار : " اتباع أهوائهم ، وطاعتهم فيما يأمرون ويشيرون به ، والركون إليهم ، ومداهنتهم ومداراتهم ومجاملتهم على حساب الدين ، وإظهار الود لهم ، وإكرامهم وتقريبهم ، ومشاورتهم في الأمور الهامة ، واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين ، ومعاونتهم على ظلمهم ونصرتهم ، والتشبه بأعمالهم وعاداتهم وتقاليدهم ، واستعارة قوانينهم ومناهجهم في حكم الأمة وتربية أبنائها ، والتأمر والتخطيط معهم ، وتنفيذ مخططاتهم ، والدخول في أحلافهم وتنظيماتهم ، والتجسس من أجلهم ، ونقل عورات المسلمين وأسرار الأمة إليهم ، والقتال في صفهم ، وتولييتهم المراكز الهامة ، وتنصيبهم في أهم الوظائف وأخطرها ، وتبني مناهجهم وقيمهم وتصوراتهم ، والدعوة إليها ، وتفضيل علمائهم ومفكريهم على علماء المسلمين³.

فمن وقع في شيء من هذا فقد خان الأمة والوطن . فما أكثر الخائنين للأمة اليوم ! وما أوهن الأمة التي تقبل بين أظهرها أمثالهم ، بل وترضى بهم حكاماً ومسؤولين !

¹ سورة المائدة ، آية 80 - 81

² سورة الحشر ، آية 11

³ انظر : ياسين ، محمد نعيم ، الإيمان أركانته حقيقته نواقضه ، مكتبة الفلاح - الكويت ، (ط5/1407هـ) ، (ص129-

المبحث الثالث

خيانة العرض

المقصود بخيانة العرض : انتهاك الأعراض بالزنا ، أو القذف ، واستخدام الفرّج في غير ما أحل الله تعالى ، هذا بشكل عام . ويدخل في ذلك خصوصية خيانة رباط الزوجية ، الذي سماه الله تعالى : ميثاقا غليظا ، في قوله تعالى : { وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا }¹ .

والفرّج من الأمانات التي أمر الله تعالى بحفظها ؛ قال تعالى : { وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ

حَافِظُونَ ﴿٦﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ

أَبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ }²، فهم يحفظونها عن الحرام ، وعن المعاصي ، وعن الفواحش ، وعن كل ما لا يحل لهم³ . ولا لوم في بذل الفرّج فيما حدّته الآية من الأزواج ، وملك اليمين من الإماء ، " وإنما لا يلام فيهما إذا كان على وجه أذن فيه الشرع ، دون الإتيان في غير المأتي ، وفي حال الحيض ، والنفاس ، فإنه محظور ، وهو على فعله ملوم⁴ . وما عدا ذلك فهو اعتداء ، وخيانة للعرض .

¹ سورة النساء ، آية 21

² سورة المؤمنون ، الآيات 5- 7

³ انظر : السمرقندي ، بحر العلوم ، (474/2) . الواحدي ، الوجيز ، (743/2) . السمعاني ، تفسير القرآن العزيز ، (463/3) . البغوي ، معالم التنزيل ، (303 / 3) .

⁴ البغوي ، معالم التنزيل ، (303/3) .

قال الحكيم الترمذي¹ رحمه الله : " وجعل أمانة الفرج من بين الجوارح كلها مستورة ، وسميت فاحشة إذا كشف عنها بغير حق . والاستعمال لها بغير حق هلكة ، وتأديبه القتل بالحجارة والتكيل ... والكاشف عنها منزوع الحياء ممقوت "².

فعدم حفظ الفرج هو خيانة للعرض ، كما أن الاعتداء على أعراض الناس ، خيانة لأمانة العرض أيضا ، ولو كان ذلك بكلمة يُرمى بها بريئ بالفاحشة ؛ لأن في ذلك أيضا هتكاً للأعراض ، واعتداءً عليها ، يستوجب فاعل ذلك اللعن من الله تعالى والعذاب العظيم ؛ قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }³. وقد نزلت هذه الآية في السيدة عائشة رضي الله عنها ، عندما أشاع عنها المنافقون الفاحشة⁴ . وهو ما سماه القرآن الكريم "بالإفك" . قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ }⁵.

وقد ذكر القرآن الكريم حادثة مفصلة عن خيانة العرض ؛ وهي قصة خيانة امرأة العزيز زوجها عندما راودت يوسف عليه السلام عن نفسه . وسيأتي بيانها عند الحديث عن النماذج القرآنية للخيانة⁶ ، إن شاء الله تعالى .

ولكن ليس الأمر مقتصرًا على امرأة العزيز ؛ فإن الذي حدث من امرأة العزيز قد يحدث من كل أنثى ، ولو بالنظرة المحرمة ، أو بكلمة ، أو بما هو أيسر من ذلك .

وفي الحديث الآتي إشارة إلى ذلك ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر "¹ . وفي معنى الحديث يقول ابن حجر : " فيه إشارة إلى ما وقع من حواء في

¹ هو : الإمام أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر ، الزاهد الحافظ المؤذن صاحب التصانيف ، قيل إنه نفي من ترمذ بسبب تأليفه كتاب : ختم الولاية ، وكتاب علل الشريعة ، عاش نحواً من ثمانين سنة ، توفي سنة 285هـ . انظر : الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، (645/2) .

² الترمذي ، أبو عبد الله الحكيم ، محمد بن علي بن الحسن ، ت320هـ ، نواذر الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، تحقيق: عبد الرحمن عميرة ، دار الجيل - بيروت ، (طبعة سنة 1992م) ، (155/3) .

³ سورة النور ، آية 23

⁴ انظر : البخاري ، الجامع الصحيح المختصر ، كتاب : المغازي ، باب : حديث الإفك ، حديث : 3910 ، (1517/4) .

⁵ سورة النور ، آية 11

⁶ انظر : ص64

تزيينها لآدم الأكل من الشجرة حتى وقع في ذلك ، فمعنى خيانتها : أنها قبلت ما زين لها إبليس حتى زينته لآدم ، ولما كانت هي أم بنات آدم أشبهنها بالولادة ونزع العرق ، فلا تكاد امرأة تسلم من خيانة زوجها بالفعل أو بالقول ، وليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفواحش ، حاشا وكلا ، ولكن لما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة ، وحسنت ذلك لآدم ، عد ذلك خيانة له . وأما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها ².

وقد أخرج الطبري عن السدي أنه قال : " فأبى آدم أن يأكل منها ، فتقدمت حواء فأكلت ، ثم قالت : يا آدم كل فإنني قد أكلت فلم يضرني ، فلما أكل آدم بدت لهما سوءاتهما ³." " ولولا أنها سنت هذه السنة لما سلكتها أنثى مع زوجها ؛ فإن البادئ بالشيء كالسبب الحامل لغيره على الإتيان به ، فلما خانت سرت في بناتها الخيانة ⁴." وقال ابن الجوزي : " إن خيانة حواء زوجها كانت في ترك النصيحة في أمر الشجرة ، لا في غير ذلك ... ولما خانت حواء زوجها اطردت الحال في بناتها ⁵."

والتحقيق في هذه المسألة يقود إلى القول بأن ما اعتمده الإمام ابن حجر وما نقله الطبري عن السدي ، لا يدعو كونه رأياً لا دليل عليه ، بل فيه تأثر بالإسرائيليات . فقد ورد في العهد القديم (التوراة) ما نصه : " فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل ، وأنها بهجة للعيون ، وأن الشجرة شهية للنظر ، فأخذت من ثمرها ، وأكلت ، وأعطت رجلها أيضاً معها ، فأكل ،

¹ البخاري ، الجامع الصحيح المختصر ، كتاب : أحاديث الأنبياء ، باب : قول الله تعالى : وواعدنا موسى ثلاثين ليلة .. ، حديث 3218 ، (3/1254) . مسلم ، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري ، ت 261هـ ، صحيح مسلم ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) ، كتاب : الرضاع ، باب : لولا حواء لم تخن أنثى ... ، حديث : 1470 ، (2/1092) .

² العسقلاني ، أحمد بن علي بن حجر ، ت 852هـ ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، تحقيق : محب الدين الخطيب ، دار المعرفة - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) ، (6/368) . انظر أيضاً : العراقي ، زين الدين عبد الرحيم بن الحسيني ، ت 806هـ ، طرح التثريب في شرح التقريب ، تحقيق : عبد القادر محمد علي ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (ط1/2000م) ، (7/63) .

³ الطبري ، جامع البيان ، (16/224) .

⁴ المناوي ، محمد عبد الرؤوف ، ت 1031هـ ، فيض القدير شرح الجامع الصغير ، المكتبة التجارية الكبرى - مصر (ط1/1356هـ) ، (5/343) .

⁵ ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن ، ت 597هـ ، كشف المشكل من حديث الصحيحين ، تحقيق : علي حسين البواب ، دار الوطن - الرياض ، (طبعة سنة 1418هـ) ، (3/504) .

فانفتحت أعينهما ، وعلما أنهما عريانان ، فخاطبا أوراق تين ، وصنعا لأنفسهما مآزر¹ . وما ذكره المناوي في تعليل سريان الخيانة في جنس الإناث بأن البادئ بالشيء كالسبب الحامل لغيره على الإتيان به ، لا يسلم به ، ولا يشترط إذا خانت امرأة أن تسري الخيانة في بناتها إلى يوم القيامة ! أما ما قاله ابن الجوزي رحمه الله فهو اجتهاد له وجاهة ، وهو أقرب لمفهوم النص القرآني .

وإن من خيانة المرأة زوجها : أن يرى زينتها غير زوجها ومحارمها ، قال تعالى : { وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ ... }² ، ومن خيانتها له ، أن تنظر بشهوة لغيره ، قال تعالى : { وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ }³ ، ومن خيانتها له ، الخضوع بالقول للأجانب ، قال تعالى : { فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ }⁴ ، وغير ذلك من مظاهر الخيانة الزوجية . وليس ذلك في كل امرأة ؛ " فإن منهن من تضبط نفسها ، ومنهن من لا تضبط ، وفي استحضر ذلك إعانة على احتمالهن ، ودوام عشرتهن⁵ . ثم إن الأمر لا يقتصر على المرأة مع زوجها ، بل هو كذلك على الرجل مع زوجته . والأمر فيه توجيه إلى الحذر من الخيانة الزوجية ، ولو بأيسر الأمور .

وبعد ، فإنه لا بد من القول إن الوقوع في مثل هذا النوع من الخيانة ، خيانة العرض ، أو " الخيانة الزوجية " ، أو خيانة البُضْع ، قد يقود في زماننا هذا إلى خيانة أعظم ؛ وذلك لاستغلال أعداء الأمة مظاهر السقوط والانحراف الأخلاقي في توريث ضحاياهم ، وابتزازهم وتخويفهم من الفضيحة ؛ لتحقيق أهدافهم من تجنيد هؤلاء لخدمة أعداء الأمة ، وتنفيذ مخططاتهم للكيد بالإسلام والتآمر على أهله .

فمن كان حافظاً لهذه الأمانة ، بعيداً عن مظاهر خيانة العرض ، والتفريط به ، فكيف يمكن أن يكون في مرمى شباك أعداء الأمة ، ولقمة سائغة لهم ، لتحقيق مآربهم وأهدافهم ؟

¹ الكتاب المقدس ، (طبعة سنة 1991م) ، العهد القديم ، سفر التكوين ، الإصحاح الثالث ، الفقرة 7 .

² سورة النور ، آية 31

³ سورة النور ، آية 31

⁴ سورة الأحزاب ، آية 32

⁵ العراقي ، طرح التثريب ، (64/7) .

المبحث الرابع خيانة النفس والجوارح

ذكر الله تعالى خيانة النفس في كتابه العزيز ، في قوله تعالى : { عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ }¹. وتختانون أنفسكم أي " تظلمونها ؛ بتعريضها للعقاب ، وتنتقص حظها من الثواب . والاختيان أبلغ من الخيانة ، كالاكتساب من الكسب"². وقد ذكر الراغب في المفردات أن " الاختيان : مراودة الخيانة ، ولم يقل تخونون أنفسكم ؛ لأنه لم تكن منهم الخيانة ، بل كان منهم الاختيان ، فإن الاختيان : تحرك شهوة الإنسان لتحري الخيانة ، وذلك هو المشار إليه بقوله تعالى : { إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ }³"⁴. وذكر القرطبي في معنى الاختيان أي : " يستأمر بعضكم بعضا في واقعة المحظور من الجماع والأكل بعد النوم في ليالي الصوم ، كقوله تعالى : { تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ }⁵ ، يعني : يقتل بعضكم بعضا . ويحتمل أن يريد به كل واحد منهم في نفسه بأنه يخونها ، وسماه خائنا لنفسه من حيث كان ضرره عائدا عليه"⁶.

¹ سورة البقرة ، آية 187

² البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (469/1) .

³ سورة يوسف ، آية 53

⁴ الراغب ، المفردات ، (ص163) .

⁵ سورة البقرة ، آية 85

⁶ القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (317/2) .

ومما سبق يتبين لنا الاختلاف الحاصل في المراد بقوله تعالى : (تَحْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ) فمن قائل بأن المقصود خيانة بعضهم بعضا ، ومن قائل بأن المقصود خيانة النفس بمخالفة الشرع ، ومن قائل بأن المراد مراودة الخيانة دون مباشرتها ، وغير ذلك . والصحيح ما ذكره البيضاوي ، وما ذكره القرطبي في أحد قوليه ، وما عليه أكثر المفسرين ، وهو خيانة النفس بإقحام الجوارح في ما حرم الله تعالى ، ومن ثم تعريضها لعقاب الله تعالى . وهذا القول يتوافق مع ما ورد في سبب نزول الآية الكريمة ، فقد روى ابن أبي حاتم عن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال : " كان الناس إذا صام الرجل فنام حُرِّمَ عليه الطعام والشراب حتى يفطر من الغد ، فرجع عمر بن الخطاب من عند النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، وقد سمر عنده ، فوجد امرأته قد نامت ، فأيقظها ، وأرادها ، فقالت : إني نمت ، فقال : ما نمت ، ثم وقع بها ، وصنع كعب بن مالك مثل ذلك ، فغدا عمر بن الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فأنزل الله تعالى : { أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ }¹ . وذكر الطبري ما يؤيد ذلك ثم قال : " إن قال لنا قائل : وما هذه الخيانة التي كان القوم يختانون أنفسهم ، التي تاب الله منها عليهم ، فعفا عنهم ؟ قيل : كانت خيانتهم أنفسهم التي ذكرها الله في شيئين : أحدهما جماع النساء ، والآخر المطعم والمشرب ، في الوقت الذي كان حراما ذلك عليهم² . ويجزم صاحب التفسير الكبير على أن المراد هنا المخالفة بالجماع ، فيقول : " إن الله تعالى ذكر هاهنا أنهم كانوا يختانون أنفسهم ، إلا أنه لم يذكر أن تلك الخيانة كانت في ماذا ، فلا بد من حمل هذه الخيانة على شيء يكون له تعلق بما تقدم ، وما تأخر . والذي تقدم هو ذكر الجماع ، والذي تأخر قوله : { فَأَلَّيْنَنَ بَدِشْرُوهُنَّ } ، فيجب أن يكون المراد بهذه الخيانة ، الجماع³ . ثم بين البيضاوي رحمه الله أن المراد بخيانة النفس ، عدم الوفاء بطاعة الله ، وذكر أن منهم من حمله على عدم الوفاء بما هو خير للنفس ؛ ولذلك جاء التعبير ب (تَحْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ) ، وليس ب (تختانون الله) ، كما قال تعالى : { لَا تُحُونُوا اللَّهَ }⁴ . فخيانة النفس هنا ، هي بالوقوع في المعصية ، فالخائن لنفسه : الذي يوقعها في معصية الله تعالى . ولا شك في أن ذلك سيكون باستخدام الجوارح .

¹ الرازي ، تفسير القرآن العظيم ، (1/316) . وانظر : الطبري ، جامع البيان ، (163/2 - 164) .

² الطبري ، جامع البيان ، (163/2) .

³ البيضاوي ، التفسير الكبير ، (5/91) .

⁴ انظر : المرجع السابق ، (5/91) .

" وجوارح الإنسان : عوامل جسده من يديه ورجليه "1 ، وسميت جارحة ؛ لأنها تجرح الخير والشر ، أي : تكسبه 2. والجوارح ، كاليدين والرجلين والعينين والأذنين واللسان وغيرها ، نعمة من نعم الله العظيمة على الإنسان . وإن من شكر هذه النعمة استخدامها كما أمر الله تعالى ، وحفظها عن الوقوع فيما نهى الله تعالى عنه . ولذلك كان الخروج بالجوارح عن أمر الله تعالى ونهيه خيانة للنفس .

ومن هنا وصف الله تعالى استخدام العين في النظرة الخفية المحرمة بأنه خيانة ؛ قال تعالى : { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ }3. وخائنة الأعين : أي خيانة الأعين ، وخيانة الأعين : مسارعة النظر ، واستراقه إلى ما لا يحل ، كما يفعل أهل الريب 4. " وقيل هو أن ينظر إلى أجنبية بشهوة مسارقة ، ثم يتفكر بقلبه في جمالها ، ولا يعلم بنظرته وفكرته من بحضرتة . والله يعلم ذلك كله "5.

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى خيانة الأعين ، قال : " الرجل يكون في القوم ، فتمر بهم المرأة ، فيريهم أنه يغض بصره عنها ، وإذا غفلوا لحظ إليها ، وإذا نظروا غض بصره عنها . وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أنه ينظر إلى عورتها "6. كما أخرج ابن أبي حاتم أيضا " عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ } ، قال : نظرت إليها لتريد الخيانة ، أم لا ... "7.

1 الأزهرى ، أبو منصور محمد بن أحمد ، ت270هـ ، تهذيب اللغة ، تحقيق : محمد عوض مرعب ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (ط1/2001م) ، (86/4) .

2 انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، (423/2) .

3 سورة غافر ، آية 19

4 انظر : الواحدي ، الوجيز ، (943/2) . السمعاني ، تفسير القرآن العزيز ، (13/5) . الزمخشري ، الكشاف ، (163/4) . البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (88/5) .

5 النسفي ، مدارك التنزيل ، (70/4) .

6 الرازي ، تفسير القرآن العظيم ، (3265/10) .

7 المرجع السابق ، (3265/10 - 3266) .

وقد أمر الله تعالى بغض البصر ، فقال : { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ

وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣١﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ

يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا }¹.

فإذا كان ذلك في العين تسترق النظرة إلى الحرام ، فكيف بالعين التي لا تعرف النظر إلا إلى الحرام ؟ وكيف بالعين التي تختلس النظر إلى عورات المسلمين وأسرارهم ؛ من أجل نقل ذلك لأعداء الأمة؟! بدل أن توظف في حراسة المسلمين ، والسهر من أجل أمنهم وسلامتهم . هل تظن أن عين الله غافلة ؟ إن الله تعالى يعلم العين الخائنة .

وما قيل عن جارحة العين يقال عن سائر الجوارح ، " فالفرج أمانة ، والأذن أمانة ، والعين أمانة ، واللسان أمانة ، والبطن أمانة ، واليد أمانة ، والرجل أمانة ، ولا إيمان لمن لا أمانة له "2. فمن قصر في هذه الأمانات فقد خانها . فالرجل التي تمشي إلى الحرام رجل خائنة . واليد التي تمس الحرام ، كذلك التي تسرق ، أو تبتطش بالمسلمين ، أو تصافح أعداء الأمة ، يد خائنة . واللسان الغارق في الآفات ، كالغيبية والنميمة والكذب وشهادة الزور ، وتلفيق الاتهامات لأولياء الله ، وإفشاء أسرار الجماعة المسلمة ، هو بالتأكيد لسان خائن .

وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام بخيانة الجوارح ، وسماها زنا ؛ فقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه : " كُتِبَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزَّانِ ، مَدْرِكُ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ ؛ فَالْعَيْنَانِ زَنَاهُمَا النَّظْرُ ، وَالْأُذُنَانِ زَنَاهُمَا الْاسْتِمَاعُ ، وَاللِّسَانُ زَنَاهُ الْكَلَامُ ، وَالْيَدُ زَنَاهَا الْبَطْشُ ، وَالرَّجْلُ زَنَاهَا الْخَطَا ، وَالْقَلْبُ يَهْوَىٰ وَيَتَمَنَّىٰ ، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيَكْذِبُهُ "3. فها هي الجوارح تزني ، مع أن زناها مجازي ، وكذا فإن الجوارح تخون ، وخيانتها مجازية .

¹ سورة النور ، آية 30- 31

² القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (254/14) .

³ مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب : القدر ، باب : قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره ، حديث : 2657 ، (2047/4) . وانظر : البخاري ، الجامع الصحيح المختصر ، كتاب : الاستئذان ، باب : زنا الجوارح دون الفرج ، حديث : 5889 ، (2304/5) .

ثم تأتي هذه الجوارح التي أقحمها صاحبها في الخيانة ، تشهد عليه يوم القيامة ؛ قال تعالى : { وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَئِذَا لُجُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ }¹.

في ذلك الموقف العظيم تأتي الجوارح تعترف على صاحبها بما كان قد أقحمها في الدنيا في معاصي الله تعالى . تأتي تشهد عليه ، ينطقها الله الذي أنطق كل شيء ، فنفضحه على رؤوس الأشهاد ، وقد كان في الدنيا حريصا على إخفاء خيانه نفسه وجوارحه . ولكن في ذلك اليوم تتكشف الأستار ، وتبلى السرائر ، وتخرج مكنونات الأنفس . وعندها يبدأ مشهد التلاوم بين الخائن وجوارحه ، التي كشفت خيانه : لم شهدتم علينا ؟ وبيدأ بتوجيه اللوم لها .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : " كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال : هل تدرون مم أضحك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : من مخاطبة العبد ربّه ، يقول : يا رب ، ألم تُجرّني من الظلم ؟ قال : يقول : بلى . قال : فيقول : فإني لا أُجيزُ اليوم على نفسي إلا شاهداً مني . قال : يقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً . قال : فيختم على فيه . فيقال لأركانِهِ : انطقي . فتتطق بأعماله . قال : ثم يُخلى بينه وبين الكلام . قال : فيقول : بُعدا لَكُنَّ وسُحقاً ، فعنكُنَّ كنتُ أناضل " ².

فكيف يمكنه أن ينكر ما قد فعلته جوارحه ، التي هي جزء من بدنه ؟ وهل يمكنه الاستتار في فعل الخيانات والتخفي عن بدنه ، وعن جوارحه ؟ إذا فأمره مفتضح ومكشوف .

¹ سورة فصلت ، الآيات 19 - 23

² مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب : الزهد والرقائق ، حديث : 2969 ، (2280/4) .

ولو بالغ في التخفي والاستتار . وقد يحاول يوم القيامة إنكار أفعاله الخيانية ، وادعاء الصلاح والاستقامة . وهو لا يتوقع أن يكون الشاهد عليه يومئذ من نفسه .

وفي نهاية هذا الفصل ، يتبين أن للخيانة صورا وأنواعا ، تتعدد في مسمياتها وتلتقي في مضمونها وجوهرها . فخيانة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، أو خيانة الدين ، تشمل جميع أنواع وصور الخيانة . فالدين نهى عن خيانة العرض ، ونهى عن خيانة الأرض والمقدسات والأمة ، ونهى عن استخدام الجوارح في الخيانة . كما أن خيانة الأمة وأرضها ومقدساتها ، هي خيانة لله ولدين الله . وكذا يقال في خيانة العرض والزوج . وخيانة النفس والجوارح ، تشترك في مضمونها مع صور الخيانة الأخرى . فالجوارح تستخدم لتحقيق أنواع الخيانة جميعا . فالعين التي تخون الأمة لصالح أعدائها ، ومثلها الأذن ، وكذلك اللسان والرجل واليد ، كلها جوارح . والفرج الذي يخون العرض والشرف ، من الجوارح أيضا . والجوارح أيضا تستخدم في خيانة الدين ، بالخروج عن أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم . وهكذا نلاحظ الارتباط والتداخل بين أنواع الخيانة ووسائلها .

الفصل الثالث نماذج قرآنية للخيانة

المبحث الأول : خيانة أهل الكتاب

المبحث الثاني : خيانة امرأة العزيز

المبحث الثالث : خيانة إخوة يوسف عليه السلام

المبحث الرابع : خيانة امرأتي نوح ولوط عليهما السلام

المبحث الخامس : خيانة حاطب بن أبي بلتعة

المبحث الأول خيانة أهل الكتاب

سبق الحديث عن أن الخيانة والغدر والمكر ، من صفات الكفار وأفعالهم عموماً ، ولكن القرآن الكريم خص أهل الكتاب بهذه الصفات والأفعال ، فكثيرة هي الآيات التي تحدثت عن مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخيانتهم العهودَ والمواثيق ، وخيانتهم الدينَ ، بالتحريف والتبديل ، وغير ذلك من صور الخيانة التي تمرَّسَ عليها اليهود والنصارى . وقد كان الواقع الذي يحياه المسلمون شاهداً عملياً على الأفعال الخيانية لهؤلاء . ولذلك حذر الله تعالى من الاغترار بهم ، أو الركون إليهم ، أو الاطمئنان لهم ، أو الوثوق بمعاهداتهم ، أو اتباعهم فيما يقولون ويفعلون . كما يفعل المنتسبون إلى الإسلام من أهل الخيانة . قال عليه الصلاة والسلام : " لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِيْرًا بَشِيْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، حَتَّىٰ لَوْ سَلَكَوا جُرْزَ ضَبٍّ لَسَلَكَتُمُوهُ ، قلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فَمَنْ ؟ " ¹.

وأول ما يجدر الحديث عنه ما وصفهم الله تعالى به من نقض العهود والمواثيق ، قال تعالى : { الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ } ². ونقض العهود من خصائص أهل الكتاب ، وأهل التفسير على أن هذه الآية في

¹ البخاري ، الجامع الصحيح المختصر ، كتاب : أحاديث الأنبياء ، باب : ما ذكر عن بني إسرائيل ، حديث رقم : 3269 ، (1274/3) .

² سورة الأنفال ، آية 56

أهل الكتاب¹ ، ونقل صاحب البحر المحيط عن التبريزي أنها في نفر من قريش من عبد الدار² ، وهو خلاف ما جاء به أهل التفسير . وقيل : هذه الآية في اليهود خاصة³ ، فقد ورد عن مجاهد : " وهم بنو قريظة ، مالؤوا على نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم يوم الخندق "⁴ . و " جعلهم شر الدواب ؛ لأن شر الناس الكفار ، وشر الكفار المصرّون منهم ، وشر المصرّين الناكثون للعهود "⁵ ، " (ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ) : في كل معاهدة ، (وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ) : لا يخافون عاقبة الغدر ، ولا يباليون بما فيه من العار والنار "⁶ .

وتاريخ اليهود المليء بنقض العهود مع النبي عليه الصلاة والسلام شاهد على ذلك ، وتاريخهم عبر العصور إلى يومنا هذا يؤكد ذلك تأكيدا لا يدع مجالا للشك فيه ، فكيف يمكن بعد ذلك الوثوق بهم وبعهودهم ، والله تعالى قال فيهم: (ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ) ؟

وقد أوردت كتب السير نقض طوائف اليهود - الذين كانوا يسكنون المدينة عند هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام - العهود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث كان قد أبرم معهم المعاهدات فنقضوها ، وخانوا المسلمين . وحاول بنو النضير قتل النبي عليه الصلاة والسلام ؛ بإلقاء صخرة عليه من على جدار كان يجلس تحته في حيّهم . وقام بنو قينقاع بكشف عورة امرأة مسلمة في سوقهم ، وقتلوا المسلم الذي ثار لعرضها . أما بنو قريظة فتأمروا مع الأحزاب ضد المسلمين يوم الخندق⁷ .

¹ انظر : الطبري ، جامع البيان ، (25/10) . البغوي ، معالم التنزيل ، (257/2) . البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (116/3) . الشوكاني ، فتح القدير ، (319/2) .

² انظر : أبي حيان ، البحر المحيط ، (504/4)

³ انظر : الثعلبي ، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري ، ت427هـ ، الكشف والبيان ، تحقيق : الإمام أبي محمد بن عاشر ، مراجعة وتدقيق : الأستاذ نظير الساعدي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (ط1 / 1422 هـ) ، (242/1) .

⁴ مجاهد ، أبو الحجاج بن جبر المخزومي التابعي ، ت103هـ ، تفسير مجاهد ، تحقيق : عبد الرحمن الطاهر السورتي ، دار المنشورات العلمية - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) ، (266/1) .

⁵ الزمخشري ، الكشاف ، (218/2) .

⁶ النسفي ، مدارك التنزيل ، (70/2) .

⁷ انظر : ابن هشام ، عبد الملك بن هشام بن أيوب ، ت213هـ ، السيرة النبوية ، تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد ، دار الجيل - بيروت ، (ط1/411هـ) ، (314) و (178/4) . وانظر : الحلبي ، علي بن برهان الدين ، ت1044هـ ، إسنان العيون في سيرة الأمين والمأمون ، دار المعرفة - بيروت ، (طبعة سنة 1400هـ) ، (561/2) .

وليس نقض العهد مع غيرهم عملهم الخياني الوحيد ؛ فلقد خانوا دينهم أيضا ، ولا خيانة أعظم من خيانة الدين ، وقد وقع فيها هؤلاء ؛ قال تعالى فيهم : { مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ تُحَرَّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ }¹، وقال أيضا : { أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ تُحَرَّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }².

" قوله : { تُحَرَّفُونَهُ } : أي يميلونه عن وجهه ومعناه ، الذي هو معناه إلى غيره . فأخبر الله جل ثناؤه : أنهم فعلوا ما فعلوا من ذلك على علم منهم بتأويل ما حرفوا ، وأنه بخلاف ما حرفوه إليه ، فقال : { تُحَرَّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ } ، يعني : من بعد ما عقلوا تأويله . { وَهُمْ يَعْلَمُونَ } ، أي : يعلمون أنهم في تحريفهم ما حرفوا من ذلك مبطلون كاذبون"³.

وقال تعالى في خيانتهم للدين : { الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }⁴ . " وكتموا مع ذلك أمر محمد ، وهم يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ، فأطلع الله عز وجل محمدا وأمته على خيانتهم الله تبارك وتعالى ، وخبائنتهم عباده وكتمانهم ذلك ، وأخبر أنهم يفعلون ما يفعلون من ذلك على علم منهم بأن الحق غيره ، وأن الواجب عليهم من الله جل ثناؤه خلافه"⁵.

ثم يأتون بعد ذلك إلى المؤمنين بوجه غير الذين يكونون عليه إذا خلا بعضهم ببعض ، وإذا خلوا بشياطينهم ، وهو الأمر الذي يحسنه الخائنون من كل ملة ودين . قال تعالى : { وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ

¹ سورة النساء ، آية 46

² سورة النساء ، آية 75

³ الطبري ، جامع البيان ، (368/1) . وانظر : الرازي ، تفسير القرآن العظيم ، (149/1) .

⁴ سورة البقرة ، آية 146

⁵ الطبري ، جامع البيان ، (26/2) .

عَلَيْكُمْ لِيَحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ¹. الحديث في الآية هنا عن منافقي أهل الكتاب ، الذين حرفوا ما جاءهم ، ثم يأتون المؤمنين ، يقولون لهم : آمنا بأنكم على الحق ، وإن رسولكم هو المبشر به في التوراة ، وهو الأمر الذي عاتب فيه بعضهم بعضا . فهذه الصفة في منافقيهم ، هي كالتي في منافقي المسلمين ، فالمنافقون والخائفون على نهج واحد في كل زمان ومكان ودين².

ثم إن الله سبحانه وتعالى وصف أهل الكتاب بخيانة أمانة المال صراحة ، فقال تعالى : { وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بَدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }³. " يخبر تعالى عن اليهود بأن منهم الخونة ، ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم ، فإن منهم ... من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما : أي بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقه ، وإذا كان هذا صنيعه في الدينار ، فما فوقه أولى أن لا يؤديه إليك ... وقوله : (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّنَ سَبِيلٌ) : أي إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأميين ؛ وهم العرب ، فإن الله قد أحلها لنا⁴. هكذا ينظرون لمن ليس على دينهم ، فيستبيحون ماله وعرضه ، بل ودمه أيضا ، فلا حرج عندهم أبدا في خيانة غيرهم ، سواء في عهد ، أو مال ، أو عرض ، أو غير ذلك . وهم يستندون في ذلك لما ورد في كتابهم المزور ، والذي يصف من هو من غير أصلهم بأنه عبد لهم ، فقد ورد في العهد القديم : " فلما استيقظ نوح من خمرة ، علم ما فعل به ابنه الصغير ، فقال : ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لإخوته ، وقال : مبارك الرب إله سام ، وليكن كنعان عبداً لهم " ⁵.

¹ سورة البقرة ، آية 76

² انظر : الطبري ، جامع البيان ، (369/1) . البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (348/1) .

³ سورة آل عمران ، آية 75

⁴ ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، (375/1) .

⁵ الكتاب المقدس ، العهد القديم ، سفر التكوين ، الإصحاح التاسع ، الفقرات 20- 27 .

فَنَقَضَهُمْ لِلْعَهْدِ ، وَتَحْرِيفَهُمْ لِلدِّينِ ، هُوَ عَنَوَانُ خِيَانَتِهِمْ ، قَالَ تَعَالَى : { فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا وَتَنَسَوْنَ حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلُعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ }¹.

فاللعن حصل لهم نتيجة نقضهم ميثاقهم ، وتحريفهم ما أنزل الله إليهم ؛ إما بتأويله على غير المراد ، أو بتبديل حروفه ؛ فطردوا من رحمة الله بسبب هذه الخيانة للدين ، والتي جاءت الإشارة إليها في ختام الآية بخطاب موجه للنبي عليه الصلاة والسلام ، فأنت يا محمد لا تزال الآن تقف على خائنة منهم ، والخائنة : الخيانة ، وكانت خيانتهم للنبي عليه الصلاة والسلام بنقضهم العهد بينهم وبينه ، ومظاهرتهم المشركين على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كيوم الأحزاب ، وغير ذلك من همهم بقتله وسبه ، إلا قليلا منهم لم يخونوا². ف " الخيانة والغدر من عاداتهم وعادة أسلافهم ، لا تزال ترى ذلك منهم ، إلا قليلا منهم لم يخونوا ، وهم الذين آمنوا منهم"³.

ولا عجب في ذلك ، فإن الله تعالى قد أخذ الميثاق على أسلافهم بطاعة أنبيائهم ، وقتال أعدائهم ، ووعدهم النصر والتمكين ، وأراهم من الآيات والعبر ما تهتزل له الجبال . وبعد أن أعطوا ميثاقهم وعهودهم ، نقضوا وغيروا وبدلوا ونكصوا على أعقابهم ، وخالفوا أنبياءهم . فإذا كان هذا الفعل من خيارهم ، فكيف يُستتكر مثله من أراذلهم⁴ في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ بل كيف يستغرب ذلك من أراذلهم اليوم ؟

يقول سيد قطب رحمه الله في وصف طبيعة اليهود الخيانية : " فهذه سمات يهود التي لا تفارقهم ، ... ومهما حاولوا - مكرًا - إبداء اللين في القول عند الخوف وعند المصلحة ، والنعموة في الملمس عند الكيد والوقية ، فإن جفاف الملامح والسمات ينضح ويشي بجفاف القلوب والأفئدة ، ... فهم لا يكفون عن محاولة خيانة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد كانت لهم مواقف خيانة متواترة ، بل كانت هذه هي حالهم طوال إقامتهم معه في المدينة - ثم في الجزيرة كلها - وما تزال هذه حالهم في المجتمع الإسلامي على مدار التاريخ ، على الرغم من أن المجتمع الإسلامي هو المجتمع الوحيد الذي آواهم ، ورفع عنهم الاضطهاد ، وعاملهم

¹ سورة المائدة ، آية 13

² انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (6/114-116) .

³ انظر : البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (2/306) .

⁴ انظر : الطبري ، جامع البيان ، (6/153-154) .

بالحسنى ، ومكّن لهم من الحياة الرغيدة فيه . ولكنهم كانوا دائماً - كما كانوا على عهد الرسول - عقارب وحيات وثورات وذئاباً تضمّر المكر والخيانة ، ولا تتي تمكر وتغدر . إن أعوزتهم القدرة على التكييل الظاهر بالمسلمين ، نصبوا لهم الشباك وأقاموا لهم المصائد ، وتأمروا مع كل عدو لهم ، حتى تحين الفرصة ، فينقضوا عليهم ... فهذا هو جوهر جبلتهم ، وهذا هو جوهر موقفهم ، مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومع الجماعة المسلمة¹ .

والعجب كل العجب ليس في فعل أهل الكتاب ، وفي خيانتهم لدينهم ، ونقضهم لعهودهم مع الله ومع الناس ؛ ولكن العجب العجيب فيمن يقع في مثل ذلك من أمة الإسلام ، بعد أن بين الله تعالى أفعال أهل الكتاب الخيانية ، وقص في القرآن الكريم قصصهم ومخازيهم ؛ ليكون في ما قص الله تعالى من أفعالهم ومصائرهم العبرة والعظة ، ف " هذا القرآن هو معلم هذه الأمة ، ومرشدها ، ورائدها ، وحادي طريقها على طول الطريق . وهو يكشف لها عن حال أعدائها معها ، وعن جبلتهم وعن تاريخهم مع هدى الله كله . ولو ظلت هذه الأمة تستشير قرآنها ، وتسمع توجيهاته ، وتقيم قواعده وتشريعاته في حياتها ، ما استطاع أعداؤها أن ينالوا منها في يوم من الأيام ، ولكنها حين نقضت ميثاقها مع ربها ، وحين اتخذت القرآن مهجوراً - وإن كانت ما تزال تتخذ منه ترانيم مضطربة ، وتعاويد ورقى وأدعية - أصابها ما أصابها . ولقد كان الله سبحانه يقص عليها ما وقع لبني إسرائيل من اللعن والطرود وقسوة القلب وتحريف الكلم عن مواضعه ، حين نقضوا ميثاقهم مع الله ؛ لتحذر أن تنقض هي ميثاقها مع الله ، فيصيبها ما يصيب كل ناكث للعهد ، ناقض للعقد ، فلما غفلت عن هذا التحذير ، وسارت في طريق غير الطريق ، نزع الله منها قيادة البشرية ، وتركها هكذا ذيلاً في القافلة ، حتى تثوب إلى ربها ، وحتى تستمسك بعهدتها ، وحتى توفي بعقدتها . فيفي لها الله بوعده من التمكين في الأرض ومن القيادة للبشر والشهادة على الناس ، وإلا بقيت هكذا ذيلاً للقافلة ، وعد الله لا يخلف الله وعده² .

وعلى الرغم من خيانة أهل الكتاب ومعاداتهم للمسلمين إلا أن أهل الخيانة من بين صفوف المسلمين يأبون إلا موالاتهم ومناصرتهم على المسلمين ، قال تعالى : { فَتَرَى الَّذِينَ

¹ قطب ، في ظلال القرآن ، (6/677-678) .

² قطب ، في ظلال القرآن ، (6/679) .

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ
بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَلْمِيزًا¹.

قال الطبري رحمه الله : " إن ذلك من الله خبر عن ناس من المنافقين كانوا يوالون اليهود والنصارى ويغشون المؤمنين ، ... فتأويل الكلام إذن : فترى يا محمد الذين في قلوبهم مرض وشك إيمان بنبوتك وتصديق ما جئتهم به من عند ربك ، يسارعون فيهم ، يعني في اليهود والنصارى . ويعني بمسارعتهم فيهم : مسارعتهم في موالاتهم ومصانعتهم . (يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة) : يقول هؤلاء المنافقون : إنما نسارع في موالاته هؤلاء اليهود والنصارى خوفا من دائرة تدور علينا من عدونا ... فنحتاج إلى نصرتهم إيانا ، فنحن نواليهم لذلك² .

وحال الخائنين اليوم ، كحالهم بالأمس ، بل هي أقبح وأرذل وأشد سوءا . حيث ترى الخائنين اليوم يسارعون في اليهود والنصارى ، بل يرتمون في أحضانهم ، ويأتمرون بأمرهم ، وينفذون مخططاتهم ومؤامراتهم . بلا حياء ولا خجل ولا تستر . بل إنهم يفعلون ذلك مجاهرة ومفاخرة ، تحت مسميات خدمة الأمة ، ومصالحة الوطن !

هذا نموذج من نماذج الخيانة ، التي عرضها القرآن الكريم ؛ للعبرة والاعتاظ بمن كان قبلنا ؛ حتى لا تقع هذه الأمة في وحل الخيانة الذي وقع فيه أهل الكتاب من قبل .

¹ سورة المائدة ، آية 52

² الطبري ، جامع البيان ، (279/6) .

المبحث الثاني خيانة امرأة العزيز

هذا نموذج آخر مختلف للخيانة ، إنها خيانة الميثاق الغليظ ، خيانة رباط الزوجية ، أو خيانة العرض ، وقد جسده الله تعالى في قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز ، قال تعالى : { وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ^ط قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ } وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ^ط وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ^ج كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ^ج قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ^ج وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا ^ط وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْيَاكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ^١ }

في ظلال هذه الآيات الكريمة ، يصف سيد قطب رحمه الله أجواء الحدث ومقدماته ، يقول : " وإذن فقد كانت المراودة في هذه المرة مكشوفة ، وكانت الدعوة فيها سافرة إلى الفعل الأخير . وحركة تغليق الأبواب لا تكون إلا في اللحظة الأخيرة ، وقد وصلت المرأة إلى اللحظة الحاسمة التي تهتاج فيها دفعة الجسد الغليظة ، ونداء الجسد الأخير . وقالت : هيت لك . هذه الدعوة السافرة الجاهرة الغليظة لا تكون أول دعوة من المرأة . إنما تكون هي الدعوة الأخيرة . وقد لا تكون أبدا إذا لم تضطر إليها المرأة اضطرارا . والفتى يعيش معها وقوته وفتوته تتكامل ، وأنوثتها هي كذلك تكمل وتتضح . فلا بد كانت هناك إغراءات شتى خفيفة لطيفة ، قبل هذه المفاجأة الغليظة العنيفة ^٢ . ولكن نفس يوسف العفيفة عليه السلام تأبى عليه أن يقع في

¹ سورة يوسف ، الآيات 23- 29

² قطب ، في ظلال القرآن ، (710/12) .

الفاحشة ، وأن يخون الأمانة ، وأن يقع في وحل الرذيلة والخيانة ، وتأتى عليه أيضا أن يسيء لمن أحسن إليه ، ورباه في بيته . روى الطبري عن ابن اسحاق قال : " وقوله : (أَحْسَنَ مَثْوَايَ) ، يقول : أحسن منزلتي ، وأكرمني ، وأتمنني ، فلا أخونه "1.

وهذا الورع والعفاف الذي تحلى به يوسف عليه السلام يتبدى ويتجلى في أبهى صورته ، وتبدو أهمية الموقف وجلاله ، عند ملاحظة الظروف والملابسات التي حدثت فيها هذه المراودة ؛ فهي دعوة من طرف المرأة أولا ، وليست بمبادرة منه هو ، وهو ما يدعو إلى قبول العرض . ثم هي دعوة من امرأة ذات منصب وجمال² ؛ فهي امرأة عزيز مصر . ثم كذلك هي دعوة في مكان مأمون ، خلف أبواب مغلقة ؛ تؤمن فيه عيون البشر . فهي دعوة مغرية بكل المقاييس . ومثل هذه الدعوة لا يرفضها إلا كل عفيف شريف عظيم النفس . ومن هنا يتبين السبب الذي من أجله كان صاحب هذه النفس في ظل عرش الرحمن يوم القيامة . كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه ، قال : " سبعة يُظَلِّمُ اللهُ تعالى في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله ... ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخافُ الله "3.

هذا المشهد الذي حدث مع يوسف عليه السلام حين رفض الوقوع في هذه الخيانة - خيانة العرض - رغم قدرته على الفعل ، يذكرنا بذلك الرجل ممن كان قبلنا ، والذي أخبر عنه النبي عليه الصلاة والسلام ، أنه دعا الله تعالى ، في وقت محنة وشدة - لما سُدَّ عليه ، وعلى رجلين معه باب غار كانوا فيه - فذكر في دعائه ربّه امتناعه عن خيانة عرض ابنة عمه ، لما قدر عليها⁴.

¹ الطبري ، جامع البيان ، (182/12) .

² انظر : الرازي ، تفسير القرآن العظيم ، (2120/7) .

³ البخاري ، الجامع الصحيح المختصر ، كتاب : الزكاة ، باب : الصدقة باليمين ، حديث : 1357 ، (517/2) . مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب الزكاة ، باب : فضل إخفاء الصدقة ، حديث : 1031 ، (715/2) .

⁴ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ... وقال الآخر : اللهم كانت لي بنتٌ عم ، كانت أحب الناس إلي ، فأردتُها عن نفسها ، فامتنعت مني ، حتى أَلَمْتُ بِهَا سَنَةً مِنَ السنين ، فجاءتني ، فأعطيتها عشرين ومئة دينار ، على أن تُخَلِّيَ بيني وبين نفسي ، ففعلت . حتى إذا قَدَرْتُ عَلَيْهَا ، قالت : لا أُلْهِ لَكَ . أن تُقْضَى الخاتَمَ إلا بحقه . فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الوقوع عليها . فانصرفتُ عنها ، وهي أحب الناس إلي ، وتركتُ الذهب الذي أعطيتها . اللهم إن كنتُ فعلتُ ابتغاء وجهك ، فأفرِّجْ عَنَّا ما نحن فيه . فانفرجت الصخرة " . البخاري ، الجامع الصحيح المختصر ، كتاب : الإجارة ، باب : من استأجر أجيرا فترك أجره .. ، حديث : 2152 ، (793/2) .

ومتابعة لأحداث القصة ، قال تعالى : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهٖ) .

لقد ورد في معنى الهم المقصود من قبل يوسف عليه السلام تأويلات عديدة ، منها ما هو مستهجن ومستغرب ، يחדش عصمة الأنبياء ، ومنطق العفة والشرف الذي مدح الله تعالى به يوسف عليه السلام¹ .

والصحيح الذي تميل إليه النفس ، أن الهم المقصود : هو الميل البشري الفطري ، الذي لا يرافقه ميل جسدي . " والمراد بهمه عليه الصلاة والسلام ميل الطبع ، ومنازعة الشهوة ، لا القصد الاختياري . وذلك مما لا يدخل تحت التكليف ، بل الحقيق بالمدح ، والأجر الجزيل من الله ، لمن يكف نفسه عن الفعل ، عند قيام هذا الهم ، أو مشاركة الهم"² . هذا التأويل الذي يساير المنطق ، ويوافق العقل ، ويتماشى مع عصمة الأنبياء . بخلاف من سار خلف الإسرائيليات ، فذكر مثل تلك الخرافات والأباطيل³ . ومن الآراء التي تتوافق مع عصمة الأنبياء ، رأي من رأى أن الهم إنما وقع من امرأة العزيز ولم يقع من يوسف عليه السلام ؛ لأن (لولا) أداة امتناع لوجود ، فيكون قوله تعالى : (وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهٖ) ، دليل على عدم وقوع الهم منه ؛ لوجود برهان الله ، فلولا أنه رأى برهان ربه ، لهم بها⁴ .

وأكرر المرحوم الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار على الجمهور هذا الرأي . وقال : إنها إنما همت بضربه نتيجة إبانته وإهانته لها وهي السيدة الأمرة ، وهم هو برد الاعتداء ، ولكنه أثر

¹ من ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم : " عن ابن عباس ، قال : لما همت به تزينت ، ثم استلقت على فراشها ، وهم بها ، وجلس بين رجلها ، يحل ثيابه ، فنودي من السماء : يا ابن يعقوب ، لا تكن كطائر ، نُتِفَ ريشه ، فبقي لا ريش له . فلم يتعظ على النداء شيئا ، أي لم يفصم ، حتى رأى برهان ربه : جبريل في صورة يعقوب ، عاضا على إصبعيه ، ففرغ . " وعن مجاهد ، قال : " ولقد همت به وهم بها ، قال : حل سراويله حتى بلغ نُتْفَتَهُ ، فمُتُّ له يعقوب ، فضرب في صدره ، فخرجت شهوته من أنامله . " الرازي ، تفسير القرآن العظيم ، (7/2123) . و (الثقة) : العانة . الزبيدي ، تاج العروس ، (34/341) .

² البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (3/282) . وانظر : حمدون ، غسان ، من نسمات القرآن كلمات وبيان ، راجعه وقدم له : جميل غازي وآخرون ، دار السلام - بدون بلد النشر ، (ط2/1407هـ) ، (ص145) .

³ انظر : قطب ، في ظلال القرآن ، (12/711) .

⁴ انظر : نوفل ، أحمد ، سورة يوسف دراسة تحليلية ، دار الفرقان - عمان (ط2/1420هـ) ، (ص150-151) . الزمخشري ، الكشاف ، (2/430) .

الهرب فلحقت به ، وقدت قميصه من دبر¹.

ويعلق سيد قطب رحمه الله على هذا الرأي فيقول : " وتفسير الهم بأنه هم الضرب وردُّ الضرب ، مسألة لا دليل عليها في العبارة ، فهي مجرد رأي ؛ لمحاولة البعد بيوسف عن همّ الفعل ، أو همّ الميل إليه في تلك الواقعة . وفيه تكلف وإبعاد عن مدلول النص² .

ويذكر سيد رحمه الله رأيه في موقف الإغراء الذي حدث مع يوسف عليه السلام فيقول : " هو نهاية موقف طويل من الإغراء ، بعدما أبى يوسف في أول الأمر واستعصم . وهو تصوير واقعي صادق لحالة النفس البشرية الصالحة في المقاومة والضعف ، ثم الاعتصام بالله في النهاية والنجاة ... فذكر طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله ، والاعتصام في نهايته ، مع الإمام بلحظة الضعف بينهما ، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعا ... وهو أقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبوية . وما كان يوسف سوى بشر . نعم إنه بشر مختار . ومن ثم لم يتجاوز همُّه الميل النفسي في لحظة من اللحظات . فلما أن رأى برهان ربه ، الذي نبض في ضميره وقلبه ، بعد لحظة الضعف الطارئة ، عاد إلى الاعتصام والتأبى³ .

ولذلك قال الله تعالى عنه : (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) .

والسوء الذي صرف الله تعالى عنه يوسف عليه السلام هو : خيانة العزيز في عرضه⁴ . ولولا أن يوسف عليه السلام نجح بجدارة في هذا الاختبار العظيم ، ما وصفه الله تعالى بقوله : (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) . " فانحسم مادة احتمال صدور الهمّ بالسوء منه عليه السلام بالكلية⁵ .

¹ انظر : رضا ، محمد رشيد ، ت1354هـ ، تفسير المنار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (طبعة سنة 1972م) ، (230 - 229/12) .

² قطب ، في ظلال القرآن ، (711/12) .

³ المرجع السابق ، (712 - 711/12) .

⁴ انظر : أبو السعود ، إرشاد العقل السليم ، (267/4) .

⁵ المرجع السابق ، (267/4) .

وهذا الهم من يوسف عليه السلام لا يطعن في عصمة الله له ، ولا يطعن في حفظ الله له من الوقوع في الزلل ، بل إن في هذا التآبي على الرغم مما تهيأ له من ظروف ومغريات ، مدعاة للثناء والتكريم . فالله تعالى من كرمه وفضله ومنته على عباده ، لا يكتب السيئة لمن هم بها ، ولم يعملها ، كما جاء في الحديث القدسي ، الذي يرويه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " قال الله عز وجل : إذا هم عبدي بحسنة ولم يعملها ، كتبتُها له حسنة . فإن عملها ، كتبتُها عشرَ حسنات ، إلى سبعمئة ضعف . وإذا هم بسيئة ولم يعملها ، لم أكتبها عليه . فإن عملها ، كتبتُها سيئةً واحدة "1.

وبعد أن رفض يوسف عليه السلام هذا العرض من هذه المرأة رفضا حاسما قاطعا أتبع ذلك الرفض الكلامي بالفعل ، فلم يجد أمامه إلا الانسحاب من هذا الموقف برمته ، والهرب من ذلك المكان الشيطاني الذي هو فيه ، والخروج من خلف الأبواب المغلقة . ولكنها رغم ذلك تبعته ، ولحقت به . قال تعالى ، مصورا ذلك الحدث : (وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ) . " يخبر تعالى عن حالهما ، حين خرجا ، يستبقان إلى الباب ، يوسف هارب ، والمرأة تطلبه ؛ ليرجع إلى البيت . فلحقته في أثناء ذلك ، فأمسكت بقميصه من ورائه ، فقدته قدا فظيعا . يقال إنه سقط عنه . واستمر يوسف هاربا ذاهبا ، وهي في إثره . فألفيا سيدها - وهو زوجها - عند الباب . فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها ، وقالت ، متصلة وقاذفة يوسف بدائها : (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا) : أي فاحشة ، (إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ) : أي يحبس . (أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) "2 ؟

وعند هذه المفاجأة ، غير المتوقعة ، " تتبدى المرأة المكتملة ، فتجد الجواب حاضرا على السؤال الذي يهتف به المنظر المريب ، إنها تتهم الفتى ... ولكنها امرأة تعشق ، فهي تخشى عليه ، فتشير بالعقاب المأمون ، (إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) "3.

¹ مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب : الإيمان ، باب : إذا هم العبد بحسنة كتبت ، وإذا هم بسيئة لم تكتب ، حديث : 128 ، (117/1) .

² ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، (476/2) .

³ قطب ، في ظلال القرآن ، (713/12) . وانظر: البغوي ، معالم التنزيل ، (421/2) .

فهي عندما رأت زوجها ، بادرت باتهام يوسف عليه السلام : " إنه راودني عن نفسي ، فدفعته عن نفسي ، فشفقتُ قميصه "1.

هذه المبادرة بإلقاء التهمة على الأبرياء ، هي دأب الخائنين ، ووسيلتهم في الخروج من دائرة الاتهام . إنها خيانة فوق خيانة ، وجُرم فوق جرم . فهي هنا لم تكتف بفعلها الخياني لزوجها وعرضها ، بل أضافت إليه جرماً آخر ، وخيانة أخرى ، باتهامها يوسف العفيف الشريف النظيف البريء بمحاولة فعل الفاحشة بها . ولكن الله تعالى أشهر الحق ، وفضح المستور ، وكشف المؤامرة . وذلك عن طريق أحد أقاربها .

قال تعالى : (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قَبْلِ فَصَدَقْتَ وَهُوَ مِنْ

الْكَذِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ) . " وقد سمي

قوله هذا شهادة ؛ لأنه لما سئل رأيه في الموقف والنزاع المعروض من الجانبين - ولكل منها ومن يوسف قول - سميت فتواه هذه شهادة ؛ لأنها تساعد على تحقيق النزاع والوصول إلى الحق فيه "2. فما معنى هذا الحكم من هذا الشاهد ؟ وما دلالة تقديم صدقها على صدقه ، وكذبه على كذبها ؟ يجيب عن ذلك سيد قطب رحمه الله موضحاً :

" فإن كان قميصه قد من قبل ؛ فذلك إذن من أثر مدافعتها له ، وهو يريد الاعتداء عليها ، فهي صادقة وهو كاذب . وإن كان قميصه قد من دبر ؛ فهو إذن من أثر تملصه منها ، وتعقبها هي له حتى الباب ، وهي كاذبة وهو صادق . وقدم الفرض الأول ؛ لأنه إن صح يقتضي صدقها وكذبه ، فهي السيدة وهذا فتى ، فمن باب اللياقة أن يذكر الفرض الأول ، والأمر لا يخرج عن أن يكون قرينة "3.

وعند إحضار القميص ، ورؤية زوجها له أنه قد من دبر ، إشارةً إلى هروبه منها ولحاقها

هي به ، " عرف خيانة امرأته ، وبراعة يوسف عليه السلام "4 . فماذا كانت ردة فعله يا ترى ؟

(فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ يُوسُفُ

أَعْرَضَ عَنْ هَذَا ۖ وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنُوبِكِ ۖ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ) . إنها ردة فعل

1 الطبري ، جامع البيان ، (192/12) .

2 قطب ، في ظلال القرآن ، (713/12) .

3 المرجع السابق ، (713/12) .

4 البغوي ، معالم التنزيل ، (422/2) .

باردة ، لم تؤثر فيها هذه الحادثة ، على عظمها وخطورتها . وفي هذا المشهد الأخير من هذا الحدث العظيم ، يصف لنا سيد قطب رحمه الله دلالة ردة الفعل هذه ، فيقول : " وهنا تبدو لنا صورة من الطبقة الراقية في الجاهلية قبل آلاف السنين ، وكأنما هي هي اليوم شاخصة . رخاوة في مواجهة الفضائح الجنسية ، وميل إلى كتمانها عن المجتمع ، وهذا هو المهم كله ... (إنه من كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) . فهي اللباقة في مواجهة الحادث الذي يثير الدم في العروق ، والتلطف في مواجهة السيدة ، بنسبة الأمر إلى الجنس كله ، فيما يشبه الثناء . فإنه لا يسوء المرأة أن يقال لها : إن كيدك عظيم . فهو دلالة في حسها على أنها أنثى كاملة مستوفية ، لمقدرة الأنثى على الكيد العظيم . والتفاتة إلى يوسف البريء : (يُوسُفُ أَعْرَضَ عَن هَذَا) ، فأهمله ولا تعرّه اهتماماً ولا تتحدث به . وهذا هو المهم . المحافظة على الظواهر . وعظة إلى المرأة التي راودت فتاها عن نفسه ، وضبطت متلبسة بمساروته وتمزيق قميصه : (وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْيَاكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ) . إنها الطبقة الأرستقراطية ، من رجال الحاشية ، في كل جاهلية . قريب من قريب "1.

وبعد هذه الأحداث الجسام ، تُختم القصة باعتراف امرأة العزيز بفعاليتها ، وبيان خطورة الخيانة . قال تعالى : { قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكُنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ }2.

(الْكُنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ) : أي " الآن تبين الحق وانكشف فظهر "3.

وهكذا يعلن يوسف عليه السلام براءته على الملائكة : (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) : " أي بمكان الغيب وراء الأستار والأبواب المغلقة ... فالمقصود بيان كمال نزاهته عن الخيانة

1 قطب ، في ظلال القرآن ، (714/12) .

2 سورة يوسف ، آية 51-52 .

3 الطبري ، جامع البيان ، (236/12) .

و غاية اجتنابه عنها عند تعاضد أسبابها ... (لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) : أي لا ينفذه ولا يسدده بل يبطله ويزهقه ... وفيه تعريض بامرأته في خيانتها أمانته ، وبه ، في خيانتها أمانة الله تعالى ؛ حين ساعدها على حبسه بعد ما رأوا آيات نزاهته عليه السلام . ويجوز أن يكون ذلك لتأكيد أمانته ، وأنه لو كان خائناً لما هدى الله عز وجل أمره وأحسن عاقبته "1.

وبعد هذا الاستعراض لأحداث هذه الخيانة العظيمة ، والتي تمثل نموذجاً لخيانة العرض ، يظهر بوضوح الأثر الخطير والبالغ لهذه الخيانة على الأسرة والمجتمع . وهو نموذج تأكد من خلاله انعدام الضوابط والقيم وانحطاط الخلق عند أهل الخيانة ، كما تأكد تحقق سنة الله تعالى في فضح الخائنين ، وفي هذا النموذج القرآني دروس وعبر لكل من يعتبر ، حتى لا يسلك طريق الخيانة أحد .

¹ أبو السعود ، إرشاد العقل السليم ، (285/4) .

المبحث الثالث

خيانة إخوة يوسف (عليه السلام)

هذا نموذج آخر للخيانة ، خيانة الأهل والعشيرة ، خيانة أمانة الأخوة . وهو ما تمثله قصة يوسف عليه السلام أيضا ، ولكن هذه المرة مع إخوته الذين خانوه ، متناسين رابطة الأخوة التي تجمعهم به ، ضاربين بعرض الحائط ما أعطوه لوالدهم من المواثيق المغلظة على حفظ أخيهم والمحافظة عليه ، بل متناسين لكل القيم الأخلاقية والإنسانية في تلك الفعلة الخيانية التي أقدموا عليها . وسنلاحظ من خلال عرض أحداث هذه القصة ، مدى القسوة والغلظة ، وانعدام القسيم ، واختلال الموازين ، وفقدان الرحمة التي يتصف بها أهل الخيانة والعدو .

قال تعالى : { لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلسَّالِئِينَ ۖ } إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ

وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا وَخَنُ عَصَبَةً إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧﴾ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ

أَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخُلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٨﴾ قَالَ قَائِلٌ

مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيِّبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ

﴿٩﴾ قَالُوا يَتَّابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنصِحُونَ ﴿١٠﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا

يَرْتَع وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١١﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن

يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٢﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا

إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيِّبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ

لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٤﴾ وَجَاءَ وَآبَاهُمُ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا

يَتَّابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ

لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٦﴾ وَجَاءَ وَعَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ

أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ حَمِيلٌ ﴿١٧﴾ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ

فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةَ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ وَشَرُّهُ بِثَمَنِ نَحْسٍ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ¹.

مما لا شك فيه أن الله تعالى قص علينا القصة في القرآن الكريم من أجل العبرة والاتعاظ والتأسي ، إضافة لما في ذلك من تسرية وتخفيف عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى الدعاة إلى الله من بعده إلى يوم القيامة . ففي هذه القصة تعليم وتعريف بفعل من أفعال الخيانة والغدر ؛ من أجل أن نأخذ الدروس والعبر ؛ ولذلك جاء افتتاح هذه القصة بقوله تعالى : (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّالِئِينَ) . " وهذا الافتتاح كفيل بتحريك الانتباه والاهتمام . لذلك نشبهه بحركة رفع الستار عما يدور وراءه من أحداث وحركات . فنحن نرى وراءه مباشرة مشهد إخوة يوسف يدبرون ليوسف ما يدبرون ² . هكذا تلفت الآيات الانتباه إلى ما سيأتي من أحداث ، وتهيئ النفس وتشوقها لاستقبال ما سيأتي من عظام الأمور .

ثم تذكر الآية التالية ما أسر إخوة يوسف فيما بينهم من حديث ، يعلنون فيه حقدهم على أخيهم يوسف عليه السلام ، وحسداهم له . ترى ما هو هذا السبب الذي ملأ نفوسهم غيظا وحقدا على يوسف وأخيه ، لدرجة التآمر والتدبير لقتله ؟ (إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهٌ أَبْيَضٌ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ) . إذا السبب في كل هذا الحقد الذي أوصلهم إلى التآمر للغدر بأخيهم ، هو إحساسهم أن أباهم يؤثر يوسف عليه السلام عليهم بالمحبة والرعاية له ³ .

يصف سيد قطب رحمه الله الحالة النفسية التي وصل إليها إخوة يوسف ، من تأثير الحقد والبغض ، فيقول : " ثم يغلي الحقد ويدخل الشيطان ، فيختل تقديرهم للوقائع ، وتضخم في

¹ سورة يوسف ، الآيات 7- 20

² قطب ، في ظلال القرآن ، (698/12) .

³ انظر : الطبري ، جامع البيان ، (155/12) . الواحدي ، الوجيز ، (539/1) . البغوي ، معالم التنزيل ، (411/2)

حسهم أشياء صغيرة ، وتهون أحداث ضخام . تهون الفعلة الشنعاء المتمثلة في إزهاق روح .
روح غلام بريء لا يملك دفعا عن نفسه ، وهو لهم أخ . وهم أبناء نبي - وإن لم يكونوا هم
أنبياء - يهون هذا ، وتضخم في أعينهم حكاية إيثار أبيهم له بالحب ، حتى تُوازي القتل ، أكبر
جرائم الأرض قاطبة بعد الشرك بالله ¹.

ثم كان القرار : (أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطَّرَحُوهُ أَرْضًا) ، " وهما قريب من قريب ؛ فطرحه
في أرض نائية مقطوعة مفض في الغالب إلى الموت " ². والحقيقة أن الذي فعله إخوة يوسف
عليه السلام ليس جريمة واحدة فحسب ، بل جرائم مركبة " منها : قطيعة الرحم ، وعقوق
الوالد ، وقلة الرأفة بالصغير الطريح ، الذي لا ذنب له ، والغدر بالأمانة ، وترك العهد بالحفظ ،
والكذب الذي عزموا عليه مع أبيهم " ³. هذا الكذب الذي لا بد له في كل جريمة خيانة ، كما ذكر
سابقا في صفات الخائنين وأفعالهم ؛ وذلك لضرورة إخفاء الجريمة .
والهدف من كل هذه الجرائم ، (تَحَلُّ لَكُمْ وَجْهٌ أَبِيكُمْ) : بمعنى تحظوا عند أبيكم بالمكانة
التي تليق بكم ، فلا يعود ينشغل بيوسف عنكم ، ويفرغ قلبه لمحبتكم ⁴.

ثم دخل لهم الشيطان مدخلا عجيبا ، لتبرير أفعالهم ؛ من أجل أن تستسيغ نفوسهم فعل تلك
الأفاعيل والجرائم الفظيعة ، فقالوا : (وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ) : " أي تتوبون إلى
الله وتستغفرونه من بعد ذنبكم ، فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم ؛ تسهيلا
لفعله ، وإزالة لشناعته ، وتنشيطا من بعضهم لبعض " ⁵. " هكذا ينزغ الشيطان ، وهكذا يسول
للفوس عندما تغضب وتفقد زمامها ، وتفقد صحة تقديرها للأشياء والأحداث . وهكذا لما غلا
في صدورهم الحقد ، برز الشيطان ليقول لهم : اقتلوا . والتوبة بعد ذلك تصلح ما فات . وليست
التوبة هكذا . إنما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفع إليها المرء غافلا جاهلا غير ذاك ، حتى
إذا تذكر ندم ، وجاشت نفسه بالتوبة . أما التوبة الجاهزة ، التوبة التي تُعد سلفا قبل ارتكاب

¹ قطب ، في ظلال القرآن ، (698/12 - 699) .

² المرجع السابق ، (699/12) .

³ السمعاني ، تفسير القرآن العزيز ، (10/3) .

⁴ انظر : البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (276/3) . البغوي ، معالم التنزيل ، (412/2) . ابن الجوزي ، زاد المسير ،

(184/4) .

⁵ السعدي ، تيسير الكريم الرحمن ، (ص394) .

الجريمة ؛ لإزالة معالم الجريمة ، فليست بالتوبة ، إنما هي تبرير لارتكاب الجريمة يزينه الشيطان" ¹.

وهذا لا يعني بالطبع أن التوبة من الجريمة التي بيت صاحبها النية فيها على التوبة منها قبل اقترافها ، إنها لا تقبل ، فقد استدل أهل العلم من قوله تعالى على لسان إخوة يوسف عليه السلام : (وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ) ، على قبول التوبة من الكبائر ، بما في ذلك القتل ، حتى لو بيت العاصي النية على التوبة قبل اقتراف الذنب ، كما فعل إخوة يوسف عليه السلام ؛ وذلك أن الله تعالى ذكر كلامهم هذا ، ولم ينكره عليهم . وما ورد من أخبار أن القاتل لا توبة له - إن صحت هذه الأخبار - تؤول على عدم التوبة من هذا الذنب ² . وليس أدل على ذلك من توبة الله تعالى على إخوة يوسف عليه السلام في آخر القصة . وكذلك ما ثبت عن النبي عليه السلام من قصة قاتل المائة نفس ، الذي تاب الله عليه لما أعلن توبته ، بالرغم من أنه مات بعد التوبة مباشرة ، وقبل أن يباشر أي عمل من أعمال الصلاح ³.

ثم بعد ذلك جاء اقتراح من أحد الإخوة المتأمرين ، ويبدو أن ضميره لم يتقبل الفعل الشنعاء ، يقترح حلاً يريحهم من يوسف عليه السلام دون قتله ، أو إلقائه في أرض مهجورة ، يغلب على الظن هلاكه فيها . فكان هذا الاقتراح إلقاءه في الجب ⁴ على طريق القوافل ؛ لاحتمال مرور إحدى القوافل ، تأخذه معها ⁵.

ثم تأتينا الآيات بعد ذلك بمشهد بدء تنفيذ المؤامرة ، من خلال الحوار الذي دار بين الأب يعقوب عليه السلام ، وأبنائه المتأمرين . فما هم أولاء يراودونه لاصطحاب أخيه معهم ، يخادعون أباهم ، ويمكرون به ويوسف عليهما السلام . يبدأ الحوار بكلمات مؤثرة منهم لأبيهم ،

¹ قطب ، في ظلال القرآن ، (699/12) .

² انظر : الجصاص ، أبو بكر أحمد بن علي الرازي ، ت370هـ ، أحكام القرآن ، تحقيق : محمد الصادق قمحاوي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (طبعة سنة 1405هـ) ، (381/4) . الثعلبي ، الكشف والبيان ، (365/3) .

³ انظر : البخاري ، الجامع الصحيح المختصر ، كتاب : أحاديث الأنبياء ، باب : حديث الغار ، حديث : 3283 ، (1280/3) . ومسلم ، صحيح مسلم ، كتاب : التوبة ، باب : قبول توبة القاتل وإن كثر قتله ، حديث : 2766 ، (2118/4) .

⁴ الجب : البئر التي لم تطو ... لم تبن بالحجارة . الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ، ت721هـ ، مختار الصحاح ، تحقيق : محمود خاطر ، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت ، (طبعة سنة 1415هـ) ، (39/1) .

⁵ انظر : قطب ، في ظلال القرآن ، (699/12) .

(يَتَأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصِحُونَ) ففي لفظ (يَتَأَبَانَا) تذكير له على ما بينه وبينهم من رابطة الأبوة ، التي توحى بالثقة والمحبة والوفاء . ثم سؤال فيه معنى العتاب : (مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصِحُونَ) وكيف لا نؤمن على من كان أختاً لنا ، وابن أبينا ؟ وفي هذا استجاشة للوالد الذي لا يحب مفارقة ولده ؛ لخوفه عليه من عدم احتمال السفر إلى أرض المراعي ؛ لما يحتمله ذلك من أخطار . فهم يستجيشونه ليبادر بنفي حرصه على ولده أن يكون سببه عدم ائتمانهم عليه . ثم تستمر المرادة ، ورسائل التطمين منهم لأبيهم : (أَرْسَلُهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ) . فالهدف من خروجه معنا ، هو النزهة ، واللعب ، والترويح عن النفس . ثم لقد تعهدوا له بحفظه ؛ زيادة في التطمين . وبعد كل هذا التأكيد والتوثيق ، يبدأ يعقوب عليه السلام بالاستجابة لمطلبهم ، ولكن مع بعض التخوف والقلق الذي لا يزال في نفسه : (قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ) . ولربما كانت هذه الكلمات من الأب الحاني ، قد حركت ضغائنهم أكثر ، وزادت من حقدهم على أخيهم الصغير . ثم هم على ما يبدو التقطوا مخاوف أبيهم من الذئب ، ليذعوا لاحقا أن الذئب قد أكل يوسف عليه السلام . وبعد ذلك يأتي تأكيد آخر من قبلهم ؛ لنفي ما بقي من المخاوف عند أبيهم على سلامة الفتى الصغير : (قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ) . وكيف يمكن للذئب أن يأكله ونحن بهذه الكثرة والغلبة والقوة ؟ كيف يمكن للذئب أن يقترب منه ، ونحن حوله نحمله ونحرسه ؟ إن حصل ذلك فعلا ، إنا إذن لخاسرون . خاسرون لكل شيء ، فلا خير فينا . وبعد كل هذه المواثيق والعهود والتطمينات ، يستسلم الأب لرغبة الأبناء ؛ ليكتمل المشهد ؛ وليتم قدر الله تعالى ، ومشيبته التي أرادها ليوسف عليه السلام¹ .

وقد أوردت كتب التفسير روايات كثيرة ، تذكر كيفية معاملتهم لأخيهم وهم يقتادونه لمصيره ، من شتم وضرب . ثم الطريق الوحشية في إلقاءه في الجب² ، وبغض النظر عن التفاصيل الواردة في هذا الشأن ، " فقد استقر أمرهم جميعا على أن يجعلوه في غيابة الجب ،

¹ انظر: أبا السعود ، إرشاد العقل السليم ، (257/4-258) . قطب ، في ظلال القرآن ، (700/12-701) .

² انظر : الطبري ، جامع البيان ، (160/12) . القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (141/9-142) . البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (277/3) .

حيث يغيب فيه عنهم . وفي لحظة الضيق والشدة التي كان يواجه فيها هذا الفرع ، والموت منه قريب ، ولا منقذ له ولا مغيث ، وهو وحده صغير وهم عشرة أشداء ، وفي هذه اللحظة اليائسة يُلقي الله في روعه أنه ناج ¹.

إن الجهد الذي بذله الإخوة في تزوير الحقيقة ، والادعاء الكاذب بأكل الذئب أخاهم ، وتأليفهم هذه الحكاية ، وإحضارهم الدليل العيني الشاهد على ادعائهم ، (القميص الملطخ بالدم) ، وما قدموه من تأكيدات على صدقهم . وما بذلوه من دموع كاذبة ، بالرغم من كل ذلك ، إلا أن رائحة الكذب كانت تفوح من كلامهم ، ولم يحسنوا ترويج ادعائهم ، رغم كل المحاولات . وهذا حال الكاذبين الخائنين في كل زمان ومكان . فلا بد في النهاية من افتضاح أمرهم ، وانكشاف تآمرهم ، وبيان كذبهم وتزويرهم ، وهذه سنة من الله تعالى لا تتخلف أبداً ، ومن ستر الله خيانتة في الدنيا ، فهو مفضوح لا شك ، أمام الخلائق يوم القيامة .

يقول سيد قطب رحمه الله في وصف كيدهم الضعيف ، وتآمرهم الواهي : " لقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبك الكذبة ، فلو كانوا أهدأ أعصابا ما فعلوها منذ المرة الأولى ، التي يأذن لهم فيها يعقوب باصطحاب يوسف معهم . ولكنهم كانوا متعجلين لا يصبرون . يخشون ألا تُواتيهم الفرصة مرة أخرى . كذلك كان التقاطهم لحكاية الذئب المكشوفة دليلاً على التسرع ، وقد كان أبوهم يحذرهم منها أمس ، وهم ينفونها ، ويكادون يتحكمون بها . فلم يكن من المستساغ أن يذهبوا في الصباح ليتركوا يوسف للذئب الذي حذرهم أبوهم منه أمس . وبمثل هذا التسرع جاؤوا على قميصه بدم كذب لظخوه به في غير إتقان ، فكان ظاهر الكذب ، حتى ليوصف بأنه كذب . فعلوا هذا . (وَجَاءُوا بِأَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ) . ويحسون أنها مكشوفة ، ويكاد المرعب أن يقول خذوني ، فيقولون : (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) . أي وما أنت بمطمئن لما نقوله ، ولو كان هو الصدق ، لأنك تشك فينا ولا تطمئن لما نقول ².

¹ قطب ، في ظلال القرآن ، (702/12) .

² المرجع السابق ، (702/12 - 703) .

ولما ظهر ليعقوب عليه السلام من دلائل تشير إلى كذبهم ، وغدرهم بأخيهم ، وخيانتهم للأمانة بحفظه ، والتي أعطوه عليها أعظم الموثيق والعهود ، اتهمهم فقال : (بَلَّ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ) . وسولت : أي سهلت . والمقصود : أن أنفسهم سهلت لهم قتل أخيهم . وهو أمر عظيم ، زينته لهم أنفسهم الخبيثة ، ففعلوه واستسهلوه ، وهان في أعينهم ، على عظمه¹ . ويلجأ يعقوب النبي عليه السلام إلى الله ، حيث لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ) . والصبر الجميل : هو الصبر الذي لا جزع فيه ولا شكوى لعباد الله تعالى² ، بل الشكوى فيه والضراعة إلى الله ، مصداقاً لقوله تعالى ، على لسان يعقوب عليه السلام : { قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ }³ . هذا هو الصبر الجميل الذي واجه به يعقوب عليه السلام هذه الفاجعة ، والذي ينبغي أن يتحلى به كل مؤمن ، عند مواجهة الابتلاء وهو الصبر الذي تحصنت به السيدة عائشة رضي الله عنها في مواجهة ما أشاعه أهل الخيانة والإرجاف بحقها ، فيما سمي ، بحادثة الإفك . فقد ثبت في الصحيحين ، عن عائشة رضي الله عنها ، حين بلغها خبر ما أشاعه المنافقون بحقها قالت : " فوالله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف ، حين قال : (فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون)"⁴ .

والاستعانة بالله تعالى ، مع الثقة والاطمئنان ، والصبر الجميل ، لا شك أن نتيجتها تفريح الكربات ، واستجابة الدعوات ، وتهوين المصيبات . وهو الأمر الذي حدث مع يوسف عليه السلام ، حيث انتهى به الأمر إلى قافلة مرت بالمكان ، فأخذوه وباعوه ، واشتراه ملك مصر ، وانتهى به المقام عنده بأن أصبح وزيراً ، له الحظوة والمكانة ، والسيادة والحكم . وأقر الله تعالى عيون والديه به ، وأسجد له إخوته ، بعد أن أقروا بذنبهم ، وفعلتهم ، وتحققت رؤياه التي

¹ انظر : الرازي ، تفسير القرآن العظيم ، (2111/7) . أبا السعود ، إرشاد العقل السليم ، (260/4) .

² انظر : الثوري ، أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق ، ت161هـ ، تفسير سفيان الثوري ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (ط1/1403هـ) ، (ص138) . مجاهد ، تفسير مجاهد ، (312/1) . الزمخشري ، الكشاف (426/2) .

³ سورة يوسف ، آية 86

⁴ البخاري ، الجامع الصحيح المختصر ، كتاب : المغازي ، باب : حديث الإفك ، حديث : 3910 ، (1521/4) . مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب : التوبة ، باب : في حديث الإفك وقبول توبة القاذف ، حديث : 2770 ، (2135/4) . واللفظ للبخاري .

كان قد قصها على أبيه من قبل . وهكذا تكون عاقبة المتقين ، وهكذا يكون حفظ الله تعالى لأوليائه وعباده المتقين ، وهكذا يكون مآل الخيانة والغدر : الذلة والصغار ، والندم والحسرة ، والفضيحة والتشهير . { وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظُّلْمُونَ }¹.

هذه القصة التي تقشعر منها الجلود ؛ من ألم وقعها في النفوس ، لتبين مدى الانحطاط والبلادة التي يصل إليها أهل الخيانة والمكر والكيد ، ولأبسط الأسباب وأتفهها يصل بهم الأمر إلى ارتكاب أشنع الجرائم وأفظعها . ثم لكأن الكذب والدس والاحتتيال لا بد أن يكون ملازماً لفعل الخيانة ؛ ليحاول الخائنون بواسطته الظهور بمظهر البريء من الخيانة والجريمة . هذه القصة من قصص الخيانة في القرآن الكريم تكشف عن نفسيات أهل الخيانة ، ومدى خطورة أفعالهم ، وبشاعة جرائمهم ، فهم لا يعرفون الرحمة والشفقة والعطف ، وهم لا يحتاجون المبرر لارتكاب أفعالهم ، وقلوبهم مليئة بالغيظ والحقد والحسد . ثم في النهاية يحاولون تزوير الحقائق وقلب الأمور والظهور بمظهر البريء من كل جرم . ولكن الله تعالى يمكر للمؤمنين ويبطل كيد الخائنين ، ويحمي أوليائه من مكر الماكرين . { فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ }².

¹ سورة إبراهيم ، آية 42

² سورة يوسف ، آية 64

المبحث الرابع

خيانة امرأتي نوح و لوط عليهما السلام

هنا نموذج آخر من نماذج الخيانة ، إنها خيانة الدين ، وذلك بمخالفة الأنبياء وتعاليم السماء التي جاؤوا بها ، وهذا ما كان من امرأتي النبيين الكريمين نوح و لوط عليهما السلام . وقد ذكر الله تعالى فعلتهما ، وسماها خيانة . و ضربها مثلا فقال تعالى : { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ

كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ }¹.

إنه مثل ضربه الله تعالى ؛ للعبرة والاعتاظ ؛ فهو نموذج للخيانة ، ولكن أي خيانة ؟ إنها خيانة صادرة من زوجتي نبيين من أنبياء الله تعالى (نوح و لوط) عليهما السلام ، وقد جاء اللفظ القرآني يعبر عن فعلة المرأتين بلفظ الخيانة (فَخَانَتَاهُمَا) .

ذكر أهل التأويل في معنى الخيانة التي وُصِفَتْ بها زوجتي نوح و لوط عليهما السلام أقوالاً عديدة منها : أن خيانتها كانت بالكفر ، أي في مخالفتها للنبيين الكريمين في الدين إذ كانتا مشركتين ، وقيل : كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون . وكانت امرأة لوط تخبر بأضيافه ، وقيل : كانت امرأة نوح عليه السلام تطلع الكفار على أسرارهم ، فإذا آمن مع نوح عليه السلام أحد أخبرت الجابرة بذلك ، وقيل : كانتا منافقتين . وقيل : خيانتها النميمة ، إذا أوحى الله إليهما شيئا أفشناه إلى المشركين ، وقيل : كانت امرأة لوط إذا نزل به ضيف دخنت ؛ لتعلم قومها أنه قد نزل به ضيف ؛ لما كانوا عليه من إتيان الرجال².

¹ سورة التحريم ، آية 10

² انظر : الرازي ، تفسير القرآن العظيم ، (3362/10) . الطبري ، جامع البيان ، (170/28) . الماوردي ، أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري ، ت450هـ ، النكت والعيون ، المعروف بتفسير الماوردي ، راجعه وعلق عليه : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) ، (6 / 46 - 47) . القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (202/18) .

والإجماع قائم بين علماء التفسير¹ على أنه لا يُقصد بخيانة امرأتي نوح ولوط عليها السلام خيانة العرض ؛ فلم تزن امرأة نبي قط ، وإنما هي خيانة الدين ؛ وذلك لأن تصور خيانتها على أنها خيانة في العرض يُنفّر من صاحب الرسالة ، وينسب إليه النقص ، وهو ما يتعارض مع أداء الرسول وتبليغه رسالة ربه . وبغض النظر عن كيفية هذه الخيانة فهي خيانة في الدين ، فهما لم تؤمنا ، فكانت عاقبتهم الهلاك .

وقد صورت الآية الكريمة نتيجة هذه الخيانة ، (فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدّٰخِلِينَ) . أي لم يدفع نوح ولوط - مع كرامتهما على الله تعالى - عن زوجتيهما لمّا عصتا ، شيئا من عذاب الله ؛ تنبيها بذلك على أن العذاب يُدفع بالطاعة لا بالوسيلة . فأنه تعالى ضرب لنا هذا المثل ؛ تنبيها على أنه لا يغني أحد في الآخرة عن قريب ولا نسيب ، إذا فرّق بينهما الدين² .

إذن كانت نتيجة هذه الخيانة ، ما وقع على المرأتين من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة ؛ فقد نجّى الله تعالى النبيين ، وأهلك من كان كافرا من قومهما ، ولم يسلم من ذلك العذاب والإهلاك امرأتاهما ، قال تعالى : { فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ } وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ط فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ }³ . " ومعنى من الغابرين : من الهالكين⁴ .

وقال عن نوح عليه السلام : { حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ }⁵ .

¹ انظر : الماوردي ، النكت والعيون ، (46/6) . القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (202/18) . أبا حيان ، البحر المحيط ، (289/8) . الشوكاني ، فتح القدير ، (255/5) . ابن العربي ، أحكام القرآن ، (208/1) .

² انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (202/18) .

³ سورة الأعراف ، آية 83 - 84

⁴ ابن عاشور ، محمد الطاهر ، ت1393هـ ، التحرير والتنوير ، دار التونسية للنشر ، (طبعة سنة 1972م) ، (237/8) .

⁵ سورة هود ، آية 40

والذي سبق عليه القول ، وشاء الله تعالى له الشقاوة والهلاك ، امرأة نوح وابنه ، وكانا كافرين¹ .

ومن هنا يأتي الدرس البليغ ، والعبرة العظيمة من خيانة امرأتي نوح ولوط عليهما السلام ؛ وذلك بأن الرابطة هي رابطة العقيدة والإيمان ، وأن كل الروابط ما عدا هذه الرابطة لا قيمة لها من غير هذه الرابطة ، ولا تفيد صاحبها عند الله شيئا . فإذا اختلّت رابطة العقيدة فلا رابطة ، وإذا حدثت الخيانة في الدين فيجب عندئذ البراءة من الخائنين مهما كانت درجة الصلة والقربة والرابطة . وهو ما نتعلمه أيضا وفي ذات السياق من قصة نوح عليه السلام مع ولده الكافر ، وكذلك قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه ، وقصة النبي محمد صلى الله عليه وسلم مع عمه وقومه ، وكذلك فعل الصحابة الكرام . وهو ما سيأتي ذكره في علاج ظاهرة الخيانة إن شاء الله تعالى .

¹ انظر : السمرقندي ، بحر العلوم ، (150/2) . الواحدي ، الوجيز ، (520/1) . أبا السعود ، إرشاد العقل السليم ، (208/4) .

المبحث الخامس

خيانة حاطب بن أبي بلتعة¹

هذه المرة مع نموذج مختلف من الخيانة ، حيث يمثل هذا النموذج خيانة الأمة وخيانة الوطن . إنه موقف عملي بطله من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وممن شهد بدرًا . وتتلخص فعلته بقيامه بالتخابر مع قريش ، وإعلامهم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحربهم ، يوم فتح مكة ، وقد كان النبي عليه السلام قد أخفى وجهته ؛ حتى لا تعلم قريش بخبر خروجه ؛ أملاً في أن لا تراق الدماء . وبغض النظر عن ملابسات هذا الحادث وعن مسوغاته ، والأسباب التي دعت حاطباً لفعل ما فعل ، وخصوصية ومكانة الفاعل ، فإن العمل الذي قام به بحد ذاته يُعدّ عملاً خيانياً . وسيق هذا النموذج من أجل بيان الفعلة " التي هي خيانة " بغض النظر عن الفاعل الذي قام بالفعل .

قال الله تعالى في مفتح سورة الممتحنة : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي

وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ
الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ
مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ
ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ }².

وفي كون هذه الآية نزلت في حاطب جاءت الروايات الكثيرة³.

¹ هو : حاطب بن أبي بلتعة ويكنى أبا محمد ، وهو من لحم ، شهد بدر وأحد والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب إلى المقوقس صاحب الإسكندرية ، وكان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مات بالمدينة سنة 30هـ ، وهو ابن خمس وستين ، وصلى عليه عثمان رضي الله عنه . انظر : ابن سعد ، أبا عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري ، ت230هـ ، الطبقات الكبرى ، دار صادر - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) ، (114/3) .

² سورة الممتحنة ، آية 1

³ انظر : الطبري ، جامع البيان ، (58/28) . السيوطي ، لباب النقول ، (210/1) .

ثبت في الصحيحين أن الذي كتب لقریش يخبرهم بخبر خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ، هو حاطب بن أبي بلتعة . فقد أخرج البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري " عن عبيد الله بن أبي رافع ، قال : سمعت علياً رضي الله عنه يقول : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد بن الأسود ، قال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ¹ ، فإن بها طعينة² ومعها كتاب ، فخذوه منها . فانطلقنا تعادى بنا خيلنا ، حتى انتهينا إلى الروضة ، فإذا نحن بالطعينة . فقلنا : أخرجي الكتاب . فقالت : ما معي من كتاب . فقلنا : لتُخرجي الكتاب أو لنُلقين الثياب . فأخرجته من عفاصها³ . فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة ، يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا حاطب ما هذا ؟ قال : يا رسول الله لا تعجل علي ، إني كنت امرأاً مُلصقاً في قریش ، ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة ، يحمون بها أهلهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً ؛ يحمون بها قرابتي . وما فعلتُ كفراً ولا ارتداداً ولا رضياً بالكفر بعد الإسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد صدقكم . قال عمر : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق . قال : إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، قد غفرت لكم ؟⁴ .

قال ابن حجر في كتابه (فتح الباري) في بيان معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم : " وقد ظهر لي أن هذا الخطاب خطاب إكرام وتشريف ، تضمن أن هؤلاء حصلت لهم حالة غُفرت بها ذنوبهم السالفة ، وتأهلوا أن يغفر لهم ما يُستأنف من الذنوب اللاحقة . ولا يلزم من وجود الصلاحية للشيء وقوعه . وقد أظهر الله صدق رسوله في كل من أخبر عنه بشيء من ذلك ؛ فإنهم لم يزالوا على أعمال أهل الجنة إلى أن فارقوا الدنيا . ولو قُدِّر صدور شيء من أحدهم لبادر إلى التوبة ، ولازم الطريق المثلى . ويعلم ذلك من أحوالهم بالقطع من اطلع على سيرهم . ويُحتمل أن يكون المراد بقوله : فقد غفرت لكم : أي

¹ روضة خاخ : موضع بين الحرمين ، بقرب حمراء الأسد من المدينة . [ياقوت الحموي ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله ، ت 626هـ ، معجم البلدان ، دار الفكر - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) ، (335/2) .]

² الطعينة : اليهودج كانت فيه امرأة أو لم تكن . الرازي ، مختار الصحاح ، (170/1) . والمقصود هنا المرأة ، وليس اليهودج بذاته ، فإنه كان من عادة النساء عند السفر الركوب في اليهودج .

³ عفاصها : أي ضفائرها . ابن منظور ، لسان العرب ، (56/7) .

⁴ البخاري ، الجامع الصحيح المختصر ، كتاب : الجهاد والسير ، باب : الجاسوس ، حديث رقم 2845 ، (1095/3) . مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب : فضائل الصحابة ، باب : من فضائل أهل بدر ... ، حديث : 2494 ، (1941/4) .

ذنوبكم تقع مغفورة . لا أن المراد أنه لا يصدر منهم ذنب . وقد شهد مسطح¹ بدرا ، ووقع في حق عائشة² .

وفي تحقيق مسألة حاطب وفعلته قال ابن تيمية³ رحمه الله : " فإذا قوي ما في القلب من التصديق والمعرفة والمحبة لله ورسوله ، أوجب بغض أعداء الله ، كما قال تعالى : { وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ }⁴ ، وقال : { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولِيَّكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ }⁵ . وقد تحصل للرجل موادتهم ؛ لرحم أو حاجة ، فتكون ذنبا ينقص به إيمانه ، ولا يكون به كافرا ، كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي ، وأنزل الله فيه : { يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ }⁶ ... ولهذه الشبهة سمي عمر حاطباً منافقاً ؛ فقال : دعني يا رسول الله أضرب عنق عنق هذا المنافق . فقال : إنه شهد بدرا . فكان عمر متأولاً في تسميته منافقاً ؛ للشبهة التي فعلها⁷ ... ولهذا لم يكن المتهمون بالنفاق نوعاً واحداً ، بل فيهم المنافق المحض ، وفيهم من فيه

¹ هو : مسطح بن أثانة بن عباد بن المطلب بن عبد مناف ، مهاجر بدري ، ذكر في خوضه في قصة الإفك ، كان فقيراً ينفق عليه أبو بكر ، ت 34هـ . [انظر : الذهبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ، ت748هـ ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط وغيره ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، (ط9/1413هـ) ، (187/1 - 188)] .

² ابن حجر ، فتح الباري ، (635/8) .

³ هو : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني ، نزيل دمشق ، شيخ الإسلام ، وبحر العلوم ، مفسر ، وفقهه ، ومحدث ، وأصولي ، بلغ رتبة الاجتهاد المطلق ، من أهم مصنفاة : درء تعارض العقل والنقل ، منهاج السنة النبوية ، توفي سنة 728هـ ، في سجن القلعة بدمشق . انظر : ابن قدامة ، محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي ، ت744هـ ، العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق : محمد حامد الفقهي ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) ، (ص2) .

⁴ سورة المائدة ، آية 81

⁵ سورة المجادلة ، آية 22

⁶ سورة الممتحنة ، آية 1

⁷ انظر : العيني ، بدر الدين محمود بن أحمد ، ت855هـ ، عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) ، (14 / 256) .

فيه إيمان ونفاق ، وفيهم من إيمانه غالب وفيه شعبة من النفاق ... والنفاق كالكفر ، نفاق دون نفاق ؛ ولهذا ... يقال : كفر ينقل عن الملة ، وكفر لا ينقل . ونفاق أكبر ونفاق أصغر . كما يقال : الشرك شركان ، أصغر وأكبر¹ . وكذلك يقال عن الخيانة ؛ فليست جميع الخيانات في مستوى واحد ؛ فخيانة الجوارح والنفس فيما يتعلق بالمعاصي والذنوب الصغيرة ؛ مثل استراق النظر إلى الحرام ، ليست مثل خيانة الدين بالكفر ، أو خيانة الأمة بالتآمر مع الأعداء ، أو خيانة العرض بالزنا . فمن الخيانة ما يُعدّ كفراً بواحا كالكفر ، والنفاق الأكبر ، والتآمر مع الأعداء يقصد الإضرار بالمسلمين ، ومنها ما يُعدّ من كبائر الذنوب كالزنا ، ومنها ما لا يُعدّ من الذنوب الكبيرة كالنظرة المحرمة .

أما حكم من فعل مثل هذه الفعلة ، فقد لخص ابن القيم رحمه الله آراء الفقهاء في ذلك ، وهي على قولين ، ثم ذكر وجه الاستدلال لكل منهما ، ورجح ، فقال عن فعلة حاطب : " وفيها جواز قتل الجاسوس ، وإن كان مسلماً ، لأن عمر رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل حاطب بن أبي بلتعة لما بعث يخبر أهل مكة بالخبر ، ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يحل قتله إنه مسلم . بل قال : وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم . فأجاب بأن فيه مانعا من قتله ، وهو شهوده بدرا . وفي الجواب بهذا كالتبنييه على جواز قتل جاسوس ليس له مثل هذا المانع ، وهذا مذهب مالك ، وأحد الوجهين في مذهب أحمد . وقال الشافعي وأبو حنيفة : لا يقتل . وهو ظاهر مذهب أحمد . والفريقان يحتجون بقصة حاطب . والصحيح أن قتله راجع إلى رأي الإمام ؛ فإن رأى في قتله مصلحة للمسلمين قتله ، وإن كان إيقاؤه أصلح استبقاه² .

ووجه استدلال القائلين بالقتل كما هو ملاحظ هو ما طلبه عمر رضي الله عنه ، وما رد عليه به النبي صلى الله عليه وسلم ، " لأن عمر لما طلب قتله لم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم . أو يقال : لم يذكر أنه لم يوجد المقتضي لقتله ، بل ذكر المانع ، وهو شهود بدر ، فدل على وجود المقتضي ، وأنه لولا المعارض لعمل به³ . ف " قوله إنه قد شهد بدرا ، ظاهر هذا أن العلة في

¹ ابن تيمية ، (مجموع الفتاوى) ، (522/7-524) .

² ابن القيم ، محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي ، ت751هـ ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط وغيره ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، (ط1407/14هـ) ، (422/3 - 423) .

³ المقدسي ، أبو عبد الله محمد بن مفلح ، ت763هـ ، الفروع وتصحيح الفروع ، تحقيق : أبو الزهراء حازم القاضي ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (ط1418/1هـ) ، (114/6) . وانظر : زين الدين ، أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي ، ت795هـ ، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، (ط1417/7هـ) ، (ص129) .

في ترك قتله كونه ممن شهد بدرا ، ولولا ذلك لكان مستحقا للقتل ، ففيه متمسك لمن قال إنه يُقتل الجاسوس ولو كان من المسلمين ¹. وقد نقل القرطبي رحمه الله القول بقتله فقال : وقال عبد الملك : إذا كانت عادته تلك قُتِل ؛ لأنه جاسوس . وقد قال مالك بقتل الجاسوس ، وهو صحيح ؛ لإضراره بالمسلمين وسعيه بالفساد في الأرض ². قال القرافي ³ : " قال ابن القاسم : يُجْتَهَد في الجاسوس ، وأرى أن تُضْرَب عنقه ، ولا نعلم له توبة ... ، ويتخير الإمام بين قتله وصلبه ؛ لسعيه في الأرض بالفساد دون النفي والقطع ؛ لبقاء الفساد معهما ... قال المازري ⁴ : إذا كان الجاسوس مسلما ، فقيل : يقتل ، واختلف في قبول توبته . وقيل : إن ظن به الجهل وكان منه المرة ، نُكِل . وإن كان معتادا قُتِل . وقيل : يُجلد جلدا منكلا ، ويُطال سجنه بمكان بعيد من المشركين ⁵ ."

وفي المقابل هناك من يرى أن فعلة حاطب تدل على عدم جواز قتل الجاسوس المسلم ، بل يُكْتَفَى بتعزيزه ⁶ ، فقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله في بيان فعلة حاطب ، وحكمها أن حاطبا " من لحم ، وكان نازلا بمكة ، وليس من أهلها ، فهاجر ، وترك أهله هنالك ، فتقرب إلى القوم ليحفظوه في أهله ، بأن أطلعهم على بعض أسرار رسول الله صلى الله عليه وسلم في كيدهم وقصد قتالهم ، وعلم أن ذلك لا يضر رسول الله ؛ لنصر الله عز وجل إياه . وهذا الذي فعله أمر يحتمل التأويل ؛ ولذلك استعمل رسول الله حسن الظن ، وقال في بعض الألفاظ : إنه قد صدقكم . وقد دل هذا الحديث على أن حكم المتأول في استباحة المحظور خلاف حكم المتعمد

¹ الشوكاني ، محمد بن علي بن محمد ، ت 1250هـ ، نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار ، دار الجيل - بيروت ، (طبعة سنة 1973 م) ، (155/8) .

² القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (53/18) . وانظر : ابن تيمية ، أبو العباس أحمد بن عبد الحلِيم بن تيمية الحراني ، ت 728هـ ، الفتاوى الكبرى ، قدم له : حسنين محمد مخلوف ، دار المعرفة - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) ، (4 / 603) .

³ هو : أحمد بن إدريس المالكي العالم الشهير الأصولي الشيخ الإمام شهاب الدين القرافي الصنهاجي الأصل ، أصله من صعيد مصر ، كان إماما في أصول الدين وأصول الفقه ، عالما بمذهب مالك ، من مصنفاته : القواعد ، والذخيرة ، وغيرها ، توفي في جمادى الآخرة سنة 84هـ . الذهبي ، أبا عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ، ت 748هـ ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي - لبنان ، (ط 1/1407هـ) (176/51 - 177) .

⁴ هو : محمد بن علي بن عمر التميمي ، من أهل إفريقية ، ويعرف بالإمام ، أفقه فقهاء المالكية في زمانه ، توفي سنة 536هـ . ابن فرحون ، الديباج المذهب ، (279/1 - 281) .

⁵ القرافي ، شهاب الدين أحمد بن إدريس ، ت 682هـ ، الذخيرة ، تحقيق : محمد حجي ، دار الغرب - بيروت ، (طبعة سنة 1994م) ، (400/3) .

⁶ انظر : القاري ، علي بن سلطان محمد ، ت 1014هـ ، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، تحقيق : جمال عيتاني ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (ط 1/1422هـ) ، (464/7) .

لاستحلاله من غير تأويل ، ودل على أن من أتى محظورا ، أو ادعى في ذلك ما يحتمل التأويل ، كان القول قوله في ذلك ، وإن كان غالب الظن بخلافه . وقول عمر : ... دعني أضرب عنق هذا المنافق ؛ وهذا لأنه رأى صورة النفاق . ولما احتتم قول عمر ، وكان لتأويله مساغ ، لم ينكر عليه الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد دل هذا الحديث على أن الجاسوس المسلم لا يقتل ¹.

والذي يترجح لي والله أعلم أن الأمر فيه تفصيل وضوابط تتعلق بطبيعة الفعل ، وطبيعة الفاعل ، وفيما إذا كان الجاسوس قام بفعل واحد ، أو أفعال كثيرة ، أو كان يأتمر بأمر الأعداء ، وينفذ لهم كل ما يأمرونه به ، وكذلك كون ما قام به الجاسوس قد تسبب في فتنة ، أو حرب ، أو قتل لأبرياء ، أو فعل ما يوجب حداً ، أو كان نقله الأخبار للأعداء ألحق أضراراً بالغة بالمسلمين ، أو غير ذلك . وكذلك عزم هذا الجاسوس على التوبة ، أو عدم ذلك ، له علاقة بطبيعة العقوبة التي تقع عليه ، وعليه فإن طبيعة العقوبة التي تقع على الجاسوس يحددها الإمام .

وهو ما رجحه ابن القيم رحمه الله ، وما ذكره الإمام مالك رحمه الله عندما " سئل عن الجاسوس من المسلمين يُؤخذ وقد كاتب الروم ، وأخبرهم خبر المسلمين ؛ فقال : ما سمعت فيه بشيء ، وأرى فيه اجتهاد الإمام ² .

وختاماً لهذا الفصل لا بد من الإشارة إلى أن هذه النماذج الخيانية التي ذكرها القرآن الكريم لا تزال ماثلة في أيامنا ، وهي موجودة في كل زمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فأهل الكتاب لا يزالون على خيانتهم التي وصفهم الله تعالى بها ، ولا يزال هناك من يمارس خيانة العرض التي وقعت فيها امرأة العزيز من قبل ، وما أكثر من يخون أمته ووطنه ، ويتخابر مع أعداء هذه الأمة كما فعل حاطب في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، ومن هنا تبرز أهمية هذه الدراسة .

¹ ابن الجوزي ، كشف المشكل ، (141/1 - 142) .

² العبدري ، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن أبي القاسم ، ت897هـ ، التاج والإكليل لمختصر خليل ، دار الفكر - بيروت ، (ط2/1398هـ) ، (357/3) . وانظر : الثعلبي ، أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر ، ت422هـ ، التلقين في الفقه المالكي ، تحقيق : محمد ثالث سعيد الغاني ، المكتبة التجارية - مكة المكرمة ، (ط1/1415هـ) ، (245/1) .

الفصل الرابع الخيانة من خلال آيات النفاق

المبحث الأول : بيان صفات وأفعال الخائنين

المبحث الثاني : عاقبة الخيانة

المبحث الثالث : منهج القرآن الكريم في معالجة ظاهرة الخيانة

لا بد في بداية هذا الفصل من بيان العلاقة بين الخيانة والنفاق . وقد تمت الإشارة سابقا إلى هذه العلاقة في مبحث نظائر الخيانة في القرآن الكريم ، ولمزيد من التأكيد والبيان أقول : إن النفاق هو الاسم الإسلامي للخيانة ، وهو اسم لمن خان من المسلمين . فالخيانة أعم وأشمل من النفاق ، فهي لفظة معروفة قبل الإسلام وبعده ، بخلاف النفاق . والخيانة إذا أطلقت شملت النفاق ، فالنفاق من الخيانة . وكما أن النفاق درجات ومستويات ، فكذا الخيانة ليست كلها على درجة واحدة . فنفاق العقيدة (النفاق الأكبر) هو خيانة المسلم لدينه وهو (خيانة عظيمة) ، وقد سبق الحديث عن خيانة الدين في فصل أنواع الخيانة في القرآن الكريم . ونفاق العمل أو النفاق الأصغر الذي ورد ذكره في حديث النبي عليه الصلاة والسلام ، كما رواه عنه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : " أربَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خُصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خُصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَّعَاهَا : إِذَا أُوتِمْنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذِبًا ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ "1، هذا الحديث يذكر أعمالا هي من أعمال المنافقين ، وهي كذلك من أعمال الخائنين ؛ فالنفاق بالأمانة من أعمال النفاق ، وهي كذلك من أعمال الخيانة ، وقد سمي النبي عليه الصلاة والسلام بالنفاق بالأمانة خيانة ، فقال : " إِذَا أُوتِمْنَ خَانَ " ، وكذلك باقي الأعمال والصفات ، كالكذب في الحديث الذي يستلزمه كلُّ عمل خياني ، والغدر في العهد ، والفجور في الخصومة ، وغير ذلك من الصفات ، فهي من صفات وأفعال الخائنين على مدى الدهر والزمان .

يقول الراغب مقارناً بين الخيانة والنفاق : " الخيانة والنفاق واحد ، إلا أن الخيانة تُقال اعتباراً بالعهد والأمانة ، والنفاق يُقال اعتباراً بالدين ، ثم يتداخلان ؛ فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر ، ونقيض الخيانة : الأمانة "2. هذه المقارنة أخذت بالاعتبار أن الخيانة هي خيانة العهود والأمانات فقط ، مع أن الخيانة جاءت في القرآن الكريم على معانٍ متعددة 3.

وقد سمي الله تعالى النفاق خيانة ؛ فقال ينهى المسلمين عن النفاق (الخيانة) : {يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا لَا يَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَخَوْنُوا أَمْنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }4.

يقول الإمام الطبري رحمه الله : " وخيانتهم الله ورسوله كانت بإظهار من أظهر منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الإيمان في الظاهر والنصيحة ، وهو يستسر الكفر والغش

¹ البخاري ، الجامع الصحيح المختصر ، كتاب : الإيمان ، باب : علامة المنافق ، حديث : 34 ، (21/1) .

² الراغب ، المفردات ، (ص 163) .

³ انظر : ص 18 - 26

⁴ سورة الأنفال ، آية 27

لهم في الباطن .. "1. وقد تقدم القول في أن هذه الآية نزلت أحد المنافقين². كما أن قوله تعالى : {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا}3 فيه دلالة أخرى على أن النفاق خيانة ؛ وذلك أن الخائنين المذكورين هم المنافقون ، وقد اتضح ذلك من خلال سبب نزول الآية ، إذ نزلت في المنافق طعمة بن أبيرق . وقد سماه الله تعالى خائناً ، كما في قوله تعالى بعد ذلك بآيتين : {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا}4. فالخوان في الآية هو المنافق المذكور طعمة بن أبيرق⁵. فإذا كان الله تعالى قد سمى المنافق خائناً ، وكذا سماه النبي عليه الصلاة والسلام ، فلا حرج أن يتم التعامل مع المنافقين باسم الخائنين .

وقد خصّص القرآن الكريم مساحة واسعة للحديث عن ظاهرة النفاق (نفاق الكفر أو النفاق الأكبر) ، فذكر صفات المنافقين وأفعالهم ، وذكر مصيرهم ومآلهم في الدنيا والآخرة ، كما أرشد إلى كيفية التعامل معهم ، وقد ذكّرتُ في منهجية هذا البحث أهمية الاستفادة من الآيات الواردة بشأن النفاق في إثراء موضوع الخيانة ؛ لأن النفاق من الخيانة ، ولأن الحديث عن الخيانة في المجتمع الإسلامي هو أهم ما تهدف إليه هذه الدراسة . وسيكون الحديث عن ذلك في ثلاثة مباحث على النحو الآتي :

¹ الطبري ، جامع البيان ، (221/9) .

² انظر : ص 19

³ سورة النساء ، آية 105

⁴ سورة النساء ، آية 107

⁵ انظر : ص 21

المبحث الأول بيان صفات وأفعال الخائنين

ورد في القرآن الكريم الكثير من صفات الخائنين وأفعالهم ، وذلك في سياق الآيات التي تحدثت المنافقين ؛ وذلك حرصاً على معرفتهم وتمييزهم وعدم الانخداع بهم ، وسيعرض هذا البحث لأهم هذه الصفات والأفعال ، وذلك في أربعة مطالب على النحو الآتي .

المطلب الأول : بيان صفات الخائنين

أولاً : الكيد والتآمر في الخفاء

يقول الله تعالى في وصف الخائنين : { يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا }¹. وجاء هذا الوصف بعد التحذير منهم ، فقد جاء في الآية السابقة لها : { وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا }².

" يعني جل ثناؤه بقوله : (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ) : يستخفي هؤلاء الذين يختانون أنفسهم ما أتوا من الخيانة وركبوا من العار والمعصية ، (مِنَ النَّاسِ) الذين لا يقدرّون لهم على شيء ، إلا ذكرهم بقبيح ما أتوا من فعلهم ، وشنيع ما ركبوا من جرمهم إذا اطلعوا عليه ، حياء منهم وحذراً من قبيح الأحداث . (وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ) الذي هو مطلع عليهم ، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ، ويبيده العقاب والنكال وتعجيل العذاب ، وهو أحق أن يستحي منه من غيره ، وأولى أن يعظم بأن لا يراهم حيث يكرهون أن يراهم أحد من خلقه . (وَهُوَ مَعَهُمْ) ، يعني : والله شاهدهم . (إِذْ يُبَيِّتُونَ³ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ) ، يقول : حين يسوون ليلاً ما لا يرضى

¹ سورة النساء آية 108

² سورة النساء ، آية 107

³ التبييت هو : كل كلام أو أمر أصحح بليل . الطبري ، جامع البيان ، (271/5) .

من القول ، فيغيرونه عن وجهه ، ويكذبون فيه "1. و " الضمير في { يَسْتَخْفُونَ } ، الظاهر أنه يعود على الذين يختانون² ، وفي ذلك توبيخ عظيم ، وتقريع ، حيث يرتكبون المعاصي مستترين بها عن الناس إن اطلعوا عليها ، ودخل معهم في ذلك من فعل مثل فعلهم ، وقيل : الضمير يعود على الصنف المرتكب للمعاصي ، ويندرج هؤلاء فيهم ، وهم أهل الخيانة المذكورة ، والمتاصرون لهم ، وقيل : يعود على (مَنْ) باعتبار المعنى ، وتكون الجملة نعتا . { وَهُوَ مَعَهُمْ } : أي عالمٌ بهم ، مطلعٌ عليهم ، لا يخفى عنه تعالى شيء من أسرارهم³ . يقول الزمخشري رحمه الله : " وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم عليه من قلة الحياء والخشية من ربهم ، مع علمهم - إن كانوا مؤمنين - أنهم في حضرته ، لا ستره ، ولا غفلة ، ولا غيبة ، وليس إلا الكشف الصريح والافتضاح⁴ . " وجمهور العلماء أن المشار إليه بالاستخفاء والتبويت ، قوم طعمة⁵ . فهم إذن يخططون ويمكرون للإيقاعها بعباد الله تعالى ، ولا يجرؤون على المجاهرة بمكرهم هذا ، ولا يستطيعون إظهاره للعلن ، إنهم يحسنون الطعن من الخلف ، وهذا دأب الخائنين في كل عصر وزمان .

" وهي صورة زرية ، داعية إلى الاحتقار والسخرية ، زرية بما فيها من ضعف والتواء ، وهم يبيتون ما يبيتون من الكيد والمؤامرة والخيانة ، ويستخفون بها عن الناس ، والناس لا يملكون لهم نفعاً ولا ضراً ، بينما الذي يملك النفع والضرر معهم وهم يبيتون ما يبيتون ، مطلع عليهم وهم يخفون نياتهم ويستخفون ، وهم يزورون من القول ما لا يرضاه . فأى موقف يدعو إلى الزرابة والاستهزاء أكثر من هذا الموقف ؟ "6.

¹ الطبري ، جامع البيان ، (271/5) .

² انظر : الآلوسي ، روح المعاني ، (141/5) .

³ أبو حيان ، البحر المحيط ، (360/3) .

⁴ الزمخشري ، الكشاف ، (596/1) .

⁵ ابن الجوزي ، زاد المسير ، (193/2) .

⁶ قطب ، في ظلال القرآن ، (516/5 - 517) .

وهذا التبييت والتزوير والتأمر هو ما وصف الله تعالى به الخائنين ، قال سبحانه وتعالى :

{ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا }¹.

فإنه تعالى يخبر عن هؤلاء الخائنين " بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة ، ... والمعنى في هذا التهديد أنه تعالى يخبر بأنه عالم بما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم ، وما ينفقون عليه ليلا من مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم وعصيانه ، وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة ، وسيجزئهم على ذلك"².

وهذا التأمر ، وهذه الخيانة ، وهذا التدبير في الخفاء ، هو ما تبرأ منه يوسف عليه السلام ،

كما ذكر الله تعالى على لسانه : { ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ

الْخَائِبِينَ }³. وهذا القول قاله يوسف عليه السلام كما قال جمهور المفسرين⁴ . أي : ذلك التثبت والتأكيد ؛ ليعلم العزيز أني لم أخنه بظهر الغيب⁵. وسواء كان القول قول يوسف عليه السلام ، أو قول امرأة العزيز ، ما يهمنا هنا الشاهد في الآية : (الخيانة بالغيب) والاستتار عند فعلها ، وهو ما يلجأ إليه أهل الخيانة في كل عصر وزمان .

وهم كذلك يخافون افتضاح أمرهم ، ويحرصون على التستر والظهور بغير مظهرهم

الحقيقي ؛ لئلا ينكشف حالهم للمؤمنين ، وهو ما وصف الله تعالى به حال الخائنين في قوله :

{ تَحَدَّرُ الّٰمْنٰفِقُونَ اَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُوْرَةٌ تُتَبِّعُهُمْ بِمَا فِيْ قُلُوْبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوْا اِنَّ

¹ سورة النساء ، آية 81

² ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، (530/1) .

³ سورة يوسف ، آية 52

⁴ للمفسرين قولين في الذي قال { ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي } ، فذهب فريق إلى أنه يوسف عليه السلام ، وهو ما عليه جمهور

المفسرين ، وذهب فريق إلى أنه قول امرأة العزيز . انظر : الطبري ، جامع البيان ، (238/12) . القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (209/9) . الشوكاني ، فتح القدير ، (34/3) .

⁵ انظر : البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (294/3) .

اللَّهِ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ¹ . ولذلك تجدهم : { يُرْضُونَكَ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ
وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ² } ، و { مُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ³ } .

ويبالغون في ذلك الاستتار بالحلف الكاذب ؛ قال تعالى فيهم : { اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً
فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ⁴ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } ، و (جنة) يعني : وقاية يحفظون بها
أموالهم ودماءهم ، ويحققون من خلالها مآربهم وأهدافهم⁵ .
والحلف الكاذب من بضاعتهم ؛ قال تعالى فيهم : { وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا
مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ⁶ } .

ولا شك في أن الله تعالى الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء لا تخفى
عليه خيانة مهما دقت ، قال تعالى : { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ⁷ } . فالله تعالى
تعالى مطلع على حالهم ، لا يخفى عليه شيء من أمرهم ، وهو لا شك فاضحهم ، وكاشف
الستار عنهم ، في الدنيا وفي الآخرة ، يوم يقفون أمام الله تعالى ، لا تخفى منهم خافية .

ثانياً : استبدال الهدى بالضلال

من طبيعة حال الخائنين استبدال الهدى وطريق الحق بالضلال والانحراف واتباع سبيل
الشيطان . فهم قد باعوا دينهم بثمن بخس ، واستبدلوا الآخرة بدنيا زائلة . بل إن بعضهم باع
آخرته بدنيا غيره . وحالهم هذه قد وصفها الله تعالى لنا في كتابه العزيز ، بقوله تعالى :

¹ سورة التوبة ، آية 64

² سورة التوبة ، آية 8

³ سورة آل عمران ، آية 154

⁴ سورة المنافقون ، آية 2

⁵ انظر : الواحدي ، الوجيز ، (1078/2) . النسفي ، مدارك التنزيل ، (227/4) .

⁶ سورة التوبة ، آية 42

⁷ سورة غافر ، آية 19

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَّحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ }¹.

وكيف تربح تجارة من اشترى الضلال ودفع ثمنه من دينه ومبادئه ؟ فهم قد استحبوا وفضلوا ظلام الضلال على نور الهدى والإيمان ، كما قال تعالى : { فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ }².

وقد جاء وصفهم بالضلال لاختيارهم طريق الخيانة والانحراف في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى : { فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فَعْتَيْنَ ۗ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ۗ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا }³، والاستفهام في الآية " للتقريع والتوبيخ ، وفيه دليل على أن من أضله الله لا تتجع فيه هداية البشر "⁴. فهم قد استبدلوا بطهر الإيمان دنس الطغيان ، وبرضى الله رضى الناس ، وبسلامة الصدر وساوس الشيطان ، وبالانتماء لدينهم وأمتهم الانتماء لشياطينهم ولأعداء أمتهم . بل قد استبدلوا بالآخرة الدنيا ، وبالنعيم الأبدي العذاب الأليم . أعاذنا الله منهم ومن أفعالهم .

ثالثاً : الاعتزاز بالنفس

بين الله تعالى حال الخائنين وما هم عليه من الفسق والفجور ، ونسيان الله تعالى كما قال تعالى فيهم : { الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ

الْفَاسِقُونَ }⁵. ولكن الخطورة في الأمر أن هذه الحال التي هم عليها إنما هي بقناعة منهم ؛ فهم مغترون بأنفسهم ، يحسبون أنفسهم على الحق ، ويظنون بالله ظن السوء ، ويأمنون مكر الله تعالى . والخطورة تكمن في أن ما يمارسونه من أعمال الخيانة والغدر إنما هو في اعتقادهم

¹ سورة البقرة ، آية 16

² سورة فصلت ، آية 17

³ سورة النساء ، آية 88

⁴ الشوكاني ، فتح القدير ، (495/1) .

⁵ سورة التوبة ، آية 67

عمل جيد ، فهو يتوافق مع خبث اعتقاداتهم ، وسوء طويتهم . فإن ترافق ذلك مع تخفيهم واستتارهم فإن شرهم مستطير وخطرهم لا شك عظيم .

فهم من اغتزارهم بأنفسهم لا يحسنون الظن بالله تعالى ؛ قال تعالى عنهم : { وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ }¹ . " أي يظنون بالله غير الظن الحق الذي يحق أن يظن به . وظن الجاهلية : .. وهو الظن المختص بالملة الجاهلية وأهلها "² . ويقول تعالى أيضا في وصف المنافقين والمشركين معا : { وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَالظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنِّ السَّوِّءِ }³ ، فهم يظنون أن الله لن ينصر دينه ، وأن أهل الباطل ستكون لهم الدائرة على أهل الحق ⁴ .

وقد ذكر الله تعالى قولهم عن المؤمنين الصادقين الثابتين في مواجهة أعدائهم على الرغم من قلة العدد والعتاد : { إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }⁵ ، فحساباتهم دنيوية ، يعتقدون أن الغلبة لا تكون إلا بكثرة العدد والعتاد ؛ وذلك لضعف إيمانهم وثقتهم بالله تعالى . و يظنون أنفسهم على الحق ، وأن ما يعتقدونه هو الصواب ؛ كما قال الله تعالى عن الكافرين : { بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ }⁶ ، أي " تمويههم فتخلوا بأبطال ثم خالوها حقا "⁷ . فهم من غيهم وطغيانهم وتغريب الشيطان بهم ، يأمنون مكر الله . ولا يأمن مكر

¹ سورة آل عمران ، آية 154

² البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (105/2) .

³ سورة الفتح ، آية 6

⁴ انظر : السعدي ، تيسير الكريم الرحمن ، (ص791) .

⁵ سورة الأنفال ، آية 49

⁶ سورة الرعد ، آية 33

⁷ البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (332/3) .

الله إلا القوم الخاسرون . كما قال تعالى : { أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا
الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ }¹.

وقد وصفهم الله تعالى بالتردد والتشكك ، فليس عندهم يقين بالله تعالى ، وفي نفوسهم شك
بنبوة محمد عليه السلام . قال تعالى : { يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ
أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ }².
وقد جاء في معنى (وارتبتم) أي : " شككتم في نبوته ، وفيما أوعدكم به "³.

ويظهر هذا التردد والشك عندهم جليا في المواقف التي تتطلب الشجاعة والتضحية ؛ يقول
تعالى : { إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ
فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ }⁴. يستأذنونك : أي في التخلف عن القتال ، وذكر أوصافهم (لا
يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وارتابت قلوبهم) أي : شكوا في دينهم ، فهم في ريبهم يترددون ،
أي : في شكهم يتمادون ⁵.

وهم كذلك يائسون قانطون من رحمة الله ، قال تعالى : { وَإِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا }⁶.

نزلت يوم الأحزاب في المنافقين الذين قالوا : بعدنا محمد فتح قصور الشام وفارس ، وأحدنا لا
يستطيع أن يجاوز رحله ، هذا والله الغرور⁷.

¹ سورة الأعراف ، آية 99

² سورة الحديد ، آية 14

³ البغوي ، معالم التنزيل ، (296/4) .

⁴ سورة التوبة ، آية 45

⁵ انظر الواحدي ، الوجيز ، (466/1) .

⁶ سورة الأحزاب ، آية 12

⁷ انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ، (56/3-57) . البغوي ، معالم التنزيل ، (516/3) . البيضاوي ، أنوار

التنزيل ، (366/4) .

رابعاً : الحقد على المؤمنين

يقول الله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِيَدَانِي مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا
وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَد بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِن أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ
الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَاتَيْتُمْ أَوْلَاءَهُمْ وَلَا تَحِبُّوا لَهُمْ وَلَا تَجِئُوا بِهِمْ بِالْكِتَابِ
كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا
بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمَسَّسْتُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِن تُصِيبْكُمُ
سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا
يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝١.

في هذه الآيات فضح لما تكنه نفوس الخائنين للمؤمنين في كل زمان ، وتحذير شديد من
الاعتزاز بهم وبظاهر حالهم ، فهم يرضون المؤمنين بأفواههم ، وتأبى قلوبهم ، هذه القلوب التي
ملئت حقدا وكرها وبغضا ، حتى جعلتهم يتربصون بالمؤمنين الدوائر ، ويتمنون وقوع الشر
بهم . قال تعالى : { الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ
وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ
يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا }² .

وهذه الأحقاد التي تملأ قلوبهم ، لا بد ستتكشف ، ويظهرها الله تعالى ، مهما حاولوا عدم
إظهارها . يقول تعالى فيهم : { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن نُخْرِجَ اللَّهَ
أَصْغَنَهُمْ ﴿١٢٠﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمُھُمْ فَلَعَرَفْتُهُمْ بِسِيمَاهُمْ ۗ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۗ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ }³ . أي " أحسب هؤلاء المنافقون الذين في قلوبهم شك في دينهم ،

¹ سورة آل عمران ، الآيات 118-120

² سورة النساء ، آية 141

³ سورة محمد ، آية 29-30

وضعف في يقينهم ، فهم حيارى في معرفة الحق ، أن لن يخرج الله ما في قلوبهم من الأضغان على المؤمنين ؛ فيبيديه لهم ويظهره ؛ حتى يعرفوا نفاقهم ، وحيرتهم في دينهم¹ حتى طريقتهم في الكلام لا تخفى على أهل الفراسة والكياسة والفتنة من المؤمنين ، الذين لا يغرهم ظاهر ما يرونه من حال هؤلاء .

خامساً : اتصافهم بالمزيد من الصفات الخبيثة والسيئة

وصف الله تعالى هذه الفئة الخائنة بأوصاف عديدة ؛ حتى يميظ اللثام عنها ويعريها ، فلا يبقى على أصحابها شيء يستترهم ، وتتكشف سوءاتهم ، فلا تعود دسائسهم وحيلهم ومكائدهم تنطوي على أحد . ومن هذه الأوصاف : الجبن والبخل والجهل والكذب وغيرها .

فقد ذكر الله تعالى جنبهم وخوفهم ، فقال تعالى : { تَحَسَّبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ }² . " أي كلما صاح صائح ظنوا أن ذلك لأمر عليهم . ويقال : إن كل من خاطب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يخافون ويظنون أنه مخاطب يخاطبه في أمرهم وكشف نفاقهم³ .

وليس هناك أبلغ من الوصف الذي وصف الله تعالى به حالتهم النفسية عند الأمر بمواجهة الكفار ، قال تعالى : { وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ }⁴ . " أي من فرعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء⁵ .

¹ الطبري ، جامع البيان ، (60/26) .

² سورة المنافقون ، آية 4

³ السمرقندي ، بحر العلوم ، (429/3) .

⁴ سورة محمد ، آية 20

⁵ ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، (179/4) .

وهم بجبنهم وتخلفهم عن القتال فرحون ، وبقعودهم مع الخالفين راضون . قال تعالى
يصف حالهم : { فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ
كَانُوا يَفْقَهُونَ }¹.

" إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة ، وطراوة الإرادة ، وكثيرون هم الذين يشفقون من
المتاعب ، وينفرون من الجهد ، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم ، ويفضلون
السلامة الذليلة على الخطر العزيز . وهم يتساقطون إعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة
العارفة بتكاليف الدعوات . ولكن هذه الصفوف تظل في طريقها المملوء بالعقبات والأشواك ؛
لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة في الإنسان ، وأنه ألد وأجمل من القعود
والتخلف والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال "².

وقال تعالى في جبنهم أيضا : { لَوْ تَحَدُّونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ
تَجْمَحُونَ }³. " إنهم جبناء . والتعبير القرآني يرسم لهذا الجبن مشهدا ويجسمه في حركة .
حركة النفس والقلب ، يبرزها في حركة جسد وعيان : { لَوْ تَحَدُّونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَاتٍ أَوْ
مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ تَجْمَحُونَ } . فهم منتظعون أبدا إلى مخابأ يحتمون به ، ويأمنون
فيه ، حصنا أو مغارة أو نفقا ، إنهم مذعورون مطاردون ، يطاردهم الفرع الداخلي والجبن
الروحي "⁴.

والبخل من صفاتهم أيضا ، قال تعالى فيهم : { وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ
فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ خِلَوْا بِهِ

¹ سورة التوبة ، آية 81

² قطب ، في ظلال القرآن ، (264/10) .

³ سورة التوبة ، آية 57

⁴ قطب ، في ظلال القرآن ، (239/10) .

وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ }¹.

" من المنافقين من عاهد الله لئن أنعم عليه ورزقه ، ليبذلن الصدقة ، وليصلحن العمل . ولكن هذا العهد إنما كان في وقت فقره وعسرته ، في وقت الرجاء والطمع ، فلما استجاب الله له ورزقه من فضله نسي عهده ، وتكرر لوعده ، وأدركه الشح والبخل فقبض يده ، وتولى معرضاً عن الوفاء بما عاهد ، فكان هذا النكث بالعهد مع الكذب على الله فيه سبباً في التمكين للنفاق في قلبه ، والموت مع هذا النفاق ، ولقاء الله به "².

وإذا كان إخلاف العهد من شيمهم وصفاتهم وعاداتهم ، فإنهم يُخلفونه مع الله تعالى كما يخلفونه مع الناس ، وهم يخلفون عهدهم في كل أمر مهما دق ، خاصة إذا كان في الوفاء بهذا العهد والوعد تكاليف تترتب عليهم ، أو بذل يبذلونه ، كما في الوفاء بعهد الإنفاق في سبيل الله . والذي هذه صفاته لا بد أن يكون قد شعث النفاق في قلبه ، قال عليه الصلاة والسلام : (آية المنافق ثلاثٌ : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان)³.

وقد قال الله تعالى في بخلهم : { وَمَا مَنَعُهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ }⁴.
 " فهم لا ينفقون أموالهم إلا وهم كارهون ، ولا ينفقونها طوعاً ؛ لأنهم يعدون إنفاقها وضاع لها في مضيعة ؛ لعدم إيمانهم بما وعد الله ورسوله "⁵.

وقد عقت بعض الآيات التي ذكرت صفات هذه الفئة وأعمالها ، بذكر جهلهم ، الذي هو أيضاً سبب من أسباب صدور هذه الأعمال والأقوال منهم ، قال تعالى : { هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ

¹ سورة التوبة ، الآيات 75 - 77

² قطب ، في ظلال القرآن ، (10/258) .

³ البخاري ، الجامع الصحيح المختصر ، كتاب : الأدب ، باب : قول الله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ

وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } ، حديث رقم 5744 . (2262/5) . ومسلم ، صحيح مسلم ، كتاب : الإيمان ، باب : بيان خصال المنافق ، حديث رقم 59 ، (1/78) .

⁴ سورة التوبة ، آية 54

⁵ الشوكاني ، فتح القدير ، (2/369) . وانظر : جوهرى ، طنطاوي ، ت1358هـ ، الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، المكتبة الإسلامية - بدون بلد النشر ، (ط3/1974م) ، (5/136) .

لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ۗ وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ }¹. " هؤلاء المنافقون كانوا يقولون للأَنْصار : لا تنفقوا على
من عند رسول الله من المهاجرين الفقراء حتى يتفرقوا عنه ، ولكن ما أشد جهلهم ! ألا يعرفون
أن خزائن السموات والأرض بيد الله ، يعطيها من يشاء ؟ ولكن المنافقين لا يفهمون هذه
الحقائق "². وقال تعالى في الآية التالية : { يَقُولُونَ لِنِ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا
الْأَعْرُضُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا
يَعْلَمُونَ }³. لا يعلمون " من فرط جهلهم وغرورهم "⁴.

وقد ورد قول الله تعالى فيهم بصيغة الاستفهام الإنكاري والتوبيخي على جهلهم هذا ، فقال
تعالى : { فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا }⁵. " أي لا يفهمون حديثنا بالكلية
بالكلية ولا يقربون من فهمه ، أو لا يفهمون منه إلا فهما ضعيفا ، وعلى كل فهو ذم لهم ،
وتوبيخ على عدم فهمهم وفقههم عن الله وعن رسوله ، وذلك بسبب كفرهم وإعراضهم "⁶.

والكذب أيضا من صفاتهم ، والله تعالى يشهد على ذلك بنفسه قال تعالى : { إِذَا

جَاءَكَ الْمُنْفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ۗ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ

¹ سورة المنافقون ، آية 7

² طبارة ، عفيف عبد الفتاح ، روح القرآن الكريم تفسير جزء قد سمع ، دار العلم للملايين ، (بدون طبعة ولا سنة ولا بلد نشر) ، (ص94-95) .

³ سورة المنافقون ، آية 8

⁴ البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (343/5) .

⁵ سورة النساء ، آية 78

⁶ السعدي ، تيسير الكريم الرحمن ، (ص189) .

الْمُنْفِقِينَ لَكَذِبُونَ¹، مع أن ظاهر كلامهم الإيمان والإسلام والصلاح ، إلا أن الله تعالى كذبهم بما قالوا ؛ لأنهم كانوا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم² .
وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام بصفاتهم ، والتي منها الكذب ، أخرج البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أربعٌ من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خُصلةٌ منهن كانت فيه خُصلةٌ من النفاق حتى يدعها : إذا أُؤْتِمِنَ خانَ ، وإذا حدثَ كذبَ ، وإذا عاهدَ غدرَ ، وإذا خاصمَ فجرَ"³ .
وكيف يمكن أن يتصفوا بالصدق وهم الأحوج إلى الكذب لإخفاء مكرهم وكيدهم وتأميرهم على الإسلام والمسلمين ؟

والغفلة والكسل من صفاتهم أيضا ، فهم لا يؤدون العبادة إلا رياء الناس ، ولا يذكرون الله إلا قليلا . قال تعالى : { إِنَّ الْمُنْفِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا }⁴ .

" هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها ، وهي الصلاة . إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها ؛ لأنهم لا نية لهم فيها ، ولا إيمان لهم بها ، ... (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) : هذه صفة ظواهرهم ، كما قال : { وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى }⁵ . ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة ، فقال : (يراءون الناس) ، أي لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله ، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة . ولهذا يتخلفون كثيرا عن الصلاة التي لا يُرون فيها غالبا ، كصلاة العشاء وقت العتمة ، وصلاة الصبح في وقت الغلس⁶ . كما ثبت في

¹ سورة المنافقون ، آية 1

² انظر : الكلبى ، محمد بن أحمد بن محمد الغرناطى ، ت741هـ ، التسهيل لعلوم التنزيل ، دار الكتاب العربى - لبنان ، (ط4/1403هـ) ، (121/4) .

³ البخاري ، الجامع الصحيح المختصر ، كتاب : الإيمان ، باب : علامة المنافق ، حديث : 34 ، (21/1) .

⁴ سورة النساء ، آية 142

⁵ سورة التوبة ، آية 54

⁶ ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، (569/1) .

الصحيحين - واللفظ للبخاري - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء . ولو يعلموا ما فيهما لأتوهما ولو حبوا)¹ . فهم " إنما يصلون تسترًا وتكلفًا ، وينبغي للمؤمن أن يتحرز من هذه الخصلة ، التي ذمَّ المنافقون ، وأن يقبل إلى صلاته بنشاط ، وفراغ قلب ، وتمهل في فعلها ، ولا يتقاعس عنها ، فعل المنافق الذي يصلي على كرهه ، لا عن طيب نفس ورغبة . وما زال في كل عصر منافقون يتسترون بالإسلام ، ويحضرون الصلوات "² .

وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه صفة صلاة المنافقين ، من تأخير الصلاة ، وعدم الخشوع فيها . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تلك صلاة المنافق ، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان³ ، قام فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً "⁴ .

وقد وصفهم الله تعالى بأنهم **بوجهين مذنبين** ، فهم مترددون لا يستقرون على شيء . فهم ليسوا مسلمين على الحقيقة ، وهم كذلك ليسوا كفاراً في الظاهر . قال تعالى : { مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا }⁵ .

" يعني المنافقين محيرين بين الإيمان والكفر ، فلا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً ، ولا مع الكافرين ظاهراً وباطناً ، بل ظواهرهم مع المؤمنين ، وبواطنهم مع الكافرين ، ومنهم من يعتريه الشك ؛ فتارة يميل إلى هؤلاء ، وتارة يميل إلى أولئك "⁶ .

¹ البخاري ، الجامع الصحيح المختصر ، كتاب : الأذان ، باب : فضل العشاء في جماعة ، حديث : 622 ، (234/1) . مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب : المساجد ومواضع الصلاة ، باب : فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها ، حديث : 651 ، (451/1) .

² أبو حيان ، البحر المحيط ، (393/3) .

³ " قوله صلى الله عليه وسلم : بين قرني الشيطان ، اختلفوا فيه . فقيل : هو على حقيقته وظاهر لفظه . والمراد : أنه يحاذيها بقرنيه عند غروبها ، وكذا عند طلوعها ؛ لأن الكفار يسجدون لها حينئذ ، فيقارنها ؛ ليكون الساجدون لها في صورة الساجدين له ، ويخيل لنفسه ولأعوانه أنهم إنما يسجدون له . وقيل : هو على المجاز ، والمراد بقرنيه وقرنيه : علوه وارتفاعه وسلطانه وتسلطه وغلبيته وأعوانه . قال الخطابي : هو تمثيل ، ومعناه : أن تأخيرها بتزيين الشيطان ، ومدافعتهم لهم عن تعجيلها كمدافعة ذوات القرون لما تدفعه . والصحيح الأول " . النووي ، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري ، ت676هـ ، صحيح مسلم بشرح النووي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (ط2/1392هـ) ، (124/5) .

⁴ مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب : المساجد ومواضع الصلاة ، باب : استحباب التكبير بالعصر ، حديث : 622 ، (434/1) .

⁵ سورة النساء ، آية 143

⁶ ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، (569/1) .

وقد ضربهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً ، يبين فيه حالهم هذه ، ففي الحديث الذي يرويه ابن عمر رضي الله عنهما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " مثلُ المنافق كمثلِ الشاةِ العائرة بين الغنمين ، تعيرُ إلى هذه مرةً وإلى هذه مرةً " ¹.

فهم أمام المؤمنين يظهرون بحال غير الحال التي يكونون عليها مع شياطينهم من الإنس والجن . قال تعالى : { وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا حَنُّ مُسْتَهْزِءُونَ } ².

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا الصنف سيكون شر الناس يوم القيامة ، أخرج الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تجدُ من شرارِ الناسِ يومِ القيامةِ عندَ اللهِ ذا الوجهين ؛ الذي يأتي هؤلاءِ بوجهٍ وهؤلاءِ بوجهٍ " ³.

وصفات الخائنين لا تنتهي عند هذا الحد ، فهي كثيرة ، يصعب إحصاؤها في بحث مختصر كهذا . ويمكن القول : إن جميع الصفات الخبيثة والسيئة يمكن أن تنسب إليهم ، ولا يُستغرب أن يتصفوا بها ؛ فإن الذي فسدت طويته ، وخبثت نفسه ، بالنفاق والخيانة ، لا يمكن أن تتوقع منه الاتصاف بحميد الصفات ، ومكارم الأخلاق ، ونبل السجايا ، إلا ما كان منه من باب التصنع ، والرياء . وكما قيل : كل إناء بما فيه ينضح .

المطلب الثاني : بيان أفعال الخائنين

الفعل قد يطلق على الصفة والعكس كذلك ، فنقول مثلاً : يخدع الناس ، فهو مخادع . فخداعه الناس عمل يظهر بصور متعددة ، وهو في الوقت ذاته من صفات صاحبه . وليس المهم التصنيف إلى أفعال وصفات بقدر ما يهدف إليه هذا المبحث من فضح هذه الفئة من الناس ببيان صفاتهم وأفعالهم ؛ حتى يعرفوا فلا يبقى لأحد عذر في الاغترار والانخداع بهم . ويأتي تفصيل هذا المبحث في خمس نقاط ، ليس الهدف منها حصر جميع أفعالهم ، بل ذكر ما أبرزه القرآن الكريم منها .

¹ مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب : صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث : 2784 ، (2146/4) .

² سورة البقرة ، آية 14

³ البخاري ، الجامع الصحيح المختصر ، كتاب الأدب ، باب : ما قيل في ذي الوجهين ، حديث : 5711 ، (2251/5) .

أولاً : الصد عن سبيل الله والدعوة إلى المنكر

هذا الفعل من أفعالهم ترجمة عملية لسوء اعتقادهم ، فهم لا يكتفون بكفرهم وضلالهم ، بل يسعون كذلك ليكون غيرهم معهم ، وذلك من خلال العمل على صد الناس عن سبيل الله تعالى ، وتزيين المنكر لهم حتى يقعوا فيه ، والدعوة إلى الفجور والمعصية ، وإغراء الناس بها ، وتيسير سبلها لهم . في الوقت الذي يحاربون فيه الحق وأهله ، ويصدون عن طريق الخير والرشاد . بل ويحاولون قلب الحقائق ، بوسائل إعلامهم المختلفة ، بتسمية الحق باطلا ، والباطل حقا . قال تعالى : { الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }¹.

" { الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ } ؛ لأنهم اشتركوا في النفاق فاشتركوا في تولي بعضهم بعضا . وفي هذا قطع للمؤمنين من ولايتهم . ثم ذكر وصف المنافقين العام ، الذي لا يخرج منه صغير منهم ولا كبير ، فقال : (يأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ) ... (وينهون عن المعروف) ... (ويقبضون أيديهم) ... (نسوا الله) ... وإن المؤمنين قد ابتلوا بهم إذ كانوا بين أظهرهم . والاحتراز منهم شديد "². ففعلهم الموصوف في الآية الكريمة هو أمرهم الناس بالمنكر ، ونهيهم عن المعروف ، وبخلهم الشديد ، وعدم ذكرهم لله ، حيث إنهم نسوا الله . وبهذا يتبين أن الدعوة إلى المنكر والفسوق والفجور ، وتسهيله وتزيينه للناس ، وترويجه بينهم ، هي جزء مهم من دعوتهم ، والجزء الآخر لهذه الدعوة ، والذي لا تتم دعوتهم إلا به ، هو النهي عن كل خير ، وتخويف الناس من كل فضيلة ، وتحذيرهم من فعل المعروف ، وبهذا يتم لهم ما أرادوا من صرف الناس عن دينهم ، وإيقاعهم في وحل الرذيلة والسقوط والخيانة .

فهم معاندون للحق ، رافضون سبيله ، يصدون الناس عن طريقه . قال تعالى : { وَإِذَا قِيلَ

لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنْفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا }³.

¹ سورة التوبة ، آية 67

² السعدي ، تيسير الكريم الرحمن ، (ص343) .

³ سورة النساء ، آية 61

وقوله تعالى عنهم : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ

يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ }¹، " أي يعرضون عن الرسول متكبرين عن الإيمان "2.

فهم بذلك قد اشتركوا مع المشركين في أهم أعمالهم ، وهو الصد عن سبيل الله ، قال تعالى في وصف المشركين : { أَشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ }³ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا

كَانُوا يَعْمَلُونَ }³. وقال عن إعراضهم عن الإيمان : { وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ

سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ }⁴. فهم بهذا والمشركون

سواء .

ثانياً : الخوض والاستهزاء بآيات الله

يتقن الخائنون والمنافقون الهمز واللمز والطعن والاستهزاء ، فهذا جزء من صناعتهم ، وهو أمر مترتب على سوء اعتقادهم وكفرهم بآيات الله تعالى . كما وأنهم يريدون بهذا الفعل الإساءة لأهل الإيمان ؛ لشدة ما تحمله قلوبهم من الغيظ والحقد والكراهية للمسلمين ودينهم . قال تعالى عنهم : { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ

وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفُ عَن

طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةٌ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ }⁵. ورد في سبب نزول هذه الآية ،

عدّة أقوال لا حاجة لذكرها هنا . وقد ذكر أهل العلم أن معناها عام في كل من استهزأ بالله تعالى ، أو القرآن ، أو الرسول صلى الله عليه وسلم⁶.

لقد كانت نتيجة استهزائهم هذا برسول الله عليه الصلاة والسلام وبالمؤمنين أن حكم الله تعالى عليهم من فوق سبع سماء بالكفر ، وعدم قبول اعتذارهم . فيا ليت خائني ومنافقي هذا الزمان

¹ سورة المنافقون ، آية 5

² القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (127/18) .

³ سورة التوبة ، آية 9

⁴ سورة الأنفال ، آية 31

⁵ سورة التوبة ، آية 65

⁶ انظر : ابن عبد الوهاب ، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي ، ت1206هـ ، الفتاوى ، تحقيق : صالح بن

عبد الرحمن الأطرم وغيره ، مطابع الرياض - الرياض ، (ط1/ بدون سنة نشر) ، (61/1) .

الذين دأبهم الاستهزاء والسخرية بالمؤمنين ، وبما هم عليه من الحق ، ليتهم يتدبرون آيات الله ويعونها ؛ لعلهم يتعظون ، وعن غيهم ينتهون ، قبل أن تتقلب الأحوال ويُستهزأ بهم يوم الموقف العظيم وهم في شر حال ، وأسوأ مآل ، كما أخبر الله تعالى عن حال المستهزئين من الكفار بالمؤمنين يوم القيامة : { إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٣٦﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٧﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣٨﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٤٠﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٤١﴾ عَلَىٰ الْأَرَابِكِ يُنظُرُونَ ﴿٤٢﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ }¹ .

وهكذا تخبر الآيات أن الاستهزاء بالمؤمنين من أفعال الكفار أيضا ، وليس من أفعال الخائنين فقط . والناظر في حال الخائنين وما نسب إليهم من قبيح الأعمال والصفات ، سيجد الكثير الكثير من القواسم المشتركة بينهم وبين الكفار ، في صفاتهم وأفعالهم . كيف لا وهم في الكفر سواء ؟

ثالثاً : موالة الكفار وفعل أفعالهم

بعد وصف الخائنين والمنافقين بالضلال ، وبعد ما وصلت إليه اعتقاداتهم بالله تعالى ، أوصلهم ذلك إلى الكفر والعياذ بالله . وهذه النتيجة ، نتيجة طبيعية لمسلكهم الشيطاني . فموالة الشيطان تقود صاحبها إلى سبيل الكفر . وقد بين الله تعالى أن أعمالهم تقودهم للكفر . قال تعالى : { وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ }² .

فما الذي جعلهم للكفر أقرب منهم للإيمان ؟ ولماذا حكم الله عليهم بالكفر ، مع أن ظاهرهم الإيمان ؟ لقد " كانوا يتظاهرون بالإيمان قبل ذلك ، وما ظهرت منهم أمارة تؤذن بكفرهم . فلما انخدلوا عن عسكر المؤمنين وقالوا ما قالوا ، تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم ، واقتربوا

¹ سورة المطففين ، الآيات 29-36

² سورة آل عمران ، آية 167

من الكفر . وهم لأهل الكفر أقرب نصره منهم لأهل الإيمان ؛ لأن تقليلهم سواد المؤمنين بالانخزال تقوية للمشركين ¹ .

وفي معرض الحديث عن استهزائهم وخوضهم بآيات الله تعالى ، ذكر لنا الله تعالى أن عملهم هذا أوصلهم للكفر أيضا . قال تعالى : { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفُ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ } ² .

فهم وإن اعتذروا ، وأنكروا حدوث الفعل منهم ، بل وإن أقسموا أنهم ما فعلوا وما قالوا ، فإن اعتذارهم لا يقبل . وعالم السرائر وخبايا النفوس سبحانه وتعالى قد ألبسهم لباس الكفر وحكم عليهم به . قال تعالى حاكيا عنهم : { تَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا } ³ .

تدل هذه الآية على أن المنافقين كفار ، وعلى أن الكفر يكون بكل ما يناقض التصديق والمعرفة ⁴ .

وقد حكم الله تعالى عليهم بالردة ؛ بسبب خيانتهم . قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ آرْتَدُوا عَلَيَّ

أَدْبَرِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنَطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

إِسْرَارَهُمْ } ⁵ . وقد أورد أهل التفسير ⁶ في المقصود بالمرتدين أقوالاً ، منها أنهم من أهل الكتاب ، أو أنهم أهل الخيانة والنفاق ، وهو ما تميل إليه النفس ، وقد رجحه الطبري

¹ النسفي ، مدارك التنزيل ، (190/1) .

² سورة التوبة ، آية 65-66

³ سورة التوبة ، آية 74

⁴ انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (207/8) .

⁵ سورة محمد ، آية 25-26

⁶ انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (249/16) . أبا السعود ، إرشاد العقل السليم ، (99/8) .

بقوله : " وهذه الصفة بصفة أهل النفاق عندنا أشبه منها بصفة أهل الكتاب ؛ وذلك أن الله عز وجل أخبر أن ردتهم كانت بقليلهم للذين كرهوا ما نزل الله : سنطيعكم في بعض الأمر . ولو كانت من صفة أهل الكتاب لكان في وصفهم بتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم الكفاية من الخير عنهم بأنهم إنما ارتدوا من أجل قليلهم ما قالوا "1.

وسبب ردة هؤلاء الخائنين ؛ أنهم " قالوا لليهود : سنطيعكم في بعض الأمر : أي عداوة محمد والقعود عن نصرته "2. فإذا كانت طاعة اليهود في بعض الأمر توصل للردة عن الدين ، فكيف بطاعتهم في كل أمر؟! بل وكيف بالتعاون معهم ونصرتهم على المسلمين!؟

ومن انطبق عليه وصف الكفر من هؤلاء الخائنين فإنه سيكون حتما من أولياء الكفار ومن أنصارهم ، فهو ما دام يعتقد ما يعتقدون ويفعل ما يفعلون ، فقد توافقت أهواؤه ومواقفه ومصالحه ومعتقداته ، مع أهوائهم ومواقفهم ومصالحهم ومعتقداتهم ، فهم سواء في كل شيء ؛ ولذلك تجدهم قد تطابقت أهدافهم مع أهداف الكفار المعادين ، وارتبطت مصالحهم وأغراضهم ، بل ومصائرهم معا . قال تعالى : { بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } الَّذِينَ

يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَتُغُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ

جَمِيعًا }3. " هذه الآية من صفة المنافقين ، وكانوا يوالون اليهود مخالفة للمسلمين ، يتوهمون أن لهم القوة والمنعة . وهو معنى قوله : (أيبتغون عندهم العزة) ؟ أي : القوة ، بالظهور على محمد صلى الله عليه وسلم . (فإن العزة) : أي الغلبة والقوة لله جميعا "4.

ومن هؤلاء الكافرين ، الذين كان المنافقون يوالونهم ، ويبتغون عندهم العزة يا ترى ؟ " الكافرون المذكورون هنا هم - على الأرجح - اليهود ، الذين كان المنافقون يأوون إليهم ، ويتخنسون عندهم ، ويبيتون معهم للجماعة المسلمة شتى المكائد "5.

ثم ما هو السبب الذي من أجله يسعى هؤلاء الخائنون ، لولاية اليهود وأعداء الأمة ؟ أهو طلب العزة والمنعة والقوة منهم ؟ إن الخائنين تخنل عندهم الموازين ، وتتحرف أفهامهم ، لدرجة أنهم ، يتناسون أن القوة والمنعة والعزة هي من الله تعالى وحده . ولا يعطيها سبحانه إلا

1 الطبري ، جامع البيان ، (58/26) .

2 النسفي ، مدارك التنزيل ، (149/4) .

3 سورة النساء ، آية 138-139 .

4 الواحدي ، الوجيز ، (296/1) .

5 قطب ، في ظلال القرآن ، (556/5) .

لأوليائه ، الذين لا يلجأون إلا إليه . " وهكذا تكشف اللمسة الأولى عن طبيعة المنافقين ، وصفتهم الأولى ، وهي : ولاية الكافرين دون المؤمنين ، كما تكشف عن سوء تصورهم لحقيقة القوى ، وعن تجرد الكافرين من العزة والقوة التي يطلبها عندهم أولئك المنافقون ¹ .

" وما أحوج ناسا ممن يدعون الإسلام ، ويتسمون بأسماء المسلمين ، وهم يستعينون بأعدى أعداء الله في الأرض ، أن يتدبروا هذا القرآن ، إن كانت بهم رغبة في أن يكونوا مسلمين . وإلا فإن الله غني عن العالمين " ² .

وقد عد الله تعالى الخائنين - لكثرة التصاقهم بالكافرين وحبهم لهم - عداهم إخوانا لهم ، قال تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ بِكُمْ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } ³ . وقد " جعل المنافقين إخوانهم في الدين ؛ لأنهم كفار مثلهم " ⁴ .

ولا يكتفي هؤلاء المجرمون بكفرهم وبموالاتهم للكافرين ، بل ويتمنون الكفر والردة والخيانة للمسلمين ، فهم يريدون أن يلحق بهم الآخرون في طريق كفرهم ونفاقهم وانحرافهم ، قال تعالى في وصف نفسياتهم الخبيثة : { وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَحُذِّهُم وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُلِيًّا وَلَا نَصِيرًا } ⁵ .

" وهذا كشف من الله لخبيث معتقدتهم ، وتحذير للمؤمنين منهم ، والمعنى : تمنوا كفركم ، وهي غاية المصائب بكم ، وهذا الود منهم يحتمل أن يكون عن حسد منهم لهم على ما يرون للمؤمنين

¹ قطب ، في ظلال القرآن ، (556/5) .

² المرجع السابق ، (557/5) .

³ سورة الحشر ، آية 11

⁴ البغوي ، معالم التنزيل ، (321/4) .

⁵ سورة النساء ، آية 89

من ظهور في الدنيا¹. فقد " أخبر الله عز وجل المؤمنين بما في ضمائر تلك الطائفة ؛ لئلا يحسنوا الظن بهم ، ولا يجادلوا عنهم ، وليعتقدوا عداوتهم² .

وهذا حال الخائنين في كل زمن ، فهم يمقتون كل تقي نقي ، ويودون لو انغمس الجميع في هذه الخيانة ؛ حتى لا يُعَيَّرُوا بها .

رابعاً : رفض التحاكم إلى شرع الله تعالى

وهذا العمل مترتب أيضا على سوء اعتقادهم بالله تعالى ، وضعف إيمانهم ، وعلى الشك والريب في آيات الله ، الذي يلزمهم ، وعلى ميلهم القلبي لكل ما هو باطل ، ورفضهم للحق . وعليه فكيف يمكن بعد ذلك أن يقبلوا حكم الله وحكم رسوله ، أو أن يتحاكموا إلى القرآن ويقبلوه حكما ، وفيصلاً في ما اختلفوا فيه ؟ أو أن يرضوه شريعة تحكم جميع شؤون حياتهم ؟ بل إنهم استبدلوا بحكم الله حكم الطاغوت ، ورضوا أن يتحاكموا إلى قوانين وضعها البشر تتوافق مع أهوائهم وتحقق رغباتهم ، بدل حكم الله الذي فيه حياتهم وصلاحهم ، وقد قال تعالى يدعوننا للاستجابة لحكمه : { يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا تَحْيِيكُمْ }³ . " قال قتادة : هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة"⁴ .

وإن رفض التحاكم لشرع الله ، وعدم قبول حكم الله ، وتفضيل شرائع البشر على شريعة القرآن ، يعد من نواقض الإيمان ويخرج صاحبه ولا شك من ملة الإسلام ، وهو كفر بواح⁵ . والله تعالى يقول : { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا }⁶ .

¹ ابن عطية ، المحرر الوجيز ، (89/2) .

² ابن الجوزي ، زاد المسير ، (155/2) .

³ سورة الأنفال ، آية 24

⁴ الرازي ، تفسير القرآن العظيم ، (1680/5) .

⁵ انظر : ياسين ، الإيمان ، (ص219) .

⁶ سورة النساء ، آية 65

فليس الإيمان مجرد زعم باللسان ، بل لا بد من الخضوع لشرع الله ، وتحكيمه في كافة شؤون الحياة .

وهنا " نجدنا أمام شرط الإيمان وحد الإسلام . يقرره الله سبحانه بنفسه . ويقسم عليه بذاته . فلا يبقى بعد ذلك قول لقائل في تحديد شرط الإيمان وحد الإسلام ، ولا تأويل لمؤول ، اللهم إلا مباحكة لا تستحق الاحترام ... فهذه حقيقة كلية من حقائق الإسلام . جاءت في صورة قسم مؤكد . مطلقة من كل قيد . وليس هناك مجال للوهم أو الإيهام بأن تحكيم رسول الله صلى الله عليه وسلم هو تحكيم شخصه . إنما هو تحكيم شريعته ومنهجه . وإلا لم يبق لشرعية الله وسنة رسوله مكان بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ... وإن كان يكفي لإثبات الإسلام أن يتحاكم الناس إلى شريعة الله وحكم رسوله . فإنه لا يكفي في الإيمان هذا ، ما لم يصحبه الرضى النفسي ، والقبول القلبي ، وإسلام القلب والجنان ، في اطمئنان . هذا هو الإسلام . وهذا هو الإيمان . فلتنظر نفس أين هي من الإسلام ، وأين هي من الإيمان ، قبل ادعاء الإسلام وادعاء الإيمان "1.

روى البخاري في سبب نزول هذه الآية عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما : " أن رجلاً من الأنصارِ خاصمَ الزبيرَ عند النبي صلى الله عليه وسلم في شراجِ الحرّة² التي يسقون بها النخل ، فقال الأنصاريُّ : سرِّح الماءَ يَمْرُ³ ، فأبى عليه ، فاختمما عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير : اسق يا زبيرُ ، ثم أرسل الماء إلى جارك . فغضب الأنصاريُّ ، فقال : أن كان ابن عمّك ؟ فتلّون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : اسق يا زبيرُ ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر⁴ . فقال الزبير : والله إنني لأحسبُ هذه هذه الآية نزلت في ذلك "5.

¹ قطب ، في ظلال القرآن ، (426/5) .

² الشراج : مجاري الماء من الحرار إلى السهل . ابن منظور ، لسان العرب ، (307/2) . والحرّة : أرض ذات حجارة سود نخرة ، كأنها أحرقت بالنار . الرازي ، مختار الصحاح ، (55/1) .

³ سرح الماء : أي أرسله . النووي ، صحيح مسلم بشرح النووي ، (107/15) .

⁴ الجدر : جمع جدار وهو الحائط . انظر : الرازي ، مختار الصحاح ، (ص 41) . مصطفى ، إبراهيم ، المعجم الوسيط ، (110/1) .

⁵ البخاري ، الجامع الصحيح المختصر ، كتاب المساقاة ، باب : سكر الأنهار ، حديث 2231 ، (832/2) .

فما أقرب هؤلاء الذين لا يريدون حكم الله ورسوله ممن قال الله تعالى فيهم : { أَفَحُكْمَ
الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ } وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ¹. وقد سماهم الله تعالى
بالكفار . قال تعالى : { وَمَنْ لَمْ يَتَّخِمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } ².

لقد بين الله تعالى لنا رفض هذه الفئة الخائنة لحكم الله تعالى ، وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم
إذا ما دعوا إليه ، فقال تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ
وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ۗ وَيُرِيدُ
الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ
الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا } ³.

وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية أقوال ، منها أنها في جماعة من المنافقين ، أرادوا أن
يتحاكموا إلى حكام الجاهلية ، والآية أعم من ذلك كله ، فإنها دامة لمن عدل عن الكتاب والسنة
وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل ، وهو المراد بالطاغوت هنا ⁴.

فإذا كانت هذه الآية نزلت في حادثة حدثت في عهد النبوة ، كما ذكر في سبب النزول ،
حيث رفض بعض المنافقين حكم الله تعالى ، وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم ، فكيف فيمن لا
يتحاكمون اليوم في سائر أمورهم إلا إلى الكفار ، ويرفضون حكم الله ورسوله ، وهم يزعمون
أنهم آمنوا بالله وبما أنزل إلى الرسول ؟

إن نفوس هؤلاء تأبى عليهم الخضوع لأمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، إلا إذا
كان الحق لهم ، فإنهم عند ذلك يقبلون حكم الله تعالى ، ويذعنون له ، قال تعالى فيهم :
{ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا
أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ

¹ سورة المائدة ، آية 50

² سورة المائدة ، آية 44

³ سورة النساء ، آية 60-61

⁴ انظر : ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، (520/1) .

مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ تَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ رَجٌ بَلْ أَوْلَتْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ }¹.

" ذكر سبحانه أن إعراضهم إنما هو إذا كان الحق عليهم ، وأما إذا كان لهم فإنهم يذعنون ؛ لعلمهم بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحكم إلا بالحق "².

وحالهم هذه بخلاف حال المؤمنين ، الذين قال الله تعالى فيهم في الآية التالية : { إِنَّمَا كَانَ

قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }³.

ومعنى ذلك : " إنما كان ينبغي أن يكون قول المؤمنين إذا دعوا إلى حكم الله ، وإلى حكم رسوله ، ليحكم بينهم وبين خصومهم ، أن يقولوا : سمعنا ما قيل لنا ، وأطعنا من دعانا إلى ذلك "⁴ . وفي هذا تربية للمسلمين بأن لا يتحاكموا لغير شرع الله تعالى ، ولو كان شرعة للأمم كلها .

خامساً : الإفساد في الأرض

الإفساد كلمة عامة ، تشمل كل ما يعد إفساداً ، من تعطيل حكم الله تعالى ، ونشر الرذيلة ، وقبول الرشوة ، وإلحاق الأذى بالمؤمنين ، واتباع الفتن ، وبت الأراجيف ، وغير ذلك من الأمور التي تدرج تحت هذا المفهوم . كل هذه الأمور من أعمال هذه الفئة الخائنة . والخطير في الأمر أن هذه الأعمال تصدر منهم عن استحسان لها ، واعتقاد بأنها أعمال إصلاح لا إفساد . وهذا من انقلاب الموازين ، الذي انتهجه من قبلهم فرعون مع موسى عليه السلام ، وانتهجه زعماء الكفر مع لوط عليه السلام . قال تعالى : { وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ

مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ^ط إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ }⁵.

¹ سورة النور ، الآيات 47- 50

² الشوكاني ، فتح القدير ، (44/4 - 45) .

³ سورة النور ، آية 51

⁴ الطبري ، جامع البيان ، (157/18) .

⁵ سورة غافر ، آية 26

ووصف فرعونُ السحرةَ لما آمنوا ، بالمكر والتآمر . قال تعالى : { قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَنْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَأَذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لَتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ }¹. " أي إن صنعكم هذا لحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا إلى الصحراء"² . فهو يزعم أن السحرة قد تأمروا مع موسى عليه السلام قبل موعد المباراة ؛ ولهذا أعلنوا إيمانهم . وهكذا هم الخائنون الذين يعتادون التآمر والكيد ، يظنون أن جميع الناس مثلهم في التآمر والخيانة .

وقال تعالى على لسان الكفار من قوم لوط عليه السلام : { وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ }³. هذا هو منطق قلب الحقائق واختلال الموازين ، وهو منطق آخر الزمان ، الذي أخبر عنه النبي عليه الصلاة والسلام في قوله : " سيأتي على الناس سنوات خداعات ، يُصدَّقُ فيها الكاذب ويُكذَّبُ فيها الصادق ، ويُؤتمَنُ فيها الخائن ويُخونُ فيها الأمين ، وينطقُ فيها الرويبضة . قيل وما الرويبضة ؟ قال : الرجل التافه يتكلم في أمر العامة"⁴.

وهو نفسه منطق أهل الخيانة ، الذين يعدون الإفساد إصلاحا ، والإصلاح إفسادا ، قال تعالى فيهم : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ }⁵ .

¹ سورة الأعراف ، آية 123

² النسفي ، مدارك التنزيل ، (30/2) .

³ سورة الأعراف ، آية 82

⁴ ابن ماجة ، محمد بن يزيد القزويني ، ت273هـ ، سنن ابن ماجة ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر - بيروت (بدون طبعة ولا سنة نشر) ، باب : شدة الزمان ، (1339/2) . وانظر : الحاكم ، محمد بن عبد الله النيسابوري ، ت405هـ ، المستدرک علی الصحیحین مع تضمینات الإمام الذهبی فی التلخیص ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (ط1/1411هـ) ، (557/4) . قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الذهبی فی التلخیص : صحيح .

⁵ سورة البقرة ، آية 11-12

قال الإمام الطبري رحمه الله : " نزلت في المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن كان معنيا بها كل من كان بمثل صفتهم من المنافقين بعدهم إلى يوم القيامة "1 .
والذي عليه أهل العلم ، أن آيات القرآن الكريم إنما هي لكل زمان ومكان . وما كان في وصف خائني ذلك الزمان لا شك ينطبق على خائني هذا الزمان ، وكل زمان إلى يوم القيامة . فالآية الكريمة لا تخص أولئك الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسب ، وإنما تعم كل من هو على شاكلتهم إلى يوم القيامة .

واعتماد هؤلاء بأنهم المصلحون ، يستلزم ولا شك اعتقادهم بأن غيرهم هم المفسدون . وهو ما ذكره الله تعالى فعلا على ألسنتهم ، حيث قال تعالى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ }2 .
" وهذا القول من المنافقين إنما كانوا يقولونه في خفاء واستهزاء ، فأطلع الله نبيه والمؤمنين على ذلك ، وقرر أن السفه ورقة الحلوم وفساد البصائر إنما هي في حيزهم ، وصفة لهم ، وأخبر أنهم هم المفسدون ولكن لا يعلمون ؛ للرين الذي على قلوبهم "3 .

وقد وصف الله تعالى إفساد الفاسقين (والمنافقون منهم) ، بما يتضمن من نقض العهود ، وتقطيع الأواصر والصلوات ، فقال تعالى : { الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ

الْحٰسِرُونَ }4 . " وهذا يعم العهد الذي بينهم وبينه ، والذي بينهم وبين عبادته ، الذي أكده عليهم بالمواثيق الثقيلة ، والإلزامات ، فلا يبالون بتلك المواثيق ، بل ينقضونها ويتركون أوامره ويرتكبون نواهيها وينقضون العهود التي بينهم وبين الخلق ، (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) : وهذا يدخل فيه أشياء كثيرة ، فإن الله أمرنا أن نصل ما بيننا وبينه بالإيمان به ، والقيام بعبوديته . وما بيننا وبين رسوله بالإيمان به ، ومحبته وتعزيره والقيام بحقوقه . وما بيننا وبين الوالدين والأقارب والأصحاب وسائر الخلق ، بالقيام بتلك الحقوق التي أمر الله أن

1 انظر ، الطبري ، جامع البيان ، (125/1) .

2 سورة البقرة ، آية 13

3 القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (205/1) .

4 سورة البقرة ، آية 27

نصلها . فأما المؤمنون فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق ، وقاموا بها أتم القيام . وأما الفاسقون فقطعوا ونبذوها وراء ظهورهم معتاضين عنها بالفسق والقطيعة والعمل بالمعاصي : وهو الإفساد في الأرض ¹ .

" ويحتمل أن يشار بنقض عهد الله إلى اليهود ؛ لأنهم نقضوا العهد الذي أخذ الله عليهم في الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم . ويشار بقطع ما أمر الله به أن يوصل إلى قریش ؛ لأنهم قطعوا الأرحام التي بينهم وبين المؤمنين . ويشار بالفساد في الأرض إلى المنافقين ؛ لأن الفساد من أفعالهم ² .

وعلى جميع الأحوال فإن الإفساد بجميع أشكاله عمل من أعمال هؤلاء الخائنين ، وسلوك أصيل من مسلكياتهم لا ينفك عنهم أبدا .

ومن الإفساد في الأرض : اتباع الفتن ونشر الرذيلة والفجور ، وبث الإشاعات والترويج للأكاذيب ، وهو ما يحسنه أهل الخيانة والنفاق . وقد سماهم الله تعالى : المرجفون . قال تعالى : { لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنْهَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا } ³ . " والمرجفون في المدينة : قوم كانوا يخبرون المؤمنين بما يسوؤهم من عدوهم ، فيقولون إذا خرجت سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنهم قد قتلوا أو هزموا ، وإن العدو قد أتاكم . قاله قتادة وغيره . وقيل كانوا يقولون : أصحاب الصفة قوم عزاب ، فهم الذين يتعرضون للنساء . وقيل : هم قوم من المسلمين ينطقون بالأخبار الكاذبة حبا للفتنة . وقد كان في أصحاب الإفك مسلمون ، ولكنهم خاضوا حبا للفتنة . وقال ابن عباس : الإرجاف : التماس الفتنة ، والإرجاف : إشاعة الكذب والباطل للاغتمام به . وقيل : تحريك القلوب . يقال : رجفت الأرض ، أي تحركت وتزلزلت .. فالإرجاف حرام ؛ لأن فيه إذاية . فدللت الآية على تحريم الإيذاء بالإرجاف ⁴ .

ومهما كان نوع الأكاذيب والأراجيف التي يبثها الخائنون فإن هدفها واحد ، هو زعزعة استقرار المجتمع المسلم ، وضرب معنويات المسلمين ، وإيقاع الفتنة بينهم .

¹ السعدي ، تيسير الكريم الرحمن ، (ص47-48) .

² الكلبي ، التسهيل لعلوم التنزيل ، (43/1) .

³ سورة الأحزاب ، آية 60

⁴ القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (245/14 - 246) .

وحادثة الإفك المشهورة ، من فعالهم ومن أراجيفهم . حيث أشاع المنافقون ، ومن تبعهم على السيدة عائشة رضي الله عنها ما أشاعوا ، وخاضوا في عرض أشرف الناس : أم المؤمنين ، وزوج رسول الله ، وابنة الصديق . كل هذا سطره لنا الله تعالى في قرآن يتلى إلى يوم القيامة ؛ وذلك ليبقى درسا للعبرة والاعتاظ ، وليبقى علما أحمر مرفوعا ، يشير إلى خطر هؤلاء الخائنين الداهم على المجتمع المسلم ، ونورا كاشفا لمخططاتهم وتآمرهم . وآيات سورة النور تكشف عن خبث أفعالهم .

وكان من أهداف هذه الفعلة الخبيثة ، إشاعة الفاحشة في المجتمع المسلم . والله تعالى توعده مشيعي الفاحشة ، فقال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }¹. فهم إنما يهدفون إلى " زعزعة ثقة الجماعة المؤمنة بالخير والعفة والنظافة ، وعلى إزالة التحرج من ارتكاب الفاحشة ، وذلك عن طريق الإيحاء بأن الفاحشة شائعة فيها . بذلك تشيع الفاحشة في النفوس ، لتشييع بعد ذلك في الواقع . من أجل هذا وصف الذين يرمون المحصنات بأنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، وتوعدهم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة"².

والخائنون في كل زمان هذا دأبهم . يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ؛ ليسقط الناس في الوحل الذي سقطوا فيه ، وليكونون بعد ذلك في السقوط والخيانة سواء . وإذا كان هذا حالهم في خير القرون ، فكيف بمن بعدهم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : " خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ... إن بعدكم قوما يخونون ولا يؤتمنون"³.

وفي ختام هذا المطلب ، لا بد من الإشارة إلى أن جميع ما ذكر من أفعال الخائنين وصفاتهم ، يمكن إدراجه تحت باب : علامات سوء الخلق . وهو الذي فعله الإمام الغزالي⁴ -

¹ سورة النور ، آية 19

² قطب ، في ظلال القرآن ، (82/18) .

³ البخاري ، الجامع الصحيح المختصر ، كتاب : الشهادات ، باب : لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد ، حديث : 2508 ، (938/2) .

⁴ هو : محمد بن محمد بن محمد الإمام حجة الإسلام زين الدين أبو حامد الطوسي الغزالي ، ولد بطوس سنة 450 هـ ، صنف الكثير من المصنفات ، منها : البسيط ، الوجيز والخلاصة ، الفتاوى ، تحصيل المآخذ ، المستصفي ، تهافت الفلاسفة ، والإحياء ، وغير ذلك ، توفي في جمادى الآخرة سنة 505 هـ . انظر : ابن قاضي شعبة ، أبا بكر بن أحمد بن

رحمه الله - حيث ربط بين حسن الخلق والإيمان ، وبين سوء الخلق والنفاق . فقال : فإن حسن الخلق هو الإيمان ، وسوء الخلق هو النفاق . واستشهد على ذلك بنصوص عديدة من القرآن والسنة ، يتضح فيها الربط بين الخلق الحسن والإيمان ، وبين الخلق السيء والنفاق .¹

ولا شك أن ما يتصف به أهل الخيانة والنفاق ، هو من الأخلاق السيئة ، ولو أجهدوا أنفسهم في إظهار غير ذلك ، ووضعوا على وجوههم الأصباغ الزائفة ؛ ليخدعوا الناس عن حقيقتهم ، فإن الله تعالى كاشف سوءاتهم ، وفاضح أمرهم . فإذا كان الخلق الحسن ، ينبع من معين الإيمان ، فإنه لا شك أن الخلق السيء ، ينبت في مستنقع الخيانة .

المطلب الثالث : الخيانة من أفعال الكفار وصفاتهم

وصف الله تعالى الكفار بالمكر والخديعة والخيانة والتآمر على الإسلام وأهله . وبين أن الظلم والإجرام والاعتداء والإفساد ونقض العهود وغير ذلك من أعمالهم . وحذر المؤمنين من أن يسلكوا طريقهم ، ويعملوا أعمالهم . إلا أن الفئة الخائنة من بين المسلمين تأبى إلا اللحاق بهم ، والانقياد لهم في قبيح أعمالهم . وقد أخبرنا بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ ، شِيْرًا بَشِيرًا ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، حَتَّىٰ لَوْ سَلَكَوا جُرْحًا ضَبَّ لَسَلَكْتُمُوهُ ، قَالُوا : يَا رَسُوْلَ اللهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ ؟ قَالَ : فَمَنْ ؟ " .²

ومن هنا فلا بد من بيان ما وصف الله تعالى به الكفار من الخيانة والمكر والكيد ؛ لتتضح خطورة العلاقة بينهم وبين الخائنين من هذه الأمة . وقد سبق بيان وصف الله تعالى للخائنين من أمة الإسلام بالكفر والضلال ، وتمنيهم الكفر لغيرهم ؛ ليكونوا سواءً . ولن تجد فرقاً واحداً بين هؤلاء وهؤلاء ؛ فهم في الخيانة والكفر والعداء للمسلمين سواء ، كما أنهم في المصير والمآل سواء .

محمد بن عمر ، ت 851هـ ، طبقات الشافعية ، تحقيق : الحافظ عبد العليم خان ، دار عالم الكتب - بيروت ، (ط 1407/1هـ) ، (293/1 - 294) .

¹ انظر ، الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد ، ت 505 هـ ، إحياء علوم الدين ، خرج أحاديثه : زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي ، مكتبة مصر - مصر ، (طبعة سنة 1998م) ، (86/2 - 87) .

² البخاري ، الجامع الصحيح المختصر ، كتاب : أحاديث الأنبياء ، باب : ما ذكر عن بني إسرائيل ، حديث رقم : 3269 ، (1274/3) .

وقد جاء في سورة التوبة بعد " بيان طبيعة النفاق والمنافقين ، الربط بينهم وبين الكفار الذين خلوا من قبل ، فأهلكهم الله بعد ما استمتعوا بنصيبتهم إلى أجل معلوم ؛ ذلك ليكشف عن الفوارق بين طبيعتهم هذه وطبيعة المؤمنين الصادقين ، الذين يخلصون العقيدة ولا ينافقون "1، قال تعالى : { أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }2.

ذكر الله تعالى موقف الكفار المعادي للمسلمين ، وبيّن اتصافهم بالظلم والإجرام والاعتداء والإفساد والأذى للمؤمنين ؛ بدافع الحقد والحسد والبغضاء ، خاصة إذا ما كانت لهم قوة وغلبة ، وكل ما ورد عنهم من هذه الصفات والأفعال ، جاء مقرونا بألفاظ المكر والخيانة والكيد والخداع . فكأن كل ما هو قبيح من الأعمال لا بد لتنفيذه من كيد ومكر في الخفاء ، ولا بد من المخادعة والخيانة في أداء أعمال الإجرام . وكأنه كذلك لا بد لصاحب هذه الأعمال من أن يتصف بالخيانة والمكر والمخادعة ؛ ليحقق أهدافه ويصل إلى مبتغاه .

قال تعالى مبينا موقف المشركين من أهل الإيمان : { كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَإِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ }3. والملاحظ أن أسلوبهم هو ذاته أسلوب المنافقين في المخادعة ، { يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ } . " أي يقولون بألسنتهم كلاما حلوا طيبا ، والذي في قلوبهم بخلاف ذلك ، فإنهم لا يضمرون إلا الشر والإيذاء إن قدروا عليه "4 . وقال تعالى مؤكدا ذلك : { لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَإِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ }5. فهم بأفعالهم هذه معتدون . وأي اعتداء أعظم

1 قطب ، في ظلال القرآن ، (240/10) .

2 سورة التوبة ، آية 70

3 سورة التوبة ، آية 8

4 الرازي ، التفسير الكبير ، (184/15) .

5 سورة التوبة ، آية 10

من إيقاع الأذى غدرا عند الاقتدار رغم الموائيق والعهود ، وبدون مراعاة لعلاقات الرحم والقربى ؟

وفي وصف مكر المجرمين من كبراء أهل الكفر قال تعالى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا^ط وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٣٢﴾ } وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ^ق سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ }^١.
" يعني كما أن فساق مكة أكابرها ، كذلك جعلنا فساق كل قرية أكابرها : يعني رؤساءها ومترفيها ، { لِيَمْكُرُوا فِيهَا } : بصد الناس عن الإيمان ، { وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ } لأن وبال مكرهم يعود عليهم ، (وما يشعرون) : أنهم يمكرون بها^٢ .

وهذا المكر الذي اتصف به الكفار هو المكر الذي وصفه الله تعالى بالمكر السيئ ، والذي لا يحيق إلا بأهله ، قال تعالى : { أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ^ج وَلَا تَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ^ح فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ^ج فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا^ط وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا^ج }^٣. " ومكر السيئ : هو الخداع الذي يرومونه برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والكيد له^٤ .

وقد جاء في قول الله تعالى في عاقبة مكر الكافرين يوم القيامة ، عندما يُلقى بهم هم وأتباعهم في نار جهنم ، حين يقع الندم والتلاوم ، حيث لا ينفع ندم ولا تلاوم : { وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ^د

^١ سورة الأنعام ، آية 123 - 124

^٢ الواحدي ، الوجيز ، (374/1) .

^٣ سورة فاطر ، آية 43

^٤ الألويسي ، روح المعاني ، (205/22) .

أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ
مُجْرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ¹.

ولأن أفعال الخائنين مثل أفعال الكافرين ، فالمكر والكيد والخيانة ، التي يحسنها المنافقون
والخائنون من هذه الأمة ، هي كذلك من أفعال الكافرين . فإن الله تعالى سمي أفعال الكافرين
بالمؤمنين كيدا ومكرا ، فقال تعالى : { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ
يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ² } ، وقال سبحانه : { إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ
كَيْدًا ﴿٥٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿٥٦﴾ فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ زُرُودًا³ }.

حتى السحر الذي لا يتعامل به إلا أهل المكر والكيد والخبث والفسائس ، وأهل الشر
والضغينة ، سماه الله تعالى كيدا . فقال تعالى عن فرعون وسحرته : { فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ
كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ⁴ } ، وقال أيضا : { إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدًا سَاحِرًا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ
أَتَىٰ⁵ }.

وفي ختام هذا المطلب لا بد من التأكيد على أن ملة الكفر واحدة ، فأفعال الخائنين هي
نفسها أفعال أهل الكفر ، والعكس صحيح ، وما ورد من الأمثلة القرآنية لأفعال الكافرين في هذا
المطلب لهي خير شاهد على التطابق والانسجام بين هذه الأفعال وأفعال أهل الخيانة التي ذكرت
في المطلب السابق . ولا عجب من ذلك ؛ فإن من يتسمى باسم الإسلام ، ويُبَيِّتُ الغدر والخيانة
للمسلمين ، ليس منهم بالتأكيد ، بل هو من أعدائهم . فهو ومن يعلن العداء لهذه الأمة من الكفار
سواء ، بل هو أشد خطرا ، وأعظم بلية على المسلمين ، ممن يجاهر في عدائها .

¹ سورة سبأ ، آية 33

² سورة الأنفال ، آية 30

³ سورة الطارق ، الآيات 15- 17

⁴ سورة طه ، آية 60

⁵ سورة طه ، آية 69

المطلب الرابع : التنفير من الخائنين ومن سلوك طريقهم

بعد ما سبق من بيان صفات الخائنين وأفعالهم ، وارتباط هذه الصفات والأفعال بصفات الكفار ، لا شك أن ما سبق يدعو للتنفير والتخويف منهم ومن سلوك طريقهم ، وحتى يشتد النفور من مثل هؤلاء ، بين الله تعالى خطورة أفعالهم ، وحذرنا منهم ، ثم لعنهم واستهزأ بهم ، ثم ضربهم مثلا تقشعر منه الجلود ، وذلك من خلال أفعال أهل الكيد والمكر والإجرام التي تحلّى بها من سبق ممن كان قبلنا ضد أنبيائهم ، وضد المؤمنين ، وفي ذكرهم وبيان خطورة وعاقبة أفعالهم عبرة لنا ولمن بعدنا إلى يوم القيامة ، وكشف لحقيقة وعاقبة أهل المكر والكيد والخيانة في زماننا ، وتفصيل ذلك في نقاطٍ ثلاثة :

أولاً : بيان خطورة الخيانة

وصف الله تعالى أثر الكيد والمكر العظيم ، والذي هو من أفعال أهل الخيانة ، فقال تعالى :
{ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ }¹.
" أي ولقد كان مكر الكفار المكذبين للرسول ، بالحق وبمن جاء به ، من عظمه ، لتزول الجبال الراسيات بسببه عن أماكنها "².
وقال تعالى عن عظم المكر : { وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا }³. " أي مكرًا كبيرًا بليغًا في معاندة الحق "⁴.

ووصف الله تعالى كيد النسوة في قصة خيانة امرأة العزيز ، فقال : { إِنَّ كَيْدَ كُنَّ عَظِيمٌ }⁵.
{⁵ وهذا الخطاب عام للنساء مطلقا ، وكونه لامرأة العزيز ولجواربها كما قيل ليس بالقوي ، وتعميم الخطاب ؛ للتنبيه على أن الكيد خلق لهن عريق . وفي بيت أبي تمام التالي تأكيد لهذا المعنى :

¹ سورة إبراهيم ، آية 46

² السعدي ، تيسير الكريم الرحمن ، (ص428) . وانظر : الكلبي ، التسهيل ، (2/142) .

³ سورة نوح ، آية 22

⁴ السعدي ، تيسير الكريم الرحمن ، (ص889) .

⁵ سورة يوسف ، آية 28

فلا تحسباً هندا لها الغدر وحدها سجية نفس كل غانية هند¹ 2.

" فإن كيد النساء أطف وأعلق بالقلب ، وأشد تأثيراً في النفس "3.

" وعن بعض العلماء : إنني أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان ، فإنه تعالى يقول : { إِنَّ

كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا }⁴ ، وقال للنساء : { إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ }⁵ ؛ ولأن الشيطان

يوسوس مسارقة ، وهن يواجهن به الرجال "6.

ولا شك أن الخيانة بما تعنيه من غدر ، ونقض للعهد ، وتدبير في الخفاء ، وإتيان من

المأمن ، وطعن من الخلف ، أعظم بلية وأشد خطراً وأكبر تأثيراً ، من المواجهة والإعلان

بالشر والأذى ؛ ولذلك كشف الله تعالى لنا هذه الفئة وبين لنا صفاتها وأفعالها ؛ حتى لا يغتر أحد

بها ، ولا يقع أحد في شراكها . قال تعالى : { وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ

الْمُنَافِقِينَ }⁷ . " يقول الله تعالى ذكره : وليعلمن الله أولياء الله وحزبه أهل الإيمان بالله

منكم أيها القوم ، وليعلمن المنافقين منكم ؛ حتى يميزوا كل فريق منكم من الفريق الآخر ،

بإظهار الله ذلك منكم بالمحن والابتلاء والاختبار "8.

فالحائن مكشوف الستر ، بائن الفعل ، ظاهر الصفة ، لا يخفى ولو تخفى ، فهم وإن

حرصوا على إخفاء حقيقة حالهم للناس ، فلا بد أن يظهر الله تعالى ما في نفوسهم على أعمالهم

وجوارحهم ، قال تعالى : { تَحَدَّرُ الِّمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي

¹ البيت لأبي تمام . انظر : أبو تمام ، حبيب بن أوس بن الحرث الطائي ، ت 231هـ ، ديوان أبي تمام ، (لا دار

نشر ولا طبعة ولا سنة نشر) ، (ص351) .

² انظر : الألويسي ، روح المعاني ، (12/224) .

³ البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (3/284) .

⁴ سورة النساء ، آية 76

⁵ سورة يوسف ، آية 28

⁶ أبو السعود ، إرشاد العقل السليم ، (4/270) .

⁷ سورة العنكبوت ، آية 11

⁸ الطبري ، جامع البيان ، (20/133) .

قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهَزَأُوا إِنْ أَلَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ¹. إن الله " مظهر ما كنتم تحذرونه : أي تحذرون إظهاره من نفاقكم . وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحي فيهم وفي استهزائهم بالإسلام وأهله ، حتى قال بعضهم : وددتُ أني قُدمتُ فجلدتُ مائة ، وأنه لا ينزل فينا شيء يفضحنا"².

وهو ما ورد تأكيده في قوله تعالى : { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ نُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ }³. فالله تعالى مظهر وفاضح أحقادهم التي تغلي في قلوبهم على المؤمنين ، ومطلع نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عليها⁴. وقد حكم الله تعالى عليهم بالفضيحة والخزي في الدنيا والآخرة . ف " يا سبحان الله ، إن النفاق يأبى إلا أن يكشف نفسه ، ويأبى إلا أن يناقض بديهيات المنطق الفطري ، وإلا ما كان نفاقاً"⁵.

ثانياً : حكم الله تعالى في الخائنين

جاء في النقطة السابقة أن الله تعالى فضح أمر هذه الفئة من الخائنين ؛ لخطورة أفعالهم وأثرهم في الأمة . وهو الأمر الذي يبعد الناس عن سلوك مسلكتهم ، وانتهاج نهجهم الخبيث ، وينفر منهم . وقد أبان لنا الله سبحانه وتعالى حكمه عليهم بالخزي والعار ، والفضيحة في الدنيا ، وبين عقابهم الأليم يوم القيامة .

ومن أجل التنفير منهم ومن سلوكهم ، بين لنا الله كذلك أن كيدهم مردود في نحورهم ، وأن تدميرهم في تدبيرهم ، قال تعالى : { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ }⁶. " أي هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ، ويخذلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا ، وكذلك يوم القيامة"⁷.

¹ سورة التوبة ، آية 64

² النسفي ، مدارك التنزيل ، (96/2) . وانظر : الزمخشري ، الكشاف ، (272/2) .

³ سورة محمد ، آية 29

⁴ انظر : الزمخشري ، الكشاف ، (329/4) . السمرقندي ، بحر العلوم ، (289/3) .

⁵ قطب ، في ظلال القرآن ، (422/5) .

⁶ سورة النساء ، آية 142

⁷ ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، (569/1) .

ولمزيد من التفسير منهم ، لعنهم الله تعالى ، فقال : { مَلْعُونِينَ ^ط أَيِنَّمَا تُقْفُوا أَخَذُوا

وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا }¹. أي " ملعونين مطرودين من باب الله وبابك . وإذا خرجوا لا ينفكون عن

المذلة ولا يجدون ملجأ ، بل أينما يكونون يُطلبون ويُؤخذون ويُقتلون "².

كما أن الله تعالى استهزأ بهم ؛ لينفر منهم فقال تعالى : { اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي

طُغْيَانِهِم يَعْمَهُونَ }³. فالله تعالى " سمي جزاء الاستهزاء باسمه . كما سمي جزاء السيئة

سيئة ؛ إما لمقابلة اللفظ باللفظ ، أو لكونه مماثلاً له في القدر ، أو يرجع وبال الاستهزاء عليهم ،

فيكون كالمستهزئ بهم ، أو يُنزل بهم الحقارة والهوان الذي هو لازم الاستهزاء ، أو الغرض

منه ، أو يعاملهم معاملة المستهزئ ، أما في الدنيا فبإجراء أحكام المسلمين عليهم ، واستدراجهم

بالإمهال والزيادة في النعمة على التمادي في الطغيان ، وأما في الآخرة فبأن يفتح لهم وهم في

النار باباً إلى الجنة ، فيسرعون نحوه فإذا صاروا إليه سد عليهم الباب ، وذلك قوله تعالى:

{ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَصْحَكُونَ }⁴ ⁵.

ثم إن الله تعالى أمرنا أن نحذرهم وأن نتخذهم أعداءً ، وسماهم الأعداء ؛ للتفسير منهم

والحذر من ألعابهم. فهم لا يريدون إلا الشر بالمؤمنين. قال تعالى: { هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ }⁶.

{⁶. " أي هم الكاملون في العداوة والراسخون فيها ، فإن أعدى الأعداء ، العدو المكاشر⁷ ...

المكاشر⁷ ... (فَاحْذَرْهُمْ) ؛ لترتيب الأمر بالحذر على كونهم أعدى الأعداء "⁸.

¹ سورة الأحزاب ، آية 61

² الرازي ، التفسير الكبير ، (199/25) .

³ سورة البقرة ، آية 15

⁴ سورة المطففين ، آية 34

⁵ البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (178/1 - 179) .

⁶ سورة المنافقون ، آية 4

⁷ الكشر : بدو الأسنان عند التبسم . ابن منظور ، لسان العرب ، (142/5) .

⁸ أبو السعود ، إرشاد العقل السليم ، (252/8) .

هذا هو حكم الله تعالى فيهم . فهل بعد هذا البيان يمكن أن يسلك طريقهم أحد ؟ إلا من ختم الله على قلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فلم يعد يهتدي السبيل ، فهو مكب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

ثالثاً : ضرب المثل بالخانين

ومن أجل المبالغة في التنفير من الخونة ، ومن سلوك مسالكهم ، ضربهم الله تعالى مثلاً ، فقال : { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ

وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَّا يَبْصُرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بَكْمٍ عُمَى فُهُمْ لَّا يَرَجِعُونَ }¹.

لما ذكر الله تعالى حقيقة حال المنافقين ، " عقبها بضرب المثل ؛ زيادة في التوضيح والتقرير ؛ فإنه أوقع في القلب ، وأقع للخصم الألد ؛ لأنه يريك المتخيل محققا والمعقول محسوسا ، ولأمر ما أكثر الله في كتبه الأمثال ، وفشت في كلام الأنبياء والحكماء² .

والمعنى المراد بالآية : ضربُ مثلٍ للمنافقين ، وذلك أن ما يظهرونه من الإيمان ، الذي تثبت لهم به أحكام المسلمين : من المناكح والتوارث والغنائم والأمن على أنفسهم وأولادهم وأموالهم ، بمثابة من أوقد نارا في ليلة مظلمة ، فاستضاء بها ورأى ما ينبغي أن يتقيه وأمن منه ، فإذا طفتت عنه أو ذهبت ، وصل إليه الأذى وبقي متحيرا ، فكذلك المنافقون لما آمنوا ، اغتروا بكلمة الإسلام ، ثم يصيرون بعد الموت إلى العذاب الأليم .

فإن كان الله تعالى قد كتب لمن تستر منهم بالإسلام ، النجاة في الدنيا ، فلم يقتلوا ، ولم تسبى نساؤهم ، ولم تسلب منهم أموالهم ؛ وذلك بسبب ما أظهروه - خداعا وكذبا - من الإيمان ، فإن ذلك لا ينفعهم يوم القيامة ، يوم تبلى السرائر ، وتكشف الستائر . وسيعاينون يومئذ من أمر الله تعالى ، ما يوقنون به أنهم كانوا يخدعون أنفسهم³ .

وفي تأويل قوله تعالى : { صُمُّ بَكْمٍ عُمَى فُهُمْ لَّا يَرَجِعُونَ } المذكور تعقيبا على المثل الذي ضربه الله تعالى عن المنافقين ، يقول الطبري رحمه الله : " وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن المنافقين ، إنهم باشترائهم الضلالة بالهدى ، لم يكونوا للهدى والحق مهتدين ، بل صم عنهما فلا يسمعونهما ؛ لغلبة خذلان الله عليهم ، بكم عن القيل بهما ، فلا ينطقون بهما ، والبكم : الخرس ، وهو جمع أبكم ، عمي عن أن يبصروهما فيعقلوهما ؛ لأن الله قد طبع على قلوبهم بنفاقهم فلا

¹ سورة البقرة ، آية 17 - 18

² البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (186/1) .

³ انظر : الطبري ، جامع البيان ، (144/1) .

يهتدون ... قال أبو جعفر : وقوله : { فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ } : إخبار من الله جل ثناؤه عن هؤلاء المنافقين الذين نعتهم الله باشترائهم الضلالة بالهدى ، وصممهم عن سماع الخير والحق ، وبكهم عن القيل بهما ، وعماهم عن إِبصارهما ، أنهم لا يرجعون إلى الإقلاع عن ضلالتهم ، ولا يتوبون إلى الإنابة من نفاقهم . فأيس المؤمنين من أن يبصر هؤلاء رشدا ، ويقولوا حقا ، أو يسمعوا داعيا إلى الهدى ، أو أن يذكروا فيتوبوا من ضلالتهم "1.

وحواسهم ليست معطلة على وجه الحقيقة ، بل هي قد تعطلت عن الحق والهدى . أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس : " { صُمُّ بَكْمٌ عُمَى } : لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ولا يعقلونه "2. فهم كالدواب ، بل أضل منها ، كما قال الله تعالى : { أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ

يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ^ج إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ^ط بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا }3.

وسياتي بيان مزيد من التنفير من هؤلاء عند بيان عاقبتهم ومآلهم بإذن الله تعالى .

¹ الطبري ، جامع البيان ، (145/1-147) .

² الرازي ، تفسير القرآن العظيم ، (52/1) .

³ سورة الفرقان ، آية 44

المبحث الثاني عاقبة الخيانة

سيتم تقسيم هذا المبحث إلى خمسة مطالب ، وذلك من خلال ما ورد في آيات القرآن الكريم من مصير أهل الكيد والمكر في كل زمان ، ليكون لنا في بيان أفعالهم ، ومآلهم العبرة والعظة ، فالمكر والخديعة والكيد من صفات وأفعال الخائنين في كل عصر وحين ، ولذلك سنتم الإفادة من الآيات التي ذكرت كيد الكائدين ومكر الماكرين فيمن مضى قبلنا ، وهذه المطالب هي : (حرمان الخائنين من هداية الله تعالى ، إبطال كيد الخائنين وردة في نحورهم ، إلباس الخائنين لباس الذل والصغار ، تدمير الخائنين وإهلاكهم في الدنيا ، مصير الخائنين يوم القيامة) .

المطلب الأول : حرمان الخائنين من هداية الله تعالى

يُحرم الخائنون في الدنيا من توفيق الله تعالى ، ومن هدايته . يقول تعالى على لسان يوسف عليه السلام ، تعقيباً منه على براءته من الخيانة مع امرأة العزيز : { ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ }¹. أي " لا يرشد من خان أمانته ، أي إنه يُفْتَضَح في العاقبة بحرمان الهداية من الله عز وجل " ². وفي كلام يوسف عليه السلام تأكيد لأمانته ، فهو لو كان خائناً لما هدى الله تعالى أمره ، ولما أحسن عاقبته ، ولما خلصه من تلك الورطة ، ولما برأه مما نسب إليه من الخيانة ، فالله لا يهدي كيد الخائنين ³. فالله لا يوفق ولا يسدد عمل الخائنين ، بل إن الله تعالى مخزيهم وفاضح أمرهم . فهم الذين لم يؤمنوا بآيات الله حق الإيمان ، وهم الذي صدوا عن سبيل الله ، وهم الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فكيف يهديهم الله ؟ قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }⁴. " يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره ، وتغافل عما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله ، فهذا

¹ سورة يوسف ، آية 52

² الواحدي ، الوجيز ، (550/1) .

³ انظر : الرازي ، التفسير الكبير ، (123/18) . أبا السعود ، إرشاد العقل السليم ، (285/4) .

⁴ سورة النحل ، آية 104

الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله في الدنيا ، ولهم عذاب أليم موجه في الآخرة¹. والخائفون لا شك من هذا الصنف ويتصفون بهذه الصفات .

ومن اختار الضلال ، فأنى له الهداية من الله ؟ قال تعالى : { مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ² وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ }³. " أي يتحيرون ويترددون فلا يخرجون من طغيانهم ولا يهتدون إلى حق "⁴. وقال تعالى : { كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعَدَ إِيْمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }⁵. " فمن ارتد عن دين الإسلام لم يكن إلا ضالا ، لا يحصل له الهدى إلى أي دين .. والمقصود : أن هؤلاء لا يهديهم الله ولا يغفر لهم إلا أن يتوبوا "⁶.

وعليه فإن الله تعالى لا يعطي هدايته وتوفيقه للخائفين ، بل هم محرومون هداية الله تعالى وتوفيقه في الدنيا والآخرة ؛ وذلك لما اقترفته أيديهم من أفاعيل ، فهم تأبى قلوبهم الإيمان ، وترفض جوارحهم الانقياد لشرع الله ، وهم يعملون جاهدين للصد عن سبيل الله ، ويبغونها عوجا ، ويمكرون بالمؤمنين ليل نهار ، ويفسدون في الأرض ، وهم ضالون مضلون ، وهل من يتصف بهذه الصفات ويعمل هذه الأعمال ، يستحق من الله تعالى الهداية والتوفيق ؟

المطلب الثاني : إبطال كيد الخائفين ورده في نحورهم

إن سنة الله تعالى في مكر الماكرين ، وخيانة الخائفين أن يفضحهم ، ويبطل كيدهم ومكرهم ، ويرده إلى نحورهم ، ويجعل تدميرهم في تدبيرهم . وهذه السنة من الله تعالى لا تتخلف أبدا . يقول تعالى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ }⁶. وخص الله تعالى الأكابر هنا ، وهم

¹ ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، (588/2) .

² سورة الأعراف ، آية 186

³ السعدي ، تيسير الكريم الرحمن ، (ص310) . وانظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (334/7) .

⁴ سورة آل عمران ، آية 86

⁵ ابن تيمية ، الفتاوى ، (28/16) .

⁶ سورة الأنعام ، آية 123

القادة والزعماء ؛ لأنهم أقدر على الفساد والمكر والحيلة ، والناس تبع لهم . ومعنى {وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ} أي : أن وبال مكرهم راجع إليهم ، وهو من الله تعالى مجازاتهم على مكرهم . {وَمَا يَشْعُرُونَ} : أي وما يدرون - لفرط جهلهم - أن وبال مكرهم عائد عليهم ، فهم في غيهم وعتوهم يتمادون متناسين ما قد أعده الله لهم من شديد عذابه¹ . فهذه سنة الله تعالى التي لا تتخلف ، ليس فقط بشأن المجرمين الماكرين برسول الله صلى الله عليه وسلم وحسب ، بل في الخائنين الماكرين في كل زمان ومكان . فالله تعالى يخبر عن خان الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم فيقول : " كما جعلنا في قرينك يا محمد أكابر من المجرمين ، ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله ، وإلى مخالفتك وعداوتك ، كذلك كانت الرسل من قبلك يُبتلون بذلك ، ثم تكون لهم العقوبة ، كما قال تعالى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ }² الآية ، وقال تعالى : { وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا }³ الآية ، ... والمراد بالمكر هاهنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال . كقوله تعالى إخبارا عن قوم نوح عليه السلام : { وَمَكْرُوهًا مَّكْرًا كُبْرًا }⁴ "5 . فكل فكل من خان الرسل نال جزاء فعلته ، ورد الله كيده في نحره .

وقد ضرب الله تعالى أمثلة في القرآن الكريم لإبطال كيد المتآمرين ، وردة في نحورهم ، ومن ذلك قصة أبرهة الأشرم ، وكيده بالكعبة المشرفة . قال تعالى : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ }¹ أَلَمْ تَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ }² وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ }³ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ }⁴ جَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ }⁵ . فقد سعوا ومكروا من أجل

¹ انظر : الطبري ، جامع البيان ، (24/8) . القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (79/7) .

² سورة الفرقان ، آية 31

³ سورة الإسراء ، آية 16

⁴ سورة نوح ، آية 22

⁵ ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، (173/2) .

⁶ سورة الفيل ، الآيات 1-5

تخريب الكعبة ، فجعل الله تعالى كيدهم في تضليل عما أرادوا ، فضلل كيدهم حتى لم يصلوا إلى الكعبة وإلى ما أرادوه بكيدهم. والكيد : هو إرادة المضرة بالغير . فهم أرادوا أن يكيّدوا قريشا بالقتل والسبي ، ويكيّدوا البيت الحرام بالتخريب والهدم فلم يفلحوا ، ورد الله تعالى كيدهم في نحورهم ، وأهلكهم¹.

وقال تعالى في إبطال كيد الماكرين أيضا : { وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ }². هذه السيئات " يريد صاحبها الرفعة بها ويمكر ويكيد ، ويعود ذلك عليه ، ولا يزداد إلا هوانا ونزولا ؛ ولهذا قال : { وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ } : يهانون فيه غاية الإهانة ، { وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ } : أي يهلك ويضمحل ولا يفيدهم شيئا ؛ لأنه مكر بالباطل لأجل الباطل³ .

سنة الله تعالى تقتضي أن يحقق المكر السيئ بأهله ؛ قال تعالى : { أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ }⁴ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا⁵ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا⁶ . يعني عقوبة المكر والتأمر والخيانة والخيانة ترجع إليهم في الدنيا والآخرة⁵. والتعبير ب (يحقق) فيه دلالة أبلغ من (يلحق) ؛ وذلك لما فيه من معنى الإحاطة ، فعاقبة المكر تحيط وتلتف حول صاحبها وتطوقه ، وفي ذلك زيادة تحذير من المكر السيئ⁶.

" وقد أبان الله لعباده في هذه المقالات وتلك الأقسام ، أنهم كذبة في ذلك ومزورون ، فاستبان خزيهم ، وظهرت فضيحتهم ، وتبين قصدهم السيء ، فعاد مكرهم في نحورهم ، ورد الله كيدهم في صدورهم ، فلم يبق لهم إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب ، الذي هو سنة الله في الأولين ،

¹ انظر : البغوي ، معالم التنزيل ، (528/4) . الشوكاني ، فتح القدير ، (495/5) .

² سورة فاطر ، آية 10

³ السعدي ، تيسير الكريم الرحمن ، (ص685) .

⁴ سورة فاطر ، آية 43

⁵ انظر : السمرقندي ، بحر العلوم ، (107/3) .

⁶ انظر : الرازي ، التفسير الكبير ، (31/26) .

التي لا تبدل ولا تغير، أن كل من سار في الظلم والعناد والاستكبار على العباد ، أن تحل به نعمته وتسلب عنه نعمته ، فليرتقب هؤلاء ما فعل بأولئك "1.

المطلب الثالث : إلباس الخائنين لباس الذل والصغار

إن من عاقبة المكر والخيانة ، أن يصيب الماكرين الخائنين الذل والصغار في الدنيا قبل الآخرة ، مصداقا لقوله تعالى : { سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ }². فجزاء مكرهم " إهانة وذل . كما تكبروا على الحق أدلهم الله "3. وقدم ذكر الصغار والذل ، على ذكر العذاب والضرر ؛ وذلك لأن القوم أرادوا بمكرهم وخيانتهم وإجرامهم وتمردهم على النبي عليه السلام ، العزة والكرامة ، فقابلهم الله تعالى بصد مطلوبهم ، فكان عقابهم الأول إلباسهم الذل والصغار ، فأراد الله تعالى لهم المذلة من حيث أرادوا لأنفسهم العزة⁴.

والخائن المنافق صاحب الكيد والمكر والخديعة لا شك يرضى بالذل والهوان ، بل هو يعيش فيه فعلا ، وتعودت نفسه على قبوله ، فلم يعد يذوق له طعما مرا وعلقما ، بل قد استساعته نفسه وتمرننت عليه . وأي صغار هو : إنه المهانة والمذلة من عند الله تعالى . فمعنى (صغار عند الله) أي : " سيصيبهم صغار من عند الله "5. وفي الآية وعيد شديد من الله ، وتهديد أكيد لمن خان الأمانة ومكر بعباد الله المؤمنين .

وقد سبق بيان الحالة التي يعيشها الخائنون والمنافقون في المجتمع المسلم ، من الاضطراب والقلق والخوف والحدز: (تَحَذَرُ الْمُنْفِقُونَ⁶، يَعْتَذِرُونَ⁷ إِلَيْكُمْ⁷، تَحَسَّبُونَ^ط كُلَّ صِيحَةٍ

¹ السعدي ، تيسير الكريم الرحمن ، (ص691) .

² سورة الأنعام ، آية 124

³ السعدي ، تيسير الكريم الرحمن ، (ص272) .

⁴ انظر : الرازي ، التفسير الكبير ، (13/144) .

⁵ الطبري ، جامع البيان ، (26/8) .

⁶ سورة التوبة ، آية 64

⁷ سورة التوبة ، آية 94

صَيِّحَةٌ عَلَيْهِمْ¹ . وهذه الحالة هي نتاج طبيعي لأعمالهم الخبيثة ، كيف لا وكل عمل من أعمالهم هو خبيث بامتياز ؟ حتى ما كان ظاهره خيراً ؛ لأن خلف ذلك الخير الرياء والكذب والاحتيال .

وإضافة إلى ذلك والذلل والصغار أراد الله تعالى فضح شأنهم ، وبيان أمرهم ، ورد كيدهم في نحورهم ، وتمكين المسلمين من رقابهم ؛ وذلك ليبقى الذلل والصغار ملازماً لهم . هذا هو مصير الخيانة في الدنيا . ومن الأمثلة على تمكين المسلمين من رقاب أعدائهم ، ما حدث في أسرى بدر ، قال تعالى : { وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ² وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ³ } .

في الآية تهديد ووعد لكل الخائنين في كل زمان ومكان ، فإن أعادوا الخيانة فسيمكن الله المؤمنين منهم ، ويحل بهم ما حل بمن قبلهم³ . " فليذكروا عاقبة خيانتهم الأولى التي أوقعتهم في الأسر ، ومكنت منهم رسول الله وأوليائه⁴ . فمن عاد إلى الخيانة ، أسقاه الله تعالى كأس المذلة والصغار ، في الدنيا بتمكين المسلمين منه ، وفي الآخرة بالعذاب الأليم . فهذا بعض الذلل والصغار ، الذي يصيب هؤلاء في الدنيا ، ذل الحذر والخوف والفضيحة والأسر . ولهم في الآخرة ذلٌ أبديٌّ يلزمهم ؛ بخيانتهم التي كانوا عليها في الدنيا .

المطلب الرابع : تدمير الخائنين وإهلاكهم في الدنيا

وردت الكثير من الآيات القرآنية التي تبين مصير الخائنين في الدنيا وفي الآخرة . أما في الدنيا فبالتمديد والإهلاك والخسف والعذاب والتمكين منهم ، وفضح أمرهم ، والخسران المبين . كل ذلك جعله الله تعالى لهم جزاء مكرهم وخيانتهم ما استؤمنوا عليه . وقد تقدم الحديث في آخر المطلب السابق ، كيف أن الله تعالى ألبسهم لباس الذل والمهانة ، ومن ذلك تمكين

¹ سورة المنافقون ، آية 4

² سورة الأنفال ، آية 71

³ انظر : البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (123/3) . البغوي ، معالم التنزيل ، (263/2) .

⁴ قطب ، في ظلال القرآن ، (65/10) .

المسلمين من رقابهم بالأسر ، بقوله تعالى : { وَإِنْ يُرِيدُوا حِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ^١ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }¹.

إذن فالله سبحانه وتعالى قد سن فيهم الخزي والعذاب والإهلاك في هذه الدنيا طال الزمن أو قصر . طال أذاهم وكيدهم ومكرهم أو قصر ، فهذا هو المصير المحتوم المكتوب عليهم في الدنيا قبل الآخرة . قال تعالى : { وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ^٢ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى

عَذَابٍ عَظِيمٍ }². وفي تأويل قوله تعالى : (سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ) ، قال أهل التأويل جملة من الأقوال منها : بالأمراض في الدنيا ، وعذاب الآخرة ؛ فمرض المؤمن كفارة ، ومرض الكافر عقوبة . وقيل : العذاب الأول الفضيحة ، بإطلاع النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ، والثاني عذاب القبر ، وقيل : الأول بالمصائب في أموالهم وأولادهم والثاني عذاب القبر . وقيل : الجوع والقتل ، وقيل : السب والقتل . وقيل : الأول أخذ الزكاة من أموالهم وإجراء الحدود عليهم ، والثاني عذاب القبر ، وقيل : غير ذلك³. وقيل في معنى العذاب المقيم الوارد في قوله تعالى : { وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ ^٤

وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ }⁴ ، إنه : " ما يقاسونه من تعب النفاق والظاهر المخالف للباطن ؛ خوفا من المسلمين ، وما يحذرونه أبدا من الفضيحة ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم " ⁵.

وبصرف النظر عن نوع العذاب المراد ، فهو عذاب ملازم لهم ، قدره الله تعالى عليهم ، وليس بمنزوع عنهم إلا أن يتوبوا ، ويرجعوا إلى الله وشرعه وأحكامه ، ويكفوا عن خيانتهم ومكرهم وكيدهم بالإسلام وأهله .

¹ سورة الأنفال ، آية 71

² سورة التوبة ، آية 101

³ انظر : الرازي ، تفسير القرآن العظيم ، (1870/6 - 1871) . الطبري ، جامع البيان ، (10/11 - 12) .

القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (240/8 - 241) .

⁴ سورة التوبة ، آية 68

⁵ النسفي ، مدارك التنزيل ، (97/2 - 98) .

وقد ضرب الله تعالى المثل في عاقبة أهل المكر في الدنيا ؛ ليتعظ بها أهل الخيانة والغدر ، فقال : { وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٣﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }¹. أورد القرطبي في تأويل هذه الآيات ، أنها في التسعة رهط المفسدين في مدينة صالح ، وهم من ورد ذكرهم في الآيات السابقة ، قال : " مكرهم ما روي أن هؤلاء التسعة لما كان في صدر الثلاثة الأيام بعد عقر الناقة ، وقد أخبرهم صالح بمجيء العذاب ، اتفقوا وتحالفوا أن يأتوا دار صالح ليلا ويقتلوه وأهله المختصين به ². وفي كيفية تدمير الله لهم جزاء مكرهم بنبي الله صالح عليه السلام أقوال ، فقيل : قتلهم الملائكة رضخا بالحجارة ، فيرون الحجارة ولا يرون من يرميها . وقيل : سلط الله عليهم صخرة فقتلهم . وقيل : نزلوا على جرف من الأرض فانهار بهم فأهلكهم الله تحته . وقيل : اختفوا في غار قريب من دار صالح ، فانحدرت عليهم صخرة شذختهم جميعا . هذا ما كان من مكرهم ، وكان مكر الله بهم بمجازاتهم على ذلك ³.

ومكر الله بهم معناه : " أخذه من أخذه منهم على غرة ، أو استدراجه منهم من استدراج على كفره به ومعصيته إياه ، ثم إحلاله العقوبة به على غرة وغفلة ⁴. وفي مثل هذه القصة عبرة وعظة لكل الخائنين إلى يوم القيامة ، فالله تعالى يخاطب نبيه عليه السلام ، من خلال هذه الآيات ، يقول : " إن في فعلنا بئمود ما قصصنا عليك يا محمد من القصة ، لعظة لمن يعلم فعلنا بهم ما فعلنا ، من قومك الذين يكذبونك فيما جنتهم به من عند ربك وعبرة ⁵. وهي عظة وعبرة مستمرة أبد الدهر .

وقد قص الله تعالى في كتابه العزيز مصير الخائنين في الدنيا من الإهلاك والتدمير ؛ من أجل الاعتبار والاتعاظ بمصائرهم . قال تعالى في إهلاك فرعون وآله : { فَوَقَّهٗ اللَّهُ سَيِّئَاتِ

¹ سورة النمل ، الآيات 50- 52

² القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (217/13) . وانظر : الطبري ، جامع البيان ، (173/19) .

³ انظر : الرازي ، تفسير القرآن العظيم ، (2902/9) . الطبري ، جامع البيان ، (174/19) . القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (217/13) .

⁴ الطبري ، جامع البيان ، (173/19) .

⁵ الطبري ، جامع البيان ، (174/19 - 175) .

مَا مَكْرُؤًا وَحَاقَ بِئَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ {¹. فوقاه : الكلام هنا عن القبطي المؤمن ، الذي نجاه الله مع بني إسرائيل ، فالهاء على هذا لمؤمن آل فرعون ²، وقاه الله تعالى مكرهم ، وهمهم إلحاق الأذى والعذاب به ³. ثم كانت عاقبة الماكرين سوء العذاب ، فأغرقهم الله تعالى وجعلهم عبرة ، بل إنه تعالى نجَّى فرعون ببذنه ليكون لمن خلفه آية على مصائر الغادرين الماكرين . فحسر وخاب فرعون وأهل الكيد أمثاله .

قال تعالى في وصف كيده وعاقبة هذا الكيد : { وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ }⁴. أي في خسران وضلال وهلاك⁵. وهو ما وصف الله تعالى به كيد الكافرين أمثال فرعون ، وكل الكائدين { وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ }⁶، " أي يذهب كيدهم باطلا ، ويحقيق بهم ما يريد الله عز وجل "⁷.

وقد أخبرنا الله تعالى عن إبطال كيد الكافرين كما حدث في بدر . قال تعالى : { ذٰلِكُمْ

وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكٰفِرِينَ }⁸.

أي : مضعف كيدهم ومكرهم ⁹. فعاقبة مكرهم تعود دائما عليهم ، قال تعالى : { أَمْ يُرِيدُونَ

كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ }¹⁰. فهم الذين يحيق بهم ما كادوا ، ويعود عليهم وبال

كيدهم وتآمرهم ¹¹.

¹ سورة غافر ، آية 45

² انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (318/15) . الصنعاني ، تفسير القرآن ، (182/3) .

³ انظر : أبا السعود ، إرشاد العقل السليم ، (278/7) .

⁴ سورة غافر ، آية 37

⁵ انظر : مجاهد ، تفسير مجاهد ، (565/2) .

⁶ سورة غافر ، آية 25

⁷ البغوي ، معالم التنزيل ، (95/4) .

⁸ سورة الأنفال ، آية 18

⁹ انظر : الطبري ، جامع البيان ، (206/9) .

¹⁰ سورة الطور ، آية 42

¹¹ انظر : الطبري ، جامع البيان ، (35/27) . السمعاني ، تفسير القرآن العزيز ، (280/5) . البيضاوي ، أنوار

التنزيل ، (250/5) .

وقد ذكر جل شأنه عن إهلاك السابقين بسبب مكرهم ، فقال تعالى : { قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ

مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ

الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ }¹. و " هذا تمثيل ، يعني أنهم سوؤا منصوبات² ليكروا بها بها رسل الله ، فجعل الله هلاكهم في تلك المنصوبات ، كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالأساطين³ بالأساطين³ ، بأن ضُعبت ، فسقط عليهم السقف وماتوا وهلكوا . والجمهور على أن المراد به نمرود بن كنعان ، حين بنى الصرح ببابل ، طوله خمسة آلاف ذراع ، وقيل : فرسخان⁴ . فأهَّبَ الله الريح ، فخر عليه وعلى قومه فهلكوا⁵ .

فالإهلاك والتدمير والخسف والأخذ والعذاب ، هي سنة الله في الماكرين على مدار التاريخ ، في الأولين وفي الآخرين . قال تعالى : { أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ

اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ

فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٧﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ }⁶. والذين مكروا السيئات ، هم الذين احتالوا لهلاك الأنبياء ، أو الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وراموا صدأ أصحابه عن الإيمان ، ويخسف الله بهم الأرض كما خسف بقارون ، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ، كما فعل بقوم لوط ، أو يأخذهم وهم في مسايرهم ومتاجرهم ، أو يأتيهم العذاب وهم متخوفون مترقبون وقوعه⁷ .

¹ سورة النحل ، آية 26

² النصب : إقامة الشيء ورفعته ، والمنصوبات : ما يقام من البناء . انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، (760/1) . مصطفى ، إبراهيم ، المعجم الوسيط ، (925/2) .

³ الأساطين : السارية ، والغالب عليها أنها تكون من بناء ، بخلاف العمود فإنه من حجر واحد . الزبيدي ، تاج العروس ، (186/35) .

⁴ الفرسخ : ثلاثة أميال ، أو ستة . ابن منظور ، لسان العرب ، (44/3) .

⁵ النسفي ، مدارك التنزيل ، (254/2) .

⁶ سورة النحل ، الآيات 45- 47

⁷ انظر : البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (400/3) .

فكيف يأمن بعد هذا خائن وماكر على نفسه من مكر الله وعذابه وتدميره ؟ قال تعالى :

{ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يُأْمِنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ }¹. والاستفهام هنا للتقريع والتوبيخ ، وفيه إنكار عليهم ؛ لما هم عليه من أمان ما لا يؤمن من مكر الله بهم وعقوبته لهم ، ويبين لنا حال من آمن مكر الله تعالى بأنهم الخاسرون ، المفرطون في الخسران ؛ لوقوعهم في وعيد الله تعالى ، ومكر الله هنا هو : استدراجه بالنعمة والصحة ، وقيل : هو جزاؤهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون ، والأولى حمله على ما هو أعم من ذلك².

فليحذر الذين يسبغون في طريق الخيانة ، فإن مكر الله بهم ، بمجازاتهم على ما يمكرون ويخونون قادم وقريب لا محالة ، فهو يأتي من حيث لا يشعرون ولا يتربصون .

المطلب الخامس : مصير الخائنين يوم القيامة

بين الله تعالى في كتابه العزيز عاقبة أهل الخيانة والمكر في الآخرة ، من خلال عرض مشاهد مؤثرة تقشع منها الجلود والأبدان ، وتتعض بها القلوب التي فيها بقية من إيمان . وسيعرض هذا المطلب لثلاثة من تلك المشاهد المؤلمة .

أولاً : مشهد العذاب الأليم في جهنم

جاء وصف العذاب الأليم المهين المقيم ، الذي يلقاه أهل الخيانة في الآخرة بنصوص قرآنية كثيرة . قال تعالى : { وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ }³. أي " لهم عذاب بالغ بالغ الغاية في الشدة"⁴. في ذلك اليوم الرهيب لا يفيدهم كيدهم ولا يفلحون ، بل سيكون كيدهم وما فعلوه وبالاً عليهم ، فليرتقبوا ذلك اليوم . قال تعالى : { فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ

¹ سورة الأعراف ، آية 99

² انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (397/7) . الشوكاني ، فتح القدير ، (228/2) .

³ سورة فاطر ، آية 10

⁴ الشوكاني ، فتح القدير ، (341/4) .

الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ¹. ويومهم المقصود هو يوم القيامة ، الذي أعد الله لهم فيه من العذاب ما لا يقادر قدره ولا يوصف أمره . في ذلك اليوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ، وإن كان في الدنيا قد ينفعهم كيدهم ونفاقهم الذي يستترون به زمناً قليلاً ، ولكن يوم القيامة يضمحل كيدهم ، وتبطل مساعيهم ، ولا ينتصرون من عذاب الله تعالى² .

فلا نصير لهم يومئذ كما لا شفيح يشفع لهم³ . ومن ذا الذي ينصرهم من الله ، وقد أعد لهم من أصناف العذاب ما لا راد له ؟

قال تعالى متهما على أهل الخيانة : { بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا }⁴ . فهو الوعد الحق من الله تعالى لهم بالعذاب الأليم ، " والبشارة : كل خبر يتغير به بشرة الوجه ، سارا كان أو غير سار "⁵ . " ووضع فيه بشر موضع أنذر ؛ تهكما بهم ، ففي الكلام استعارة تهكمية "⁶ .

ثم ترى أين موقع هؤلاء في نار جهنم ؟ وأي نوع من العذاب أعده الله لهم ؟ قال تعالى : { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا }⁷ . فموقعهم في جهنم ، في أسفلها ، حيث العذاب الأشد ، فجهنم دركات ، أو طبقات ، وهم قد تبوعوا الطبقة الأسفل من أطباق جهنم . وقد نقل الإمام الطبري في تأويل الدرك الأسفل ، ومنزلة هؤلاء فيه ، أنهم في توأبيت من نار تطبق عليهم⁸ . وفي ذلك دليل على أن الخائنين شر من الكفار وأخبث ، فهم قد

¹ سورة الطور ، آية 45-46

² انظر : السعدي ، تيسير الكريم الرحمن ، (ص818) .

³ انظر : الرازي ، التفسير الكبير ، (235/28) .

⁴ سورة النساء ، آية 138

⁵ البيهقي ، معالم التنزيل ، (490/1) .

⁶ الألوسي ، روح المعاني ، (171/5) .

⁷ سورة النساء ، آية 145

⁸ انظر : الرازي ، تفسير القرآن العظيم ، (1098/4) . الطبري ، جامع البيان ، (338/5) . السيوطي ، جلال الدين

عبد الرحمن بن الكمال ، ت911هـ ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، دار الفكر - بيروت ، (طبعة سنة 1993م) ،

(721/2 - 722) .

ضموا إلى الكفر استهزاءً بالإسلام ، وخداعا للمسلمين ¹. ويُذكر أن " النار دركات سبع ، فالمنافق في الدرك الأسفل منها وهي الهاوية ؛ لغلظ كفره وكثرة غوائله ² . وأعلى الدركات جهنم ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية . وقد تسمى جميعها باسم الطبقة العليا ، أعادنا الله من عذابها ³ .

فهم في النار خالدین أذلاء ملعونین في عذاب مقيم ، قال تعالى : { وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ } " أي كافيتهم ، وكافية جرمهم وكفرهم نكالا وجزاءً ، فلو تمنى لهم أحد عذابا ، لكان ذلك عنده حسبا لهم ⁵ . وهذه المنزلة لهم في جهنم على قدر أفعالهم الخبيثة وكيدهم بالمسلمين .

ويقف الله تعالى منهم يومئذ موقف الخصم ، أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " قال الله : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حُرًّا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يُعْطِ أجره ⁶ . وكل الأفعال المذكورة في الحديث من الخيانة والغدر .

خلاصة هذا المشهد ، بيان أن مصير الخائنين يوم القيامة عذاب الله تعالى ، لا يستثنى منهم أحد ، نكرا كان أو أنثى . والمقصود بهذه الخيانة التي توصل صاحبها إلى هذا المصير ، الخيانة العظمى ، مثل خيانة الدين وخيانة الأمة ، قال تعالى في المنافقين نفاق العقيدة والدين : { وَيُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ } ⁷ . وقال تعالى : { لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ }

¹ انظر : الكلبى ، التسهيل ، (162/1) . البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (271/2) .

² الغوائل : الدواهي ، والغيلة بالكسر : الخديعة والاعتيال . ابن منظور ، لسان العرب ، (512/11) .

³ الشوكاني ، فتح القدير ، (529/1) . وانظر : الألوسي ، روح المعاني ، (177/5) .

⁴ سورة التوبة ، آية 68

⁵ ابن عطية ، المحرر الوجيز ، (56/3) .

⁶ البخاري ، الجامع الصحيح المختصر ، كتاب : البيوع ، باب : إثم من باع حرا ، حديث : 2114 ، (776/2) .

⁷ سورة الفتح ، آية 6

وَأَلْمَنَفِقَتِ {¹}. نقل السمعاني قول ابن قتيبة في تأويل الآية ، قال : " معناه ليُظهر المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويعذبهم على الخيانة في الأمانات "². وسيلقون في جهنم ألوانا من العذاب ، قد أعدها الله تعالى خصيصا لهم ، وعذابهم في جهنم أشد من عذاب الكفار المعادين ، والعياذ بالله .

ثانياً : مشهد الفصل بين الخائنين والمؤمنين

قال تعالى : { يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُوهُمْ أَلْمَ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَىٰكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ

وَبئْسَ الْمَصِيرُ }³.

هذا المشهد يعبر عن تلك الحال ، وذلك المآل ، للخائنين يوم القيامة ، حيث يحاولون الاقتباس من نور المؤمنين ، فيحرمون من ذلك ، ويفصل بينهم وبين المؤمنين بسور . يقول سيد قطب رحمه الله في وصف حال الخائنين من خلال هذا المشهد القرآني : فهم " في حيرة وضلال ، وفي مهانة وإهمال . وهم يتعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات ... ولكن أنى للمنافقين أن يقتبسوا من هذا النور ، وقد عاشوا حياتهم كلها في الظلام ؟ إن صوتا مجهولا يناديهم : (قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) . ويبدو أنه صوتٌ للتهكم ، والتذكير بما كان منهم في الدنيا ، من نفاق وفساد في الظلام . ارجعوا وراءكم إلى الدنيا . إلى ما كنتم تعملون . ارجعوا فالنور يلتمس من هناك . من العمل في الدنيا . ارجعوا فليس اليوم يلتمس النور "⁴ .

¹ سورة الأحزاب ، آية 73

² السمعاني ، تفسير القرآن ، (314/4) .

³ سورة الحديد ، الآيات 13 - 15

⁴ قطب ، في ظلال القرآن ، (727/27) .

وعندئذ يفصل بين المؤمنين والخائنين ، فهذا يوم الفصل ، هذا يوم التمايز ، بعد ما كانوا في الدنيا مختلطين . يضربُ بينهم وبين المؤمنين بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب ، ويبدوا أنه سور يمنع الرؤية ، ولكنه لا يمنع الصوت . ثم يبدأ أهل الخيانة ينادون المؤمنين من خلف هذا السور : ألم نكن معكم ؟ فما بالنا نفترق عنكم ؟ ألم نكن معكم في الدنيا نعيش في صعيد واحد ، نصلي معا ، ونصوم معا ، ونتناكح ونتوارث ؟ ألم نكن نشهد معكم الجمعات ونصلي معكم الجماعات ، ونقف معكم بعرفات ، ونحضر معكم الغزوات ، ونؤدي معا سائر الواجبات ؟ قالوا : بلى ، كان الأمر كذلك . ولكنكم فتنتم أنفسكم ، أي استعملتموها في الفتنة ، وأهلكتموها بالنفاق ، وتربصتم بالحق وأهله الدوائر ، وارتبتم : أي شككتم في الله تعالى ، وغرتكم الأمانى : أي خدعتكم أمانى نفوسكم ، فصدتكم عن سبيل الله وأضلتكم . وغركم بالله الغرور : أي خدعكم بالله الشيطان ، فأطمعكم بالنجاة من عقوبته ، والسلامة من عذابه . بهذا استحقوا ما نالوا ؛ ولهذا فصل الله تعالى بينهم وبين المؤمنين ¹ .

" وننظر من ناحية التناسق الفني في عرض المشهد ، فنجد لاختيار مشهد النور في هذا الموضع بالذات حكمة خاصة . إن الحديث هنا عن المنافقين والمنافقات ، والمنافقون والمنافقات يخفون باطنهم ويتظاهرون بغير ما في الضمير المكنون ، ويعيشون في ظلام من النفاق والفساد والوقية . والنور يكشف المخبوء ويفضح المستور . كما أنه الصفحة المقابلة للوضيئة لصفحة النفاق المظلمة المطموسة . فهو أليق شيء بأن تطلق أشعته على المشهد الكبير . وبأن ينيب بين أيدي المؤمنين والمؤمنات وبأيمانهم ، بينما المنافقون في الظلام الذي يناسب ظلمات الضمير ، وظلمات الخفاء المستور ² ."

وقد نقل القرطبي أقوال أهل التأويل في قوله تعالى : { قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا

نُورًا } قال : " قال ابن عباس وأبو أمامة : يغشى الناس يوم القيامة ظلمة . قال الماوردي : أظنها بعد فصل القضاء . ثم يعطون نورا يمشون فيه . قال المفسرون : يُعطي الله المؤمنين نورا يوم القيامة على قدر أعمالهم ، يمشون به على الصراط . ويُعطي المنافقين أيضا نورا ؛ خديعة لهم ، دليله قوله تعالى : { وَهُوَ خَدِّعَهُمْ } ³ . وقيل : إنما يعطون النور ؛ لأن جميعهم

¹ انظر : الطبري ، جامع البيان ، (226/27-227) . القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (246/17) . ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، (310/4) . قطب ، في ظلال القرآن ، (728/27) .

² قطب ، في ظلال القرآن ، (728/27) .

³ سورة النساء ، آية 142

أهل دعوة دون الكافر . ثم يُسلب المنافق نوره لنفاقه ، قاله ابن عباس . وقال أبو أمامة : يُعطى المؤمن النور ، ويُترك الكافر والمنافق بلا نور . وقال الكلبي : بل يستضيء المنافقون بنور المؤمنين ، ولا يعطون النور ، فبينما هم يمشون ، إذ بعث الله فيهم ريحا وظلّمة ، فأطفأ بذلك نور المنافقين ، فذلك قوله تعالى : { رَبَّنَا أَتَمِّمَ لَنَا نُورَنَا }¹ ، يقوله المؤمنون خشية أن يسلبوه كما سلبه المنافقون² .

ثم يختتم المشهد العظيم بالمصير المحتوم ، (فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار ، هي مولاكم ، وبئس المصير) فلا نجاة يومئذ ، ولا شفيع يشفع لهم . ولو جاء أحدهم بملء الأرض ذهباً ، وأكثر من ذلك ؛ ليفتدي به من ذلك العذاب ، لا يقبل منه ، وفي هذا العبرة البالغة ، فإن للباقي بالماضي معتبراً ، وللآخر بالأول مزدجراً ، والسعيد من اتعظ بغيره ، والشقي من اتعظ بنفسه³ .

ثالثاً : مشهد الندامة والفضيحة

في ذلك اليوم الرهيب ينكشف المستور ، ويظهر المخبوء ، وتنتشر صحائف الأعمال ، وتظهر علامات الندم والخزي على الوجوه البائسة . قال تعالى : { يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ }⁴ . " والسرائر جمع سريرة وهي : ما أسر العبد في قلبه من العقائد والنيات ، وما أخفى من الأعمال . وبلاؤها : هو تعرفها والاطلاع عليها⁵ . فعندها يتميز ما طاب من الضمائر وما خفي من الأعمال ، وما خبث منها ، وعندها يظهر سرُّ كل إنسان ، ويبدو أثره على وجهه ، فتبييض بعض الوجوه ، وتسود أخرى⁶ .

¹ سورة التحريم ، آية 8

² القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (245/17 - 246) . وانظر : الطبري ، جامع البيان ، (224/27 - 227) .

³ انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (247/17) . ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، (311/4) .

⁴ سورة الطارق ، آية 9

⁵ الكلبي ، التسهيل ، (192/4) .

⁶ انظر : البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (477/5) . السمعاني ، تفسير القرآن العزيز ، (204/6) .

وقال الله تعالى عن جهنم : { أَلَّتِي تَطَّلُعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ }¹. و " سبب تخصيص الأئدة بذلك : هو أنها مواطن الكفر والعقائد الخبيثة والنيات الفاسدة"². فسينكشف المخبوء في هذه القلوب ، وسيحرق الله تعالى قلوبهم في نار جهنم ، بعد أن تحترق ندما وحسرة .

يومئذ يأتي كل خائن بخيانته ، يُعرف بها ويُفصح بسببها ، قال تعالى : { وَمَنْ يَعْلَلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ }³. " أي يأتي به حاملاً له على ظهره ورقبته ، معذباً بحمله وثقله ، ومرعوباً بصوته ، وموبخاً بإظهار خيانته على رؤوس الأشهاد على ما يأتي ، وهذه الفضيحة التي يوقعها الله تعالى بالغالّ نظير الفضيحة التي توقع بالغا در في أن ينصب له لواء عند إسنته بقدر غدرته"⁴.

أخرج الإمام مسلم ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يُرفع لكل غادر لواء . فقيل هذه غدره فلان بن فلان"⁵.

وقد أقسم النبي صلى الله عليه وسلم على أن الذي يخون في أموال المسلمين يأتي يحملها يوم القيامة على عنقه ، فعن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه ، قال : " استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من بني أسد يُقال له ابن الأنبيّة على صدقة ، فلما قديم قال : هذا لكم ، وهذا أهدي لي ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر ... فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : ما بال العامل نبعثه فيأتي فيقول : هذا لك ، وهذا لي ؟ فهلاً جلس في بيت أبيه وأمه فينظرُ أيهدى له أم لا ؟ والذي نفسي بيده لا يأتي بشيء إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبتيه ، إن كان بغيراً له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر⁶ ، ثم رفع يديه حتى رأينا عُقرتي⁷ إيطيه : ألا هل بلّغت ؟ ثلاثاً"⁸.

¹ سورة الهمزة ، آية 7

² الرازي ، التفسير الكبير ، (89/32) .

³ سورة آل عمران ، آية 161

⁴ القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (256/4) . وانظر : الصابوني ، محمد علي ، صفوة التفاسير ، دار الفكر - بيروت ، (طبعة سنة 1420هـ) ، (220/1) .

⁵ مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب : الجهاد والسير ، باب : تحريم الغدر ، حديث رقم : 1735 ، (1359/3) .

⁶ تيعر : أي تصيح ، وهو صوت الشاة الشديد . انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، (301/5) .

⁷ العُرة : البياض . الأزهرى ، تهذيب اللغة ، (211/2) .

⁸ البخاري ، الجامع الصحيح المختصر ، كتاب : الأحكام ، باب : هدايا العمال ، حديث : 6753 ، (2624/6) . وانظر : مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب : الإمارة ، باب : تحريم هدايا العمال ، حديث : 1832 ، (1463/3) .

وعند رؤية العذاب يظهر الندم ، حيث لا ينفع الندم ، وَيَعْصُ الظالم على يديه ، ويبدو التأسف البالغ على ما قدمت الأيدي الخائنة ، ويحدث الخصام والتلاوم بين الخائنين ، فيلوم الخائن الصغير المرؤوس ، من أغواه وأضله من الخونة الكبار . لكن لكل منهم نصيبه من النار مضاعفا . هو العذاب الذي لا مفر منه ولا مهرب ، ولا شفيع ولا نصير . هي النار والأغلال . قال تعالى : { وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُمْ أَدْدَاةً وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }¹.

" أي بل الذي دهانا منكم ووصل إلينا من إضلالكم ، ما دبرتموه من المكر في الليل والنهار ، إذ تُحَسِّنُونَ لنا الكفر ، وتدعوننا إليه ، وتقولون إنه الحق ، وتقذحون في الحق وتهجنونه ، وتزعمون أنه الباطل . فما زال مكركم بنا وكيدكم إيانا حتى أغويتمونا وفتنتمونا . فلم تقد تلك المراجعة بينهم شيئا إلا براءة بعضهم من بعض ، والندامة العظيمة . ولهذا قال : (وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ) : أي زال عنهم ذلك الاحتجاج الذي احتج به بعضهم لينجوا من العذاب ، وعلم أنه ظالم مستحق له ، فندم كل منهم غاية الندم ، وتمنى أن لو كان على الحق ، وأنه ترك الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب ، سرا في أنفسهم ؛ لخوفهم من الفضيحة في إقرارهم على أنفسهم . وفي بعض مواقف القيامة وعند دخولهم النار يظهرون ذلك الندم جهرا : { وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلِيَّتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ... }² الآيات ، { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }³ . (وجعنا الأغلال في أعناق الذين كفروا) : يغلون كما يغل المسجون الذي سيهان في سجنه⁴ .

هذا جزاء المكر والخيانة يوم القيامة ، خزي وندامة وعذاب أليم ، نعوذ بالله من خزي وندامة وعذاب ذلك اليوم .

¹ سورة سبأ ، آية 33

² سورة الفرقان ، آية 27

³ سورة الملك ، آية 10

⁴ السعدي ، تيسير الكريم الرحمن ، (ص681) .

وبعد هذه المشاهد المؤلمة لعاقبة الخيانة ، من عذاب أليم في جهنم ، وفصل مهين ومذل بينهم وبين المؤمنين بالسور ، ومشاهد الحسرة والندامة والأسى الذي يكابدونه يومئذ ، بعد كل ذلك لا بد لكل من سلك طريق الخيانة من أن يبادر إلى مراجعة نفسه ، وتصحيح مساره ، والتوبة من إجرامه ، من قبل أن تأتيه منيَّته ، ويلقى ربه ، ومصيره المذكور .

المبحث الثالث

منهج القرآن الكريم في معالجة ظاهرة الخيانة

في هذا المبحث سيتم الحديث عن منهج القرآن الكريم في معالجة ظاهرة الخيانة ، وذلك من خلال مطلبين : المطلب الأول : الوقاية من الخيانة بالتربية والتحصين ، والمطلب الثاني : بيان طريقة التعامل مع الخائنين ، وهذا البيان :

المطلب الأول : الوقاية من الخيانة بالتربية والتحصين

الأساس الأول في الوقاية من أخطار الخيانة ومن الوقوع في مثل الرذائل المنسوبة لأهل الخيانة هو التربية والتحصين ، وإنشاء أجيال تطعمت وتشربت أخلاق الإسلام ومبادئه ، وتربّت على أداء الأمانة بكل معانيها . فإذا أخرجنا للمجتمع أجيالا محصنة ضد الوقوع في الخيانة بأشكالها ، فقد حققنا الشطر الأول من المعادلة وزيادة . ويبقى بعد ذلك معالجة مظاهر الخيانة الموجودة في مجتمع المسلمين ، وكلا الأمرين وضع له الإسلام القواعد والأسس والتوجيهات ؛ لتتحقق الغاية ، وهي : الوقاية والعلاج .

ومن سبل التربية القرآنية للوقاية من الخيانة : (استشعار رقابة الله تعالى) في كل فعل أو قول ، وحتى يصبح هذا المبدأ هو المنطلق في الأفعال والأقوال ، لا بد من غرسه في نفوس النشء ، ليكون صمام الأمان الذي يعصم صاحبه من الانزلاق في وحل الخيانة . إنه استشعار معية الله تعالى ورقابته ، هذه الرقابة الداخلية التي تفوق كل ما عداها من أنواع الرقابة التي يضعها العباد . فالله مطلع على كل صغيرة وكبيرة ، والعبد إذا استخفى عن الناس بفعله فالله مطلع عليه ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . " فالله جل وعلا هو القائم على كل نفس بما كسبت ، والرقيب على كل جارحة بما اجتاحت ، والمطلع على ضمائر القلوب بما هجست " ¹.

¹ الثرباصي ، أحمد ، ت1400هـ ، يسألونك في الدين والحياة ، دار الجيل - بيروت ، (ط1/1977م) ، (330/4-331) .

وإن الخائن الذي يفعل ما يفعل وهو مستتر متخف ، يظن أن الله لا يطلع على ما يبئس ويفعل ويخطط في الظلام ، يخبره الله تعالى أنه يعلم أدق الخيانات . قال تعالى : { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ }¹.

فإذا تربى المسلم على الامتناع عن صغائر الخيانات فإنه لا يقع في الكبير منها ؛ كخيانة الدين والوطن والعرض ، وإذا كانت الرقابة الداخلية عنده فاعلة لدرجة تمنعه عن مثل هذه الخيانة فإن هذه الرقابة لا شك تمنعه عن غيرها من الخيانات .

ومن التربية الوقائية ما ربي الإسلام عليه أبناءه ؛ من الامتناع عن فعل ما قد يوصل إلى الخيانة ، ومن ذلك النهي عن التجسس ؛ ولو كان بالتقاط كلمة من شخصين يتناجيان ؛ قال تعالى : { وَلَا تَجَسَّسُوا }². " والمراد : النهي عن تتبع عورات المسلمين ومعاييبهم ، والاستكشاف عما ستروه "³. " والذي عليه الجمهور أن المراد ... النهي عن تتبع العورات مطلقا ، وعدّوه من الكبائر "⁴. وقد أخرج الشيخان - واللفظ للبخاري - عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : " إياكم والظنّ فإن الظنّ أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ، ولا تجسسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، ولا تباغضوا ، وكونوا عباد الله إخوانا "⁵. يقول القرطبي رحمه الله : " وذلك أنه قد يقع له خاطر التهمة ابتداء ، ويريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه ، ويتبصر ويستمع ؛ لتحقيق ما وقع له من تلك التهمة ، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك "⁶. فإذا كان قد نهى عن التجسس بقصد إثبات التهمة ، فما بالنا بمن طبعه تتبع المسلمين ، وملاحقتهم من أجل الإيقاع بهم ، من خلال التنصت على مكالماتهم ، وتتبع خطواتهم وذهابهم وإيابهم ، والتقاط ما يقولون ويتحدثون إلى الناس ، بل وأحيانا نقل ذلك عنهم بالكذب والتلفيق ؟

¹ سورة غافر ، آية 19 . وقد سبق إيراد المراد بالآية ، انظر : ص37-38

² سورة الحجرات ، آية 12

³ الزمخشري ، الكشاف ، (375/4) . وانظر : الطبري ، جامع البيان ، (135/26) .

⁴ الألويسي ، روح المعاني ، (157/26) .

⁵ البخاري ، الجامع الصحيح المختصر ، كتاب : الأدب ، باب : ما ينهى عن التحاسد والتدابير ، حديث : 5717 ، (2253/5) . مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب : البر والصلة والآداب ، باب : تحريم الظن والتجسس ... ، حديث : 2563 ، (1985/4) .

⁶ القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (331/16) .

ومن التربية الوقائية ما وصف به النبي عليه الصلاة والسلام حال المسلم اتجاه أخيه ؛ ومن ذلك عدم جواز خيانته ، قال النبي عليه الصلاة والسلام : " المسلم أخو المسلم ، لا يخونه ، ولا يكذبه ، ولا يخذله "1 . فالمسلم لا يخون أخاه المسلم ، خاصة إذا وثق به وأمنه على شيء من ماله ، أو عرضه ، أو غير ذلك . وأشد ذلك خيانة أعراض المجاهدين ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم ، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم إلا وقّف له يوم القيامة ، فيأخذ من عمله ما شاء ، فما ظنكم ؟ "2 .

ولقد كان من نتائج هذه التربية الوقائية أن خرج جيل من المؤمنين كانوا مشاعل هداية وارشاد لمن أتى بعدهم ، في الولاء لهذا الدين ولهذه الأمة . جيل منتمٍ لأمته في كل الظروف والأحوال ، لا يفرط في هذا الولاء وهذا الانتماء مهما حدث ، ثابت في ذلك لا يتغير في الشدة والرخاء ، وفي العسر واليسر ، وفي الرضا والغضب . لا يقبل مساومة على هذا المبدأ ، فهو جزء من دينه وعقيدته .

ومن نماذج هذا الجيل ما كان من كعب بن مالك رضي الله عنه ، لما تخلف عن غزوة تبوك دون عذر مقبول ، هو وصاحبيه مرارة بن الربيع وهلال بن أمية . فكان أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بهجرانهم ، ومقاطعتهم حتى من نساءهم . واستمر ذلك خمسين يوماً . وقد نزل فيهم قول الله تعالى يصف حالهم ، ويقرر توبة الله عليهم : { وَعَلَى الثَّلَاثَةِ

الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }3 .

¹ الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى السلمي ، ت279هـ ، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرين ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) ، كتاب : البر والصلة عن رسول الله ، باب : ما جاء في شفقة المسلم على المسلم ، حديث : 1927 ، (325/4) . قال الترمذي : حسن غريب . وقال الألباني : صحيح . الألباني ، محمد ناصر الدين ، ت1420هـ ، صحيح الجامع الصغير وزيادته ، المكتب الإسلامي - بيروت ، (ط2/1406هـ) ، حديث : 6706 ، (1136/2) .

² مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب : الإمارة ، باب : حرمة نساء المجاهدين وإثم من خانهم فيهن ، حديث : 1897 ، (1508/3) .

³ سورة التوبة ، آية 118

وقد حدّث كعب رضي الله عنه بحديث طويل فصلّ فيه تلك الأحداث . الشاهد فيه موقفه من عرض الخيانة عليه من ملك غسان ، الذي حاول استغلال الحالة النفسية التي كان عليها كعب ؛ من أجل جرّه إلى خيانة أهل دينه ، الذين فرضوا عليه عقوبة الهجران والمقاطعة . وهو الأسلوب الذي لا يغفل عنه أعداء هذه الأمة في كل زمان . استغلال الفرص لدس سمهم ووساوسهم ، وإغراء الضعفاء لينزلقوا في وحل الخيانة ، محاولة منهم للصيد في الماء العكر . إلّا أن ذلك الجيل العظيم أمثال كعب رضي الله عنه ، يعلمنا درس تلو الدرس في الثبات على الدين والمبدأ ، في أصعب الظروف والأحوال . ولنستمع إليه يحدث عن تلك الحادثة يقول : " فبينما أنا أمشي بسوق المدينة ، إذا نَبَطِيٌّ من أنباط أهل الشَّام ، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدلُّ على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاعني ، دفع إليّ كتاباً من ملك غسان . فإذا فيه : أما بعد ، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك . ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك . فقلت لما قرأتها : وهذا أيضا من البلاء . فتيمّمتُ بها التُّور¹ ، فسجرتُه² بها³ ."

ومن التربية الوقائية ما يخبر به النبي صلى الله عليه وسلم عن أصناف من أهل النار ؛ محذرا من الخيانة حتى في أدق الأمور ، ومحذرا من عواقبها : " وأهل النار خمسة ... والخائن الذي لا يخفى له طمعٌ وإن دقَّ إلا خانته ، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك⁴ . ويقول أيضا ، مربيا أصحابه ، والمسلمين من بعدهم على عدم الخيانة والغدر في الغنائم : " اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا⁵ . ولو كان الأمر في أيسر الأشياء ، وأدقها في أعين الناس . قال عليه الصلاة والسلام : " من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطا فما فوقه ، كان غلولا يأتي به يوم القيامة⁶ ."

¹ التُّور : الذي يخبز فيه . الرازي ، مختار الصحاح ، (33/1) .

² السجر : إيقادك في التُّور . ابن منظور ، لسان العرب ، (346/4) .

³ البخاري ، الجامع الصحيح المختصر ، كتاب : المغازي ، باب : حديث كعب بن مالك ، حديث : 4156 ، (4/1606) . وانظر : مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب : التوبة ، باب : حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ، حديث : 2769 ، (2125/4) .

⁴ مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب : الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب : الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ، حديث : 2865 ، (2197/4) .

⁵ مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب : الجهاد والسير ، باب : تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته ، حديث : 1731 ، (1357) .

⁶ مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب : الإمارة ، باب : تحريم هدايا العمال ، حديث : 1833 ، (1465/3) .

هذه هي التربية الوقائية في القرآن والسنة ، وهذا هو التحصين الذي لا بد من تحقيقه في أبناء المسلمين ، يجب أن نعلم أبناءنا أداء الأمانة ، يجب أن نعلمهم أن الدين أمانة ، ومن قصر في فرائض الله أو عصى الله تعالى ، أو خالف هدي نبيه صلى الله عليه وسلم ، فقد خان أمانة الدين . يجب أن نعلمهم أن الجوارح أمانة ، ومن استخدمها بخلاف ما جعلها الله تعالى له ، فقد خان هذه الجوارح ، وستشهد عليه يوم القيامة ، قال تعالى : { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }¹. يجب أن نعلمهم أن نعم الله تعالى علينا كلها أمانة ، وأن من لا يؤدي حق الله فيها خائن للنعمة كافر بها . يجب أن نعلمهم أن أعراض المسلمين والمسلمات أمانة ، وأن من يخوض فيها ويهتك سترها خائن لأمانة العرض . يجب أن نعلمهم أن أرض المسلمين ومقدساتهم أمانة ، وأن المفرط فيها والساكت عن تدينسها ، والذي يوالي ويصالح مدنسها والمعتدين عليها ، خائن لأمانة الوطن والمقدسات . يجب أن نلقن أطفالنا ونرضعهم ونطعمهم ونسقيهم ونلبسهم الوفاء بالأمانات ، وأدائها على أكمل وجه ، وبُغض ومحاربة الخائنين . بهذا يتحقق التحصين ، وبهذا تتحقق الوقاية من الوقوع في وحل الخيانة .

المطلب الثاني : بيان طريقة التعامل مع الخائنين

في هذا المطلب سيتم تتبع الإرشادات القرآنية في محاربة ظاهرة الخيانة ، وكيفية التعامل مع الخائنين ، خاصة خائني الدين والوطن أو (الخيانة العظمى) ، وتصنيف هذه الإرشادات إلى نقاط حسب ورودها في كتاب الله تعالى .

أولاً : تقديم الدعوة والنصح إليهم

قال تعالى : { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا } . إن تقديم النصح ، والإرشاد ، والتوجيه ، والموعظة ، والتذكير لأهل الخيانة لا بد منه ، فهو الطريقة التي يجب أن تكون الأولى في معالجة ظاهرة الخيانة . فالله سبحانه وتعالى أرسل الرسل لهذه الغاية النبيلة ، أرسلهم لدعوة جميع الناس : المؤمن والكافر والمعاند والمنافق والخائن ، وحتى المعادي . فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام لا يقاتل قوماً قبل أن يدعوهم ؛ روى الإمام مسلم عن سليمان بن بريدة عن أبيه رضي الله عنهما ،

¹ سورة النور ، آية 24

قال : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميراً على جيش أو سرية ، أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال : اغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً . وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال ، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ؛ يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فسلهم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم " ¹.

وهكذا يجب تقديم الدعوة لكل أحد ، فالله تعالى وجّه موسى وهارون عليهما السلام لدعوة فرعون المثلّاه الجبار ونصّحه وتذكّره ، قال تعالى : { أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّيْنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَىٰ } ².

ومن هنا يبين القرآن الكريم المنهج السليم في التعامل مع هؤلاء وأمثالهم ، المنهج الذي يقوم على خطة مدروسة ، وليس على ردات الفعل غير المحسوبة . فالمسألة تتعلق بعلاج ظاهرة خطيرة ، بالغة الأثر المدمر على المجتمع ؛ ولذا ينبغي أن يتم التعامل معها من خلال خطة مدروسة ومنهجية . ومن البدهي أن يتقدم النصح والإرشاد والدعوة على غير ذلك من الوسائل . وهذا الذي تعلمنا إياه القرآن الكريم ، قال تعالى في باب دعوة الخائنين ونصحهم : { أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا } ³. سياق الآيات يبين أن المقصود بالذين في قلوبهم مرض هم أهل الخيانة والنفاق ، والله تعالى يعلمنا من خلال مخاطبة النبي عليه الصلاة والسلام ، كيفية التعامل معهم ،

¹ مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب : الجهاد والسير ، باب : تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيرها ، حديث : 1731 ، (3/1357) .

² سورة طه ، آية 43-44

³ سورة النساء ، آية 63

فيقول : (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ) ، " عظمهم بتخويفك إياهم بأس الله أن يحل بهم ، وعقوبته أن تنزل بدارهم ، وحذرهم من مكروه ما هم عليه من الشك في أمر الله وأمر رسوله ¹ . إذا تعلمنا الآيات أن نستخدم أسلوب الوعظ والإرشاد ، والإنذار والترهيب والترغيب ، في معالجة ظاهرة النفاق ، والتعامل مع أهل الخيانة ، الذين تمتلئ قلوبهم بالخيانة والشر والفساد والنفاق .

وفي معنى قوله تعالى : (وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا) يقول أبو السعود : " وقل لهم في أنفسهم : في حق أنفسهم الخبيثة ، وقلوبهم المنطوية على الشرور التي يعلمها الله تعالى . أو في أنفسهم خاليا بهم ، ليس معهم غيرهم ، مساراً بالنصيحة ؛ لأنها في السر أنجع ، قولاً بليغاً : مؤثراً ، واصلاً إلى كنه المراد ، مطابقاً لما سيق له من المقصود ... أي قل لهم قولاً بليغاً في أنفسهم مؤثراً في قلوبهم ، يگتتمون به اغتناماً ، ويستشعرون منه الخوف استشعاراً : وهو التوعد بالقتل والاستئصال ، والإيذان بأن ما في قلوبهم من مكونات الشر والنفاق غير خافٍ على الله تعالى ، وأن ذلك مستوجب لأشد العقوبات ، وإنما هذه المكافأة والتأخير ؛ لإظهارهم الإيمان والطاعة ، وإضمارهم الكفر ، ولئن أظهروا الشقاق ، وبرزوا بأشخاصهم من نفاق النفاق ليمسئهم العذاب ، إن الله شديد العقاب ² .

إذاً باب التوبة مفتوح ، فمن أراد من هؤلاء العودة إلى دين الله ، وإلى جادة الصواب ، فإن الله تعالى يقبل منه ، ويقبل منه المؤمنون ، ولكن إذا أصر على عصيان الله تعالى ، وإيقاع الأذى بالمؤمنين ، بالمكر والخديعة والخيانة ، فإن العقاب الأليم في انتظاره في الدنيا والآخرة ، وإن المؤمنين لن يألوا جهداً في إلزام هؤلاء طاعة الله تعالى والاستقامة على نهجه . " والتعبير العجيب : (وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً) ، تعبير مصور ، كأنما القول يودع مباشرة في الأنفس ، ويستقر مباشرة في القلوب ، وهو يرغبهم في العودة والتوبة والاستقامة والاطمئنان إلى كنف الله وكنف رسوله ، بعد كل ما بدا منهم من الميل إلى الاحتكام إلى الطاغوت ، ومن الصدود عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، حين يدعوهم إلى التحاكم إلى الله والرسول . فالتوبة بابها مفتوح ، والعودة إلى الله لم يفت أوانها بعد ، واستغفار الله من الذنب ، واستغفار الرسول لهم ، فيه القبول ، ... وأمام الذين ظلموا أنفسهم بميلهم عن هذا المنهج ، الفرصة التي

¹ الطبري ، جامع البيان ، (5/156) .

² أبو السعود ، إرشاد العقل السليم ، (2/196) .

دعا الله المنافقين إليها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورغبتهم فيها . { وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا

رَّحِيمًا }¹. والله تواب في كل وقت على من يتوب ، والله رحيم في كل وقت على من يؤوب ، وهو سبحانه يصف نفسه بصفته ، ويعد العائدين إليه ، المستغفرين من الذنب ، قبول التوبة وإفاضة الرحمة . والذين يتناولهم هذا النص ابتداء ، كان لديهم فرصة استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد انقضت فرصتها ، وبقي باب الله مفتوحا لا يغلق ، ووعد قائما لا ينقض ، فمن أراد فليقدم ، ومن عزم فليتقدم².

وقد أخبر الله تعالى أن التائب منهم ، يتحول مباشرة بتوبته إلى صف المؤمنين ، له ما لهم وعليه ما عليهم ، بل سماهم الله تعالى إخوانا للمؤمنين في الدين بعد أن يتوبوا ، فقال الله تعالى : { فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ }³. " فالذين تابوا من النفاق ، وأصلحوا ما فسد من أحوالهم ، وتمسكوا بشرع الله ووثقوا بوعده ، وأخلصوا العمل بترك الرياء والنفاق وطاعة غير الله ، فهم مع المؤمنين في أحكام الدنيا والآخرة⁴ . قال تعالى : { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ }⁵ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا }⁶.

ثانياً : بغض الخائنين والبراءة منهم

من البدهي عند التعامل مع جريمة الخيانة أن يتخذ المسلم من أهل الخيانة موقفا معاديا ، يبدأ ببغضهم وكراهيتهم ، وذلك أضعف الإيمان . وكيف يمكن للمسلم أن يحب أهل الخيانة والعدو ، والله تعالى سطر بغضه لهم في كتابه العزيز ؟ قال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ }⁶. " أي إن الله لا يحب كل خوان يخون الله ، فيخالف أمره ونهيه ، ويعصيه ، ويطيع

¹ سورة النساء ، آية 64

² قطب ، في ظلال القرآن ، (424/5 - 425) .

³ سورة التوبة ، آية 11

⁴ الزحيلي ، وهبة ، التفسير الوجيز ، دار الفكر - دمشق ، (ط2/1416هـ) ، (ص102) .

⁵ سورة النساء ، آية 146

⁶ سورة الحج ، آية 38

الشيطان" ¹. وقال أيضا : { إِنَّ اللَّهَ لَا تُحِبُّ الْحَآيِينَ } ². " والمراد من نفي الحب إثبات البغض" ³.

ومن مقتضيات هذا البغض ، وهذا الحاجز النفسي بين أهل الإيمان وأهل الخيانة ، الإعراض عنهم ، قال تعالى : { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ } ⁴. وقال تعالى : { وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ^ط وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ^ط وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا } ⁵. فالأمر بالإعراض عنهم ، يعني تركهم ، والتميز عنهم ، وعدم المبالاة بهم ⁶.

وقال تعالى فيهم : { فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ^ط إِنَّهُمْ رِجْسٌ } ⁷. فأعرضوا عنهم واحتقروهم ؛ لأن بواطنهم واعتقاداتهم قد نجست بسبب خيانتهم ⁸. فهذا " بوجهه ربه إلى الإعراض عنهم فعلا ، لكن لا بمعنى العفو والصفح ؛ وإنما بمعنى الإهمال والاجتناب . معللا ذلك بأنهم دنسٌ يُتجنب ويُتوقى . { فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ^ط إِنَّهُمْ رِجْسٌ } : وهو التجسيم الحسي للدنس المعنوي . فهم ليسوا رجسا - أي دنسا - بأجسادهم وذواتهم ، إنما هم رجسٌ بأرواحهم وأعمالهم . ولكنها الصورة المجسمة أشد بشاعة وأبين قذارة ، وأدعى إلى التقزز والاشمئزاز ، وإلى الاحتقار كذلك والازدراء" ⁹.

¹ الطبري ، جامع البيان ، (171/17) . وانظر : أبو السعود ، إرشاد العقل السليم ، (108/6) . الصابوني ، صفوة التفسير ، (267/2) .

² سورة الأنفال ، آية 58

³ الألوسي ، روح المعاني ، (23/10) . وانظر : السعدي ، تيسير الكريم الرحمن ، (ص 324) .

⁴ سورة النساء ، آية 63

⁵ سورة النساء ، آية 81

⁶ انظر : السمرقندي ، بحر العلوم ، (346/1) . ابن عطية ، المحرر الوجيز ، (73/2) . السعدي ، تيسير الكريم الرحمن ، (ص 184) .

⁷ سورة التوبة ، آية 95

⁸ ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، (383/2) .

⁹ قطب ، في ظلال القرآن ، (283/11) .

ومن مظاهر البراءة منهم عدم موالاتهم ، قال تعالى عنهم : { وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا

كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ^ط فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا
فَخِذُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ^ط وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ¹ . أي تمنوا
أن تكونوا أنتم وهم في الكفر والنفاق سواء ، فأمر الله تعالى بالبراءة منهم ، فقال : (فَلَا
تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا) ، كما قال تعالى : { مَا لَكُمْ مِّن وَّلِيَّةٍ مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ
يُهَاجِرُوا } ² . والهجرة المقصودة هنا هي هجرة المسلم ما حرم الله عليه ، وذلك بالتوبة والإنبابة
إلى الله . كما قال صلى الله عليه وسلم : (والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) ³ . وكذلك هجرة
هجرة أهل المعاصي حتى يرجعوا تائبين لهم ، فيقاطعون ويهجرون حتى يتوبوا ، كما فعل النبي
صلى الله عليه وسلم مع كعب وصاحبيه ⁴ . بهذا تتحقق البراءة من أهل الخيانة ⁵ .
وبناء على ما سبق فلا يجوز اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، لا يجوز مناصرتهم ،
ولا الاستنصار بهم ، وهو معنى قوله تعالى : (وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) ، فقد
" دلت الآية على أنه لا يجوز موالاتة المشركين والمنافقين والمشتهرين بالزندقة ⁶ والإلحاد ، وهذا
وهذا متأكد بعموم قوله تعالى : (يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ) ⁷
(⁷ ؛ والسبب فيه أن أعز الأشياء وأعظمها عند جميع الخلق هو الدين ؛ لأن ذلك هو الأمر الذي
الذي به يُتقرب إلى الله تعالى ، ويُتوسل به إلى طلب السعادة في الآخرة . وإذا كان كذلك كانت

¹ سورة النساء ، آية 89

² سورة الأنفال ، آية 72

³ البخاري ، الجامع الصحيح المختصر ، كتاب : الإيمان ، باب : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، حديث :
10 ، (13/1) .

⁴ في قصة تخلفهم عن غزوة تبوك . حيث قاطعهم المسلمون شهرا كاملا مع أنهم لم يكونوا من المنافقين . انظر : ابن
هشام ، السيرة النبوية ، (213/5) . البوطي ، محمد سعيد رمضان ، فقه السيرة ، دار الفكر - بيروت ، (طبعة
سنة 1410 هـ) ، (ص403) .

⁵ انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (308/5) .

⁶ الزنديق عند أهل الكلام والعامية هو : الجاحد ، المعطل ، وعند الفقهاء هو : المنافق . انظر : ابن تيمية ، مجموع
الفتاوى ، (471/7) .

⁷ سورة الممتحنة ، آية 1

العداوة الحاصلة بسببه أعظم أنواع العداوة ، وإذا كان كذلك امتنع طلب المحبة والولاية في
الموضع الذي يكون أعظم موجبات العداوة حاصلًا فيه ، والله أعلم ¹.

وفي الإشارة إلى عدم موالاتهم ، يقول تعالى في وصف المنافقين : { الْمُنَافِقُونَ

وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ }². " المنافقون والمنافات من طينة واحدة ، وطبيعة

واحدة . المنافقون في كل زمان وفي كل مكان تختلف أفعالهم وأقوالهم ، ولكنها ترجع إلى طبع
واحد ، وتتبع من معين واحد : سوء الطوية ، ولؤم السريرة ، والغمز والدس ، والضعف عن
المواجهة ، والجبن عن المصارحة . تلك سماتهم الأصلية ³. فهم قد جمع بينهم النفاق والبعد
عن الإيمان والخيانة ، فتشابههم كتشابه أجزاء الشيء الواحد . ولاشترآكهم في كل ذلك ،
اشتركوا في تولي بعضهم بعضا ، وفي ذلك قطع للمؤمنين من ولايتهم ⁴.

ومن مظاهر البراءة من أهل الخيانة عدم طاعتهم والركون إليهم ، ولو كان ذلك في أيسر

الأمر ؛ وذلك لأنهم مخادعون ، ولا يبغون إلا الشر والسوء بالمؤمنين ، قال تعالى محذرا نبيه

صلى الله عليه وسلم ، والمؤمنين من بعده ، من طاعتهم : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ

الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا }⁵. أي فلا تطع كل منافق

وخائن ، فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة . فطاعتهم في بعض الأمور تنقض التقوى وتناقضها ،

واتباع أهوائهم فيه الضلال عن الصواب ، وعليه فلا تطعهم ، ولا تسمع منهم ، ولا تستشرهم ⁶.

تستشرهم ⁶.

إن جاء في الآية الكريمة النهي عن طاعة الكافرين والمنافقين ، واتباع أمرهم ونهيهم ،

والاستماع إلى تحريضهم ، والاستجابة والخضوع لضغوطهم ، وتنفيذ رغباتهم . " ثم يبقى ذلك

النهي قائما في كل بيئة وكل زمان ، يحذر المؤمن أن يتبعوا آراء الكافرين والمنافقين إطلاقا ،

وفي أمر العقيدة ، وأمر التشريع ، وأمر التنظيم الاجتماعي بصفة خاصة . ليبقى منهجهم

¹ الرازي ، التفسير الكبير ، (10/176) .

² سورة التوبة ، آية 67

³ قطب ، في ظلال القرآن ، (10/249) .

⁴ انظر : البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (3/156) . السعدي ، تيسير الكريم الرحمن ، (ص343) . الصابوني ، صفوة

التفاسير ، (2/508) .

⁵ سورة الأحزاب ، آية 1

⁶ انظر : ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، (3/466) . السعدي ، تيسير الكريم الرحمن ، (ص657) .

خالصا لله ، غير مشوب بتوجيه من سواه . ولا يندع أحد بما يكون عند الكافرين والمنافقين من ظاهر العلم والتجربة والخبرة - كما يسوغ بعض المسلمين لأنفسهم في فترات الضعف والانحراف - فإن الله هو العليم الحكيم ، وهو الذي اختار للمؤمنين منهجهم وفق علمه وحكمته¹.

ومن البراءة منهم ترك الدفاع عنهم وتوفير الغطاء لهم ، قال تعالى : { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ

الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ حَصِيمًا ﴿١٥٦﴾

وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٧﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ

أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا ﴿١٥٨﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا

يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ

مُحِيطًا ﴿١٥٩﴾ هَتَأْتُمْ هَتُوءًا جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا }². "إننا نحس في التعبير صرامة ، يفوح منها

الغضب للحق ، والغيرة على العدل ، وتشيع في جو الآيات وتفيض منها . وأول ما يبدو هذا في

تذكير رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنزيل الكتاب إليه بالحق ليحكم بين الناس بما أراه الله .

وإتباع هذا التذكير بالنهي عن أن يكون خصيما للخائنين ، يدافع عنهم ويجادل . وتوجيهه

لاستغفار الله سبحانه عن هذه المجادلة ... ثم تكرار هذا النهي ، ووصف هؤلاء الخائنين ، الذين

جادل عنهم صلى الله عليه وسلم بأنهم يختانون أنفسهم ، وتعليل ذلك بأن الله لا يحب من كان

خوانا أثيما ... وهم خانوا غيرهم في الظاهر ، ولكنهم في الحقيقة خانوا أنفسهم . فقد خانوا

الجماعة ومنهجها ومبادئها التي تميزها وتفردتها ، وخانوا الأمانة الملقاة على الجماعة كلها ،

وهم منها ، ثم هم يختانون أنفسهم في صورة أخرى ، صورة تعريض أنفسهم للإثم الذي

يجازون عليه شر الجزاء ؛ حيث يكرههم الله ، ويعاقبهم بما أثموا . وهي خيانة للنفس من غير

شك . وصورة الثالثة لخيانتهم لأنفسهم ؛ وهي تلويث هذه الأنفس ، وتدنيها بالمؤامرة والكذب

والخيانة . (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا) : وهذه عقوبة أكبر من كل عقوبة ، وهي

¹ قطب ، في ظلال القرآن ، (531/21 - 532) .

² سورة النساء ، الآيات 105 - 109

تلقى إلى جانبها إحياءً آخر ؛ فالذين لا يحبهم الله لا يجوز أن يجادل عنهم أحد ، ولا أن يحامي عنهم أحد ، وقد كرههم الله للإثم والخيانة ¹.

أخرج الترمذي والحاكم وغيرهما في سبب نزول هذه الآيات عن قتادة بن النعمان قال : " كان أهل بيت منا يقال لهم : بنو أبيرق : بشر وبشير ومبشر . وكان بشير رجلاً منافقاً ، وكان يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ، ثم ينحله ² إلى بعض العرب ، ثم يقول : قال فلان كذا ، وقال فلان كذا . فإذا سمع أصحاب رسول الله ذلك الشعر قالوا : والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث . فقال : أوكلما قال الرجال قصيدة أضموأ ³ ، وقالوا : ابن أبيرق قالها ؟ قال : وكانوا أهل بيت فاقه وحاجة في الجاهلية والإسلام . وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير . وكان الرجل إذا كان له يسار ، فقدمت ضافطة ⁴ من الشام بالدرمك ⁵ ، ابتاع الرجل منهم فخص به نفسه ، فأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير . فقدمت ضافطة من الشام ، فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملاً من الدرمة ، فجعله في مشربة ⁶ له . وفي المشربة سلاح له درعان ، وسيفاهما ، وما يصلحهما . فعدي عليه من تحت الليل ، فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح . فلما أصبح أتاني عمي رفاعة ، فقال : يا ابن أخي ، تعلم أنه قد عدي علينا في ليلتنا هذه ، فنقبت مشربتنا ، فذهب بسلاحنا وطعامنا . قال : فتجسسنا في الدار وسألنا . فقيل لنا : قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة ، ولا نرى فيما نراه إلا على بعض طعامكم . قال : وكان بنو أبيرق قالوا - ونحن نسأل في الدار - : والله ما نرى صاحبكم ⁷ إلا لبيد بن سهيل - رجل منا له سلاح وإسلام - فلما سمع بذلك لبيد اخترط سيفه ، ثم أتى بني أبيرق فقال : والله ليخالنكم هذا السيف ، أو لتبينن هذه السرقة . قالوا : إليك عنا أيها الرجل فوالله ما أنت بصاحبها . فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها . فقال عمي : يا ابن أخي لو أتيت رسول الله فذكرت ذلك له .

¹ قطب ، في ظلال القرآن ، (515/5-516) .

² نحله القول : أضاف إليه القول ونسبه إليه . انظر : الرازي ، مختار الصحاح ، (ص271) . السعدي ، الأفعال ، (224/3) .

³ الأضم : الحقد والحسد والغضب . ابن منظور ، لسان العرب ، (18/12) .

⁴ الضافطة : الذي يجلب الميرة والمتاع إلى المدن .. وكانوا يومئذ قوماً من الأنباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت . ابن منظور ، لسان العرب ، (344/7) .

⁵ الدرمة : الدقيق . انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، (423/10) . الفراهيدي ، الخليل بن أحمد ، كتاب العين ، تحقيق : مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال (بدون بلد نشر ولا طبعة ولا سنة نشر) ، (429/5) .

⁶ المشربة : الغرفة . ابن منظور ، لسان العرب ، (493/1) .

⁷ أي الذي سرق مالكم .

قال قتادة : فأتي رسول الله ، فذكرت ذلك له ، فقلت : يا رسول الله إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمي رفاعة ، فنقبوا مشربة له ، وأخذوا سلاحه وطعامه ، فليردوا علينا سلاحنا ، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه . فقال رسول الله : سأنظر في ذلك . فلما سمع ذلك بنو أبيرق أتوا رجلا يقال له أسير بن عروة ، فكلموه في ذلك ، واجتمع إليه ناس من أهل الدار ، فأتوا رسول الله ، فقالوا : يا رسول الله إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت . قال قتادة : فأتي رسول الله فكلمته . فقال : عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ، ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثبت ؟ قال : فرجعت ، ولوددت أني خرجت من بعض مالي ، ولم أكلم رسول الله في ذلك . فأتي عمي رفاعة ، فقال : يا ابن أخي ما صنعت ؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله . فقال : الله المستعان . فلم نلبث أن نزل القرآن : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا) : يعني بني أبيرق . (وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهُ) : أي مما قلت لقتادة . (إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) . (وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ تَحْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ) : أي بني أبيرق . (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ حَوَآنًا أَيْمًا) ¹ .

وفيما مضى " دليل على أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن أحد إلا بعد أن يعلم أنه محق " ² . وفيه إشارة إلى عدم جواز التستر على المجرمين والخائنين ، والدفاع عنهم ، وتوفير الغطاء لهم . وعوداً على بدء ، فإنه يجب بدلا عن ذلك البراءة منهم ومفارقتهم وعدم مخالطتهم في منكرهم وخيانتهم وتأمرهم ، بل عدم مجالستهم وهم على ما هم عليه من الباطل والخيانة .

ومن مقتضيات بغض الخائنين والبراءة منهم **عدم مجاملتهم في باطلهم** ، وعدم مجالستهم في مجالس منكرهم وفسقهم ، بل مفارقتهم والتمايز عنهم ، قال تعالى : { وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ

¹ الترمذي ، سنن الترمذي ، كتاب : تفسير القرآن عن رسول الله ، باب : ومن سورة النساء ، حديث : 3036 ، (244/5) ، قال الترمذي : حديث غريب . وقال الألباني : حسن . الألباني ، محمد ناصر الدين ، ت 1420هـ ، صحيح وضعيف سنن الترمذي ، مكتبة المعارف - الرياض ، (ط1/بدون سنة نشر) ، (ص679) . وانظر : الحاكم ، المستدرک على الصحيحين ، حديث : 8164 ، (426/4-427) . قال الحاكم : حديث صحيح على شرط مسلم .

² الشوكاني ، فتح القدير ، (511/1) .

فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ - إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ¹ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا¹.

وفي ذلك يقول سيد قطب ، رحمه الله : " وأولى مراتب النفاق أن يجلس المؤمن مجلسا يسمع فيه آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها ، فيسكت ويتغاضى . يُسَمَّى ذلك تسامحا ، أو يُسَمَّى دهاء ، أو يُسَمَّى سعة صدر وأفق ، وإيمانا بحرية الرأي . وهي هي الهزيمة الداخلية تدب في أوصاله ، وهو يموه على نفسه في أول الطريق ، حياءً منه أن تأخذه نفسه متلبسا بالضعف والهوان . إن الحمية لله ، ولدين الله ، ولآيات الله ، هي آية الإيمان . وما تَفَتَّرَ هذه الحمية إلا وينهار بعدها كل سد ، وينزاح بعدها كل حاجز ، وينجرف الحطام الواهي عند دفعة التيار . وإن الحمية لَنُكِبَتْ في أول الأمر عمدا ، ثم تهمد ، ثم تخمد ، ثم تموت . فمن سمع الاستهزاء بدينه في مجلس ، فأما أن يدفع ، وإما أن يقاطع المجلس وأهله . فأما التغاضي والسكوت فهو أول مراحل الهزيمة ، وهو المعبر بين الإيمان والكفر على قنطرة النفاق² .

وقد ضرب القرآن الكريم أمثلة مدوية في البراءة من أهل الكفر ومن خان الأنبياء في الدين ، فلم يتبع دعوتهم ، ولم يسلك طريقهم ، بل حاد وعادى ، فكانت البراءة التي لا تقبل التأويل ، حتى مع الأهل وذوي القربى . ومن ذلك قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه الكافر قال تعالى : { وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ }³ . استغفر لأبيه المشرك أول الأمر ، " فلما تبين له وعلم أنه الله عدو خلاه وتركه ، وترك الاستغفار له ، وآثر الله وأمره عليه ، فتبرأ منه حين تبين له أمره⁴ .

وهو ذات الأمر الذي أمر الله تعالى به نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، والمؤمنين ، بالبراءة من أهل الشرك ، وعدم الاستغفار لهم ، قال تعالى في الآية السابقة : { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا

¹ سورة النساء ، آية 140

² قطب ، في ظلال القرآن ، (557/5-558) .

³ سورة التوبة ، آية 114

⁴ الطبري ، جامع البيان ، (41/11) .

تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ¹. جاء في سبب نزول هذه الآية "عن علي قال : سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت له : أتستغفر لأبويك وهما مشركان ؟ فقال : أوليس استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك ؟ فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت ..."². "وعن سعيد بن المسيب عن أبيه أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، وعنده أبو جهل ، فقال : أي عم ، قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاجُّ لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزالا يكلمانه ، حتى قال آخر شيء كلمهم به : على ملة عبد المطلب ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لأستغفرن لك ما لم أنه عنه ، فنزلت "³.

وهكذا يحدد القرآن الكريم طبيعة العلاقة بين المؤمن وأهل الخيانة . إنها المفصلة في الاعتقاد والفكر والسلوك . مفصلة القلوب والجوارح ؛ حتى لا تختلط الأمور ، وحتى يتميز الخبيث من الطيب ، وحتى لا يُعطى أهل الخيانة الفرص لتمير مؤامراتهم وأراجيفهم ومخططاتهم الخبيثة على المسلمين . حتى يبقوا معزولين مستقذرين ؛ حتى يراجعوا دينهم ويحسموا أمرهم ، لعل منهم من تدركه رحمة الله تعالى فيتوب ، فيتوب الله عليه .

ثالثاً : الاستعانة بالله عليهم

إن الأساس الأول الذي يعتمد عليه المسلم في تحصيل النفع ودفع الضر هو الاستعانة بالله تعالى ، فهو الذي سمي نفسه النافع الضار ، فلا ينفع ولا يضر إلا هو سبحانه ، ومن هنا لا بد للمسلم وهو يواجه خطر الخيانة العظيم أن يتوجه إلى الله العظيم في دفع هذا الضر والخطر . ومن استعان بالله قَوِي ، ومن توجه إلى الله هُدِي . والاستعانة بالله تعالى لا تعني بحال من الأحوال ترك الأخذ بالأسباب ؛ بل إن من مقتضيات التوكل على الله تعالى الأخذ بالأسباب ، وإلا سُمِّي ذلك توكلاً .

¹ سورة التوبة ، آية 113

² الترمذي ، الجامع الصحيح ، كتاب : التفسير ، باب : ومن سورة التوبة ، حديث : 3101 ، (281/5) . قال الترمذي : هذا حديث حسن .

³ البخاري ، الجامع الصحيح المختصر ، كتاب : المناقب ، باب : قصة أبي طالب ، حديث : 3671 ، (1409/3) . وانظر : مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب : الإيمان ، باب : الدليل على صحة إسلام ... ، حديث : 24 ، (54/1) .

ولا بد أن يتحلى المسلم بتقوى الله تعالى ، والصبر على تنفيذ أوامره تعالى ؛ لكي يتقي كيد الكائدين وخيانة الخائنين ؛ وليكون في حفظ الله تعالى وحمائته ، قال تعالى : { وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ }¹. هذه الآية نزلت في المنافقين² ، يقول الرازي رحمه الله : " واعلم أن هذه الآية من تمام وصف المنافقين ، فبين تعالى أنهم مع ما لهم من الصفات الذميمة ، والأفعال القبيحة ، مترقبون نزول نوع من المحنة والبلاء بالمؤمنين"³، وقيل الآية في اليهود⁴. فمن صبر على أداء أوامر الله تعالى ، والتزم شرعه ، واتقى وتجنب كل ما نهى الله عنه ، كان في حفظ الله تعالى ، لا يضره كيد الكافرين ولا حيل المحتالين ولا خيانة الخائنين⁵، وذلك " ببركة الصبر والتقوى ؛ لكونهما من محاسن الطاعات ومكارم الأخلاق"⁶.

وقد أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أنه حاميهم من مكر الكفار وكيدهم وخذاعهم ، قال تعالى : { وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ }⁷. ومعنى الآية : وإن يريدوا أن يخدعوك يا محمد - والخطاب لكل المسلمين المسلمين إلى يوم القيامة - وهم مُضْمَرُونَ الغدر والخذع والخيانة ، فإن حسبك الله : أي كافيك ما تخافه من شرورهم بالنكث والغدر . فلا تخف من خدعهم ومكرهم ، فإن الله الذي قواك عليهم بالنصر فيما مضى ، هو الذي سينصرك ويقويك عليهم عند حدوث الخدع والنكث منهم⁸. ومن ذلك أيضا قول الله تعالى في مكر قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم : { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ

¹ سورة آل عمران ، آية 120

² انظر : الطبري ، جامع البيان ، (68/4) .

³ الرازي ، التفسير الكبير ، (177/8) .

⁴ الرازي ، تفسير القرآن العظيم ، (747/3) .

⁵ انظر : الرازي ، التفسير الكبير ، (177/8 - 178) .

⁶ الألويسي ، روح المعاني ، (41/4) .

⁷ سورة الأنفال ، آية 62

⁸ انظر : الشوكاني ، فتح القدير ، (322/2) .

الْمَكْرِينِ¹}. وقد روت كتب السير قصة ذلك الاجتماع التأمري . حيث " اجتمعوا في دار الندوة وانفقوا على قتل من جعله الله للناس قدوة ، ورصدوه في بيته ليلا ، وظنوا أنهم ينالون منه نيلا ، فخابوا وخسروا ، وبأفهار القدرة الإلهية كسروا². ومثل ذلك ما حل بمكر فرعون بالرجل المؤمن من قومه . قال تعالى : { فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكْرُوهٌ وَحَاقَ بِإِلَهِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ }³. " فقد دلت هذه الآية الكريمة على أن فرعون وقومه أرادوا أن يمكروا بهذا المؤمن الكريم ، وأن الله وقاه : أي حفظه ونجاه من أضرار مكربهم وشدائده ؛ بسبب توكله على الله ، وتفويضه أمره إليه⁴.

والله تعالى أمرنا بالاستعانة به والتوكل عليه ؛ للتحصن من كيد الخائنين ؛ قال تعالى : { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا }⁵. فالله يكفيك مضرتهم وكيدهم ، وينتقم وينتقم لك منهم ، وكفى بالله كافيا لمن توكل عليه ، ناصرا من استعان به⁶، والآية في المنافقين⁷ المنافقين⁷ .

وفي ختام هذا النقطة لا بد من القول إن معية الله تعالى مع المؤمنين ، فهو سبحانه بقوته وعظمته مع عباده يؤيدهم ويرعاهم وينصرهم ، وهو وليهم ، والخائنين لا مولى لهم ، قال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ }⁸. " بيِّن

¹ سورة الأنفال ، آية 30

² ابن حبيب ، الحسن بن عمر ، ت799هـ ، المقتفى من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، تحقيق : مصطفى محمد حسين الذهبي ، دار الحديث - القاهرة ، (ط1/1416هـ) ، (ص74) . وانظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ، (6/3).

³ سورة غافر ، آية 45

⁴ الشنقيطي ، محمد الأمين بن محمد بن المختار ، ت1393هـ ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، تحقيق : مكتب البحوث والدراسات ، دار الفكر - بيروت ، (طبعة سنة 1415هـ) ، (388/6) .

⁵ سورة النساء ، آية 81

⁶ انظر : النسفي ، مدارك التنزيل ، (1/236) . البيضاوي ، أنوار التنزيل ، (2/225) .

⁷ انظر : الرازي ، تفسير القرآن العظيم ، (3/1013) . الطبري ، جامع البيان ، (5/179) . ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، (1/530) .

⁸ سورة الحج ، آية 38

جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه يدفع السوء عن عباده الذين آمنوا به إيماناً حقاً ، ويكفيهم شر أهل السوء . وقد أشار إلى هذا المعنى في غير هذا الموضع ، كقوله تعالى : { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ }¹. وقوله : { أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ }²... وقوله : { وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ }³. وقوله : { وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ }⁴. إلى غير ذلك من الآيات ... لأن الإيمان بالله هو أعظم أسباب دفع المكاره⁵. ومن هنا كان على كل مؤمن مخلص أن يثق بوعد الله ويتأيده لعباده ، وبرده كيد الخائنين في نحورهم ، ولو بعد حين ، وأن لا يتوجه ولا يستعين إلا بالله تعالى .

رابعاً : الحذر من أراجيفهم وعدم الثقة بهم

يحذرنا القرآن الكريم من الثقة بالخائنين ؛ لأنهم ثعالب بشرية ماهرة ، وانتمائهم وتصديقهم ، فهم ليسوا محلاً للثقة والأمان ، قال تعالى في المنافقين⁶ المتخلفين عن الخروج للغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : { يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }⁷. فدأبهم الكذب والخداع ، فهم يعتذرون إليكم بأعذار واهية كاذبة عن عدم خروجهم معكم للجهاد . وتبين الآية الكريمة أن الله تعالى قد نبأ رسوله صلى الله عليه وسلم بكذبهم وخداعهم ، فهم مفضوحون في الدنيا ، قد كشف الله ما أسروا ، ولم يعد لهم تصديق وثقة عند المسلمين ، ولا تنطلي أكاذيبهم على أحد ، فقد نبأنا الله من أخبارهم ، وهم كذلك مكشوفون مفضوحون يوم القيامة ، حيث يردون إلى عالم الغيب

¹ سورة الطلاق ، آية 3

² سورة الزمر ، آية 36

³ سورة الروم ، آية 47

⁴ سورة الصافات ، آية 173

⁵ الشنقيطي ، أضواء البيان ، (261/5) .

⁶ انظر : الطبري ، جامع البيان ، (1/11) . القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (230/8) .

⁷ سورة التوبة ، آية 94

والشهادة ، يعني الذي يعلم السر والعلانية ، والذي لا يخفى عليه بواطن أمورهم وظواهرها ، فيخبرهم بأعمالهم كلها ، ويجازيهم عليها¹.

وقد سبق وصف الخائنين عند الحديث عن صفاتهم وأفعالهم بأنهم يحسنون الكذب والفساد ونسج الأباطيل ، بل ويقسمون على كذبهم ؛ لينخدع بهم الناس ويصدقونهم ، وهم لا يصدقون . فينبغي الحذر منهم ومما يقولون . وينبغي أن يكون موقف المؤمن من خدعهم وأكاذيبهم كما علمه القرآن : (قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ) . " وفروا عليكم معاذيركم ، فلن نطمئن إليكم ، ولن نصدقكم ، ولن نأخذ بظاهر إسلامكم كما كنا نفعل ؛ ذلك أن الله قد كشف لنا حقيقتكم ، وما تتطوي عليه صدوركم ، وقص علينا دوافع أعمالكم ، وحدثنا عن حالكم ، فلم تعد مستورة لا نرى إلا ظاهرها كما كنا من قبل معكم "².

ومن هنا يجب على المؤمنين اتخاذ موقف ثابت من كل ما يصدر من هؤلاء الخائنين من أقوال أو أفعال ، خاصة وأنهم يخططون ويدبرون في الخفاء ؛ للإيقاع بأبناء المجتمع المسلم ، وبث الأراجيف والإشاعات المغرضة . وعليه فينبغي الحذر كل الحذر من الوقوع في شركهم ، والانجرار إلى مكائدهم ، وتحقيق غاياتهم وأهدافهم .
ومن الأمثلة القرآنية على أراجيف الخائنين وكذبهم المغرض حادثة الإفك ، ورميهم السيدة الطاهرة عائشة رضي الله عنها بالفاحشة ، وبثهم الأراجيف والأباطيل ، وخوضهم في عرض أشرف الناس وأطهرهم ، وفي ذلك درس عظيم للمسلمين ، سطره القرآن العظيم في آيات تتلى إلى يوم القيامة³ ، مبينا كيفية التعامل مع ما يبثه هؤلاء من دس وكذب .

¹ انظر : الطبري ، جامع البيان ، (1/11 - 2) .

² قطب ، في ظلال القرآن ، (282/11) .

³ قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا نَحْسَبُهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا

مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ

وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأْنْفُسِهِنَّ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ

فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا

أَفْضَلْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ

هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ

هذه الحادثة الرهيبة المليئة بالدروس والعبر ، توضح المنهج القرآني في مواجهة الأخطار الناشئة عن التآمر على وحدة المجتمع الإسلامي وتماسكه ، الصادرة عن الخائنين والمنافقين . هذه الحادثة لا تقتصر على زمانها ، بل تمتد عبرها ودروسها إلى زماننا ، وإلى كل زمان إلى يوم القيامة . إنها ليست حادثة سطرها القرآن الكريم من أجل التعرف على ذلك الحدث وحسب ؛ ولكنها تعطينا المنهج والطريقة في مكافحة آفة الخيانة ، والتعامل مع آثارها ونتائجها . إنها درس تطبيقي عظيم في أفعال أهل الخيانة ، وخطورة ما يكرون بالمؤمنين ، درس واضح في كيفية التعامل مع ما يصدر عنهم من كيد ومكر وتدبير وخيانة ، يريدون بها إلحاق الأذى بالمؤمنين ، وبأعراضهم ، وأمنهم ، ومجتمعهم ، واستقرارهم . فلا بد من الحذر منهم ، وعدم الثقة بهم ، ودراسة كل ما يصدر عنهم بتأن وحذر . هذا الدرس الكبير الذي يتعلمه المسلمون من هذه الحادثة العظيمة .

وبعد أن تعلمنا الآيات الكريمة المنهج في كيفية التعامل مع ما يبثه أهل الخيانة من أراجيف وإشاعات مغرضة ، وهو ما أكدت عليه آية سورة الحجرات : { يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَهُمْ فَاسِقٌ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }¹ ، وهو ما أكدت عليه آية سورة الحجرات : { يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا

إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ }¹ ، يأتي التحذير من الله تعالى للمؤمنين ، بأن رحمة الله وفضله وعفوه ، هي التي حالت بين المؤمنين وعقوبة الله تعالى . (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) . " فهي فعلة تستحق العذاب العظيم ، العذاب الذي يتناسب مع العذاب الذي سببوه للرسول صلى الله عليه وسلم وزوجه وصديقه وصاحبه ، الذي لا يعلم عليه إلا خيرا ، والعذاب الذي يتناسب مع الشر الذي ذاع في الجماعة المسلمة وشاع ، ومس كل المقدسات التي تقوم عليها حياة الجماعة ، والعذاب الذي يناسب خبث الكيد الذي كادته عصابة المنافقين للعقيدة ؛ لتقتلها من جذورها ، حين تزلزل ثقة المؤمنين بربهم

عَظِيمٌ ﴿١١﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ { . سورة النور ، الآيات : 11- 18

¹ سورة الحجرات ، آية 6

ونبيهم وأنفسهم طوال شهر كامل ، حافل بالقلق والقلقلة والحيرة بلا يقين . ولكن فضل الله تدارك الجماعة الناشئة ، ورحمته شملت المخطئين ، بعد الدرس الأليم¹.

وقد وصف القرآن الكريم كيف راج ذلك الخبر ، وكيف تلقفته الألسن ، ووصف دور أهل الخيانة في ترويجه ، ودور الأبواق الجاهلة في ترديده . وهذا الوصف المذكور ينطبق انطباقاً كبيراً على حال الكثير من المسلمين اليوم ، الذين يرددون كل ما يسمعون ، دون تثبيت وتمحيص ، ودون اتباع للمنهج الذي أرشد إليه القرآن الكريم في كيفية التعامل مع الخبر أياً كان مصدره ، خاصة إذا كان مصدره أهل الفسق والخيانة . وهو ما أوقع المسلمين اليوم في الظلم ، والأذى لبعضهم . وقد أرشد النبي عليه السلام إلى هذا المنهج ، فقال : " كفى بالمرء كذباً أن يُحدّث بكل ما سمع "².

بهذا المنهج المبين يعلمنا القرآن الكريم كيفية التعامل مع نواتج الخيانة ، وبالتحديد مع الأراجيف والأكاذيب والإشاعات والأخبار المغرضة ، التي يبثها الخائنون في المجتمع الإسلامي ؛ بهدف زعزعة أمنه واستقراره . وهي ذات القاعدة وهو ذات المنهج الذي يقرره قوله تعالى : { وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ أَلْخَوْفِ أَدَاعَوْا بِهِ ۗ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا }³. وهنا " الكلام مسوق لبيان جناية أخرى من جنایات المنافقين ، ... وذلك أنه إذا غزت سرية من المسلمين ، أخبروا الناس عنها ، فقالوا : أصاب المسلمون من عدوهم كذا وكذا ، وأصاب العدو من المسلمين كذا وكذا ، فأفشوه بينهم من غير أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي يخبرهم به . ولا يكاد يخلو ذلك من مفسدة . وقيل : كانوا يقفون من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولي الأمر على أمن ووثوق بالظهور على بعض الأعداء ، أو على خوف ، فيذيعونه فينتشر ، فيبلغ الأعداء ، فتعود الإذاعة مفسدة . وقيل : الضعفاء يسمعون من أفواه المنافقين شيئاً من الخبر عن السرايا ، مَظنون غير معلوم

¹ قطب ، في ظلال القرآن ، (80/18) .

² مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب : المقدمة ، باب : النهي عن الحديث بكل ما سمع ، حديث : 5 ، (10/1) .

³ سورة النساء ، آية 83

الصحة ، فيذيعونه قبل أن يحقّقوه ، فيعود ذلك وبالاً على المؤمنين . وفيه إنكار على من يحدث بالشيء قبل تحقيقه ¹ .

وفعل المنافقين المذكور كان له على المسلمين بالغ " الضرر من وجوه : الأول : أن مثل هذه الإرجافات لا تنفك عن الكذب الكثير . والثاني : أنه إن كان ذلك الخبر في جانب الأمن ، زادوا فيه زيادات كثيرة . فإذا لم توجد تلك الزيادات ، أورث ذلك شبهة للضعفاء في صدق الرسول عليه السلام ؛ لأن المنافقين كانوا يروون تلك الإرجافات عن الرسول . وإن كان ذلك في جانب الخوف ، تشوّش الأمر بسببه على ضعفاء المسلمين ، ووقعوا عنده في الحيرة والاضطراب ؛ فكانت تلك الإرجافات سبباً للفتنة من هذا الوجه . الوجه الثالث : وهو أن الإرجاف سبب لتوفير الدواعي على البحث الشديد والاستقصاء التام ؛ وذلك سبب لظهور الأسرار . وذلك مما لا يوافق مصلحة المدينة . الرابع : أن العداوة الشديدة كانت قائمة بين المسلمين وبين الكفار ، وكان كل واحد من الفريقين في إعداد آلات الحرب ، وفي انتهاز الفرصة فيه . فكل ما كان آمناً لأحد الفريقين ، كان خوفاً للفريق الثاني . فإن وقع خبر الأمن للمسلمين ، وحصول العسكر وآلات الحرب لهم ، أرجف المنافقون بذلك ، فوصل الخبر في أسرع مدة إلى الكفار ، فأخذوا بالتحصن من المسلمين ، وفي الاحتراز عن استيلائهم عليهم . وإن وقع خبر الخوف للمسلمين ، بالغوا في ذلك وزادوا فيه ، وألقوا الرعب في قلوب الضعفة والمساكين . فظهر من هذا أن ذلك الإرجاف كان منشأً للفتن والآفات من كل الوجوه . ولما كان الأمر كذلك ذم الله تلك الإذاعة وذلك التشهير ، ومنعهم منه ² .

ولو أنهم ردوا ذلك الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى أولي الأمر منهم ، وهم كباراء الصحابة البصراء بالأمور ، أو أهل الاختصاص والتجربة في أمور الحرب ومكايدها ، لعلموا كيفية التعامل مع الأخبار والمواقف ، وما صح منها وما بطل ، وما يُسمح ببثه وما لا يسمح به ، ولتوقوا بذلك الأثر السيئ الناتج عن التسرع في بث الأخبار على علاتها³ .

وقد كان أهل الخيانة والنفاق على مدى الزمان ، في عهد النبي عليه الصلاة والسلام ، وفي كل العهود والأزمنة ، يتقنون فن الإرجاف ونشر الشائعات والأكاذيب ، خاصة في أوقات

¹ الآوسي ، روح المعاني ، (94/5) .

² الرازي ، التفسير الكبير ، (158/10) .

³ انظر : الزمخشري ، الكشاف ، (572/1) . الشوكاني ، فتح القدير ، (491/1) .

الأزمات وظروف اضطراب الأمن ؛ وذلك لتثبيط المسلمين والفت في عضدهم ، والنيل من صمودهم . وكانوا - للأسف - يجدون أبقا في كل زمان ، تردد أراجيفهم وتنقل أكاذيبهم ، وتبت شائعاتهم .

فقد بلغنا ما بث أهل الخيانة والغدر من أراجيف وأكاذيب ؛ بهدف التثبيط ، وضرب معنويات المسلمين في الحروب والغزوات . كما فعلوا في أحد والخندق وغيرها من المشاهد . فقد ذكر الله تعالى بعض ما كانوا قالوه في الخندق ، في لحظات الشدة والضيقة ، حيث بلغت القلوب الحناجر : { وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا

عُرُورًا }¹ . وفي أحد كان لإذاعة خبر موت النبي صلى الله عليه وسلم أبلغ الآثار السيئة في قوة الجيش المعنوية حين قال المنافقون : إن كان محمدا قد قتل ، فالحقوا بدينكم الأول ، وكاد الأمر يصل بالمؤمنين إلى الهزيمة المنكرة ، لولا نزول الوحي بالعلاج² ، حيث نزل قوله تعالى : { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَنْفَعُكُمْ إِيَّاهُ أَنْفَتُمْ عَلَى

أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْفَتِ عَلَى عَقْبِيهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ }³ .

والمشكلة في خطورة الخائنين تكمن في وجود سماعين لهم بين المؤمنين ، مما يؤدي إلى زيادة خطورة أراجيف وكيدهم ، قال تعالى في المنافقين⁴ : { لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا

وَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ }⁵ .

وتكمن خطورتهم أيضا في " أنهم إنما يحاربون الإسلام باسمه ، ويكيدون له بسلاحه . يتلاعبون بما فيه من أحكام باسم الإصلاح والمرونة والتمسك بروح التشريع ، ويستخرجون منه الفتاوى الملفقة المصطنعة ؛ تحقيقا لأمانيتهم ، أو تقربا إلى أسيادهم وأولياء نعمتهم .

¹ سورة الأحزاب ، آية 12

² انظر : الألوسي ، روح المعاني ، (72/4) . شلتوت ، محمود ، ت1963م ، تفسير القرآن الكريم ، دار القلم - بدون بلد النشر ، (ط3/1965م) ، (ص252) .

³ سورة آل عمران ، آية 144

⁴ انظر : الطبري ، جامع البيان ، (144/10) . القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، (156/8) .

⁵ سورة التوبة ، آية 47

والعظة التي ينبغي أن يأخذها المسلمون من هذا الدرس هي أن يحذروا عدوهم الخارجي مرة ، على أن يحذروا المنافقين فيهم ألف مرة ، وأن يحاربوا أول ما يحاربون ما قد يشيع بينهم من النفاق¹.

فالمنهج الإلهي في التعامل مع ما يبته أهل الخيانة من أراجيف وإشاعات يقتضي :

- 1- : امتناع الشرفاء عن الدس واختلاق الأكاذيب ، وتحريف الأخبار ؛ وذلك ليطيّر أهل الخيانة بهذا الفعل ، فيُعرفون به ، فيصبح علامة لهم لا يشاركون فيها أحد .
 - 2- : التأني والتأمل والتحقق من كل خبر ، خاصة إذا كان مصدره مشبوها . وأفضل الوسائل للتحقق من الخبر ، رده إلى أهله ؛ لمعرفة حقيقته .
 - 3- : عدم ترديد الأراجيف والأخبار قبل التحقق من صحتها ، وترك الإعلان عنها لأهل الأمر
 - 4- : إذا كان الخبر مما يمس عرض مسلم أو يَنْقُصُ منه ، أو فيه اتهام لأحد المسلمين ، فعلى المسلم المبادرة إلى رفض هذا الخبر ، ما لم يثبت بالدليل القاطع ، وعليه الظن بإخوانه المسلمين خيرا ، بل ووضع علامة الاستفهام على كل من يروجون مثل هذه الأخبار .
- بهذا تتم محاصرة كيد الخائنين ، والحد من تفاقم شرهم وأذاهم ، وهذا من وسائل علاج ظاهرة الخيانة وأثارها .

خامساً : محاربتهم والقسوة عليهم

أمرنا الله تعالى بقتال أهل الخيانة والغدر ، ولو كانوا معاهدين ، إذا بدر منهم ما يدل على خيانة العهد والميثاق ، وأرشدنا إلى التحلل من عهودهم وإخبارهم بذلك قبل قتالهم ، فلا يقبل الله تعالى للمسلم أن يُسْتَعْفَلَ ، وأن يُغْدَرَ به ويُؤْخَذَ على حين غرة تحت عنوان التمسك بالعهود ، بل إنه لا حرمة لكل الاتفاقيات والمواثيق والعهود في ظل الخيانة والغدر والتآمر ، وليس للمتأمرين الخائنين إلا القتال والحرب ؛ لأن استمرار المسالمة والمهادنة معهم مع وجود الغدر والخيانة والمخالفة للاتفاقيات والعهود منهم ، يعد تخاذلاً واستسلاماً وخنوعاً وذلة .

قال تعالى : { وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

الْخَائِنِينَ }². الخطاب في الآية الكريمة موجه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو عام لأُمَّته من بعده ، يقول تعالى ذكره : وإما تخافن يا محمد من عدو لك بينك وبينه عهد وعقد ، أن ينكث

¹ البوطي ، فقه السيرة ، (ص412) .

² سورة الأنفال ، آية 58

عهده وينقض عقده ويغدر بك ، وذلك هو الخيانة والغدر ، فرد عليهم عهدهم ، وأعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم ؛ بما كان منهم من ظهور آثار الغدر والخيانة منهم ، حتى يأخذوا للحرب آلتها ، وتبرأ أنت من الغدر . إن الله لا يحب الخائنين الغادرين . وذلك كالذي كان من بني قريظة حين نقضوا العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب ، بعد أن كانوا عاهدوه على مسالمتهم ، وعدم التآمر عليه ، وحماية المدينة من جهتهم ، فكانت موافقتهم للأحزاب على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم موجبا لرد عهدهم وقتالهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك حُكِمَ كل قوم أهل موادة للمؤمنين ظهر لإمام المسلمين منهم من دلائل الغدر مثل الذي ظهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من قريظة ، فحق على إمام المسلمين أن ينبذ إليهم على سواء ، ويؤذنه بالحرب¹ .

أخرج الترمذي من حديث سليم بن عامر قال : " كان بين معاوية وبين أهل الروم عهدٌ ، وكان يسيرُ في بلادهم ، حتى إذا انقضَى العهدُ أغارَ عليهم . فإذا رجلٌ على دابةٍ ، أو على فرسٍ ، وهو يقول : الله أكبرُ وفاءً لا غدرٌ ، وإذا هو عمرو بنُ عَبَسَةَ ، فسأله معاويةُ عن ذلك ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من كان بينه وبين قومٍ عهدٌ ، فلا يحلَّ عهداً ولا يشدَّنه حتى يمضي أمدُهُ ، أو ينبذَ إليهم على سواء . قال : فرجع معاويةُ بالناسِ² .

هذا الحكم في التعامل مع المعاهدين فيما إذا لو بدر منهم ما يدل على الخيانة ونقض العهد . فكيف إذا بدر منهم الخيانة بذاتها ونقض العهد والميثاق علانية ، بصورة لا تقبل التأويل ؟ كأن يبادروا إلى الاعتداء على أرض المسلمين ، أو أبناء المسلمين ، أو مقدساتهم ، هل يبقى بعد ذلك مجال للإبقاء على العهود معهم ؟ إن الإبقاء على العهد معهم يدل بذاته على الخيانة والتواطؤ معهم ضد المسلمين . وفيه مخالفة صريحة لما أمر الله تعالى به في الآية سالفة الذكر ، عدا عن الكثير من الآيات التي تأمر بقتال المعتدي ورد الاعتداء ، كقوله تعالى في ناقضي العهود منهم : { الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ

وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثَقَفْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ

يَذَكَّرُونَ }³ .

¹ انظر : الطبري ، جامع البيان ، (26/10 - 27) .

² الترمذي ، الجامع الصحيح ، كتاب : السير عن رسول الله ، باب : ما جاء في الغدر ، حديث : 1580 ، (4/143) .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

³ سورة الأنفال ، آية 56 - 57

هذا بالنسبة للمعاهدين الذين تظهر منهم الخيانة والغدر ، أما الذين سَمَّتهم الخيانة ممن يَتَسَمَّونَ باسم الإسلام ، ويطعنون المسلمين من الخلف ، فإذا لم تُجَدِ معهم الخطوات السابقة ، فلم يضرهم الإعراض عنهم ، ولم يستجيبوا للنصح والتذكير ، واستمروا على ما هم عليه من الغدر والخيانة والأذى والتربص بالمسلمين وإيقاع الفتنة بينهم ، لا بد عندهما من إعلان الحرب عليهم ، وأخذهم بالشدَّة والقسوة ، وهو ما جاء صراحة في قوله تعالى : { يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }¹. فما معنى الأمر الوارد في الآية الكريمة بمجاهدة المنافقين ؟ مع العلم أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يقتل المنافقين الذين كانوا في المجتمع المسلم ، مع علمه بأسمائهم ، فكيف يتم التوفيق بين الأمر الوارد بقتالهم في الآية الكريمة ، وفعل النبي عليه الصلاة والسلام ؟

نقل الإمام الطبري أقوال الصحابة والمفسرين في تأويل مجاهدة الكافرين ، ثم وفق بين ما ظاهره التعارض فقال : واختلف أهل التأويل في صفة الجهاد الذي أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم به في المنافقين . فقال بعضهم : أمره بجهادهم باليد واللسان ، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، فإن لم يستطع فليُكْفَهَرِ في وجهه . وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : أمره الله بجهاد الكفار بالسيف ، والمنافقين باللسان ، وأذهب الرفق عنهم . وفي رواية أخرى له يقول : الكفار بالقتال ، والمنافقين أن تغلظ عليهم بالكلام ، ومثل هذه الرواية عن الضحاك . وعن الحسن : والمنافقين أقم عليهم حدود الله ، ومثل هذه الرواية عن قتادة . وقال أبو جعفر : وأولى الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب ما قال ابن مسعود ؛ من أن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم من جهاد المنافقين ، بنحو الذي أمره به من جهاد المشركين² .

ثم عقب الطبري بذكر وجه الترجيح في المسألة ، فقال : " فإن قال قائل : فكيف تركهم صلى الله عليه وسلم مقيمين بين أظهر أصحابه ، مع علمه بهم ؟ قيل : إن الله تعالى ذكره إنما أمر بقتال من أظهر منهم كلمة الكفر ، ثم أقام على إظهاره ما أظهر من ذلك . وأما من إذا أطلع عليه منهم أنه تكلم بكلمة الكفر وأخذ بها ، أنكرها ورجع عنها ، وقال : إني مسلم ، فإن حكم الله في كل من أظهر الإسلام بلسانه ، أن يحقن بذلك له دمه وماله ، وإن كان معتقدا غير ذلك . وتوكل هو جل ثناؤه بسراثرهم ، ولم يجعل للخلق البحث عن السرائر ؛ فلذلك كان النبي صلى

¹ سورة التوبة ، آية 73

² انظر : الطبري ، جامع البيان ، (183/10 - 184) .

الله عليه وسلم مع علمه بهم وإطلاع الله إياه على ضمائرهم واعتقاد صدورهم ، كان يقرهم بين أظهر الصحابة ، ولا يسلك بجهادهم مسلك جهاد من قد ناصبه الحرب على الشرك بالله ؛ لأن أحدهم كان إذا أُطِّع عليه أنه قد قال قولاً كفر فيه بالله ، ثم أخذ به ، أنكره وأظهر الإسلام بلسانه . فلم يكن صلى الله عليه وسلم يأخذه إلا بما أظهر له من قوله عند حضوره إياه ، وعزمه على إمضاء الحكم فيه . دون ما سلف من قول كان نطق به قبل ذلك ، ودون اعتقاد ضميره ، الذي لم يبيح الله لأحد الأخذ به في الحكم . وتولَّى الأخذ به هو دون خلقه "1.

فالقول الذي يتوافق مع ظاهر النص وسياقه هو قول ابن مسعود ، وقد وافقه الزجاج . " قال الزجاج ، وهو متعلق في ذلك بألفاظ ابن مسعود : أمر في هذه الآية بجهاد الكفار والمنافقين بالسيف ، وأبيح له فيها قتل المنافقين "2 . وباقي الأقوال المنقولة لا دليل عليها ، بل هي مخالفة للمعنى المتبادر من المجاهدة . كما أن السياق الذي جاء فيه الأمر (جاهد) جمع بين الكفار والمنافقين . والمراد المتبادر من الجهاد هو مجاهدتهم بالسيف . فلماذا التفريق بين ما ظاهره متماثلاً من غير نص ولا دليل ؟ أما القول إن المقصود : إقامة الحدود عليهم ، فيرد ابن العربي عليه بقوله : إنها " دعوى لا برهان عليها ، وليس العاصي بمنافق ، إنما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق كامناً ، لا بما تتلبس به الجوارح ظاهراً . وأخبار المحدودين يشهد مساقها أنهم لم يكونوا منافقين "3.

أما القول بأن المقصود إقامة الحجة عليهم والإغلاظ عليهم بالكلام ، فهو " بعيد ؛ لأن ظاهر قوله تعالى : جاهد الكفار والمنافقين ، يقتضي الأمر بجهدهما معا ، وكذا ظاهر قوله : واغلظ عليهم ، راجع إلى الفريقين "4 . فما معنى الغلظة في جهادهم بالحجة ؟ هذا التأويل جاء ليتساقط فقط مع جو الآية التي تأمر بمجاهدتهم ، مع أن الله تعالى في موضع آخر وصف توجيه الكلام إليهم بالموعدة فقال : { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا }5 . وقال الواحدي في تفسيره : " أنه نُهي عن قتل المنافقين

في ابتداء الإسلام ثم نسخ بقوله : جاهد الكفار والمنافقين "6 . ولم يذكر صاحب القول دليلاً على النسخ . والحقيقة أن الآية مصرحة بقتل المنافقين ، والأمر الوارد فيها يُؤخذ على ظاهره من

1 المرجع السابق ، (184/10) .

2 ابن عطية ، المحرر الوجيز ، (59/3) .

3 ابن العربي ، أحكام القرآن ، (544/2) .

4 الرازي ، التفسير الكبير ، (107/16) .

5 سورة النساء ، آية 63

6 الواحدي ، الوجيز ، (277/1) .

غير تأويل . ويبقى السؤال : هل يُقتل كل منافق ؟ وهل الأمر الوارد يُقصد به السماح بقتالهم عند ظهور ما يوجب ذلك منهم ، أم قتالهم لمجرد نفاقهم ؟

إن الإسلام لا يقبل من أحد - من داخل المجتمع الإسلامي أو من خارجه - أن يعتدي على المسلمين ، أو أن يُزعزع أمن المجتمع وسلامته ، أو أن ينقل أخبار المسلمين لأعدائهم ، أو أن يفسد في المجتمع ويثير الفتن والقلقل ، وينشر الرذائل ، ويعتدي على الأعراس ، أو غير ذلك من أفعال الخائنين . ومن صدر منه مثل هذه الأعمال ، أو ثبت بحقه أي فعل من أفعال الخيانة ، لا بد من معاقبته ومنعه من فعله ، ووقف إفساده . والعقوبة تُقرَّر عليه حسب جرمه ؛ فإن كانت تستوجب الحد عوقب به ، وإلا عزرَّ حسب جرمه .

والخيانة أنواع ، فمن وقع في خيانة العرض وقع عليه الحد . ومن وقع في خيانة الأمة والوطن اجتهد في عقوبته العلماء ، كما ورد في حكم قتل الجاسوس¹ .

وقد فصل عبد الرحمن السعدي القول في المسألة فقال عن جهاد المنافقين المقصود في الآية : " وهذا الجهاد يدخل فيه : الجهاد باليد ، والجهاد بالحجة واللسان . فمن بارز منهم بالمحاربة ، فيجاهد باليد واللسان والسيف والسنان ، ومن كان مذعنا للإسلام بذمة أو عهد ، فإنه يجاهد بالحجة والبرهان"² . فيكون عقابهم ومحاربتهم آخر الدواء . وكما قيل : آخر الدواء الكي . ف " إن للين مواضعه وللشدة مواضعها . فإذا انتهى أمد اللين فلتكن الشدة ، وإذا انقضى عهد المصابرة فليكن الحسم القاطع . وللحركة مقتضياتها ، وللمنهج مراحلها . واللين في بعض الأحيان قد يؤدي ، والمطاوله قد تضر "³ .

وبهذا فقد تدرج القرآن في توجيهاته في مكافحة هذه الآفة ، ابتداءً بتحسين الأجيال من الوقوع في هذه الآفة . ثم محاربة المجرمين بدءاً بالموقف القلبي والنفسي منهم وبغضهم والبراءة منهم ومن أعمالهم ، إلى موعظتهم وتقديم النصح إليهم ، ثم الحذر من أقوالهم وأفعالهم وكل ما يصدر عنهم وكيفية التعامل مع ذلك . ثم الاستعانة بالله عليهم . وبعد ذلك الغلظة والقسوة عليهم ، بل ومحاربة وقتال من يستحق ذلك منهم .

¹ انظر ص 86

² السعدي ، تيسير الكريم الرحمن ، (ص 344) .

³ قطب ، في ظلال القرآن ، (10/255) .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، فله الحمد سبحانه على ما منّ به من إعانة وتوفيق في إتمام هذا العمل ، وإنجاز هذه الدراسة ، فله الحمد كل الحمد على جزيل كرمه ، وكثير نعمه وعطاياه . والصلاة والسلام على خاتم الرسل والأنبياء ، صلاة أختم بها هذه الدراسة ، راجيا ببركتها أن يمن الله تعالى علي بقبول هذا الجهد ، إنه سميع مجيب .

وبعد ، ففي ختام هذه الدراسة ، وبعد تمام هذا الجهد ، لا بد من تسجيل أبرز ما توصلت إليه من نتائج ، وخالصة ما ذكرت فيها من أمور ، أجملها فيما يأتي :

1- أكد القرآن الكريم على خطورة ظاهرة الخيانة ، من خلال حشد كبير من الآيات القرآنية ، التي ذكر فيها لفظة الخيانة ، ونظائرها ، كالكيد والمكر والتجسس والخداع والنفاق ، وكانت في معظمها آيات مدنية ؛ خاصة تلك التي عالجت موضوع النفاق تلك الظاهرة التي نشأت في المجتمع الإسلامي.

2- الأمانة بمعناها الواسع تشمل كل ما أوّتمن عليه الإنسان ، من أمانة التكليف الشرعية ، وأمانة الوطن والمقدسات ، وأمانة العهد والميثاق ، وأمانة الودائع والأموال ، وأمانة العرض ورابطة الزوجية ، وأمانة النفس والجوارح ، وغير ذلك من الأمانات التي يطالب المسلم بأدائها ، ويحرم عليه خيانتها .

3- الأمانة الكبرى هي أمانة الدين ، وهي تشمل غيرها من أنواع الأمانات ، وخيانتها تكون بالخروج عن التكليف الشرعية التي كتبها الله على عباده .

4- التآمر على مقدرات المسلمين ومصالحهم وأرضهم ومقدساتهم ، والتلاعب بأمنهم وأرواحهم واقتصادهم وأرزاقهم ، وتقديم المساعدة لأعدائهم ؛ للإضرار بالمسلمين ، كل ذلك خيانة للأمة .

5- انتهاك الأعراض بالزنا ، أو القذف ، أو حتى النظرة المحرمة ، هو خيانة للعرض .

6- الروايات الواردة في تفسير قول النبي عليه الصلاة والسلام : " ولولا حواء لم تكن انثى زوجها الدهر " والتي تنسب لحواء إغواء آدم عليه السلام بالأكل من الشجرة ، كلها روايات لا تستند إلى دليل صحيح ، بل فيها تأثر واضح بالإسرائيليات . والصحيح إن خيانة حواء لزوجها كانت بترك النصيحة له في أمر الأكل من الشجرة ، لا في غير ذلك ، كما قال ابن الجوزي رحمه الله .

7- جوارح الإنسان أمانة عنده ، فمن استخدمها في الحرام ، وفي أذى المسلمين ، فقد خانها ، وستشهد عليه يوم القيامة .

8- ما ورد من صفات الخائنين وأفعالهم ، ومصيرهم ومآلهم يوم القيامة ، والمأخوذ من آيات النفاق ، إنما يُراد به الخيانة العظمى أي (خيانة الدين والأمة) ، كما أن النفاق الذي تحدّث عنه القرآن الكريم ، وأبان فيه صفات المنافقين وأفعالهم ومصيرهم ، يُراد به النفاق الأكبر .

9- النفاق كالكفر ، نفاق دون نفاق . فالمتهمون بالنفاق ليسوا نوعا واحدا ، بل فيهم المنافق المحض ، وفيهم من فيه إيمان ونفاق ، وفيهم من إيمانه غالب ، وفيه شعبة من النفاق . وكذلك أهل الخيانة ليسوا بمستوى واحد ، فلا تعد خيانة (الدين والأمة والعرض) كخيانة العين بالنظرة المحرمة .

10- من أبرز صفات الخائنين ، التآمر والكيد بالخفاء ، وتبويت الخيانة ، وتدبير الشر بالسر والكتمان ؛ خشية منهم في افتضاح أمرهم ، وهم يحرصون على التستر بالكذب ، وإظهار الموادة .

11- وصف الله تعالى الخائنين بأنهم ضالون ، ويائسون من رحمة الله ، يملأ قلوبهم الحقد على المؤمنين ، كما وصفهم القرآن الكريم بالجبن والبخل والجهل والكذب والغفلة والكسل ، وغير ذلك من الصفات القبيحة .

12- أبان القرآن الكريم جملة من أفعال الخائنين الخبيثة . منها : الصد عن سبيل الله والدعوة إلى المنكر ، والاستهزاء بآيات الله ، وموالات الكفار وفعل أفعالهم ، ورفض التحاكم إلى شرع الله تعالى ، والإفساد في الأرض .

13- هناك قواسم مشتركة كثيرة بين الكفار ، وأهل الخيانة ، لانطباق صفات وأفعال أهل الخيانة على ما ذكره الله تعالى بحق الكفار المعادين . فهم في الكفر سواء ، كما أنهم في العاقبة يوم القيامة سواء .

14- نهى الله تعالى عباده من سلوك طريق الخائنين ، ونفرهم من ذلك ، ببيان خطورة أفعال الخائنين ، وكشف الستار عنهم ، والحكم عليهم باللعن والطرده من رحمته ، وبيان عاقبتهم ومآلهم .

15- خص القرآن الكريم أهل الكتاب بالحديث عن خيانتهم لدينهم وللناس ، ونقضهم العهود والمواثيق بعد توكيدها مع الله ومع عباده ، وهو ما يؤكد تاريخهم مع أنبيائهم ، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ومع الناس إلى يومنا هذا .

16- من أمثلة خيانة العرض في القرآن الكريم ، ما حدث من امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام ، الذي أبى الوقوع في الخيانة . وما ورد ذكره في القرآن الكريم عنه في قوله تعالى : { وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ } ، لا يحتمل تجاوب يوسف الفعلي مع إرادة امرأة العزيز ، كما ورد في بعض كتب التفسير ، وإنما هو الهم البشري الفطري ، الذي لا يرافقه ميل جسدي ، أو عدم وقوع الهم منه أصلاً لوجود

برهان ربه . وهذا القول الذي يتوافق مع عصمة الأنبياء ، ومع سياق الآيات الذي يمدح صنيع يوسف العفيف عليه السلام .

17- لا يوجد معايير أخلاقية ولا إنسانية عند أهل الخيانة ، ويتبدى ذلك واضحا في قصة خيانة إخوة يوسف عليه السلام لأخيهم وأبيهم .

18- خيانة امرأتي نوح ولوط عليهما السلام ، الوارد ذكرها في قوله تعالى : { كَانَتَا

تَحْتِ عِبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا } هي خيانتها في الدين ، إذ كفرتا ولم تتبعانها . وليس المقصود خيانة العرض ، فلم تزن امرأة نبي قط . وتصور خيانتها على أنها خيانة العرض ينفر من صاحب الرسالة ، وينسب إليه النقص .

19- من وقع في الخيانة العظمى ، كخيانة الأمة والوطن ، يجب إيقاع العقوبة المناسبة بحقه ضمن معايير تتعلق بالفاعل والفعل الذي أقدم عليه ، وما كان من حاطب بن أبي بلتعة ، وعفو النبي عليه الصلاة والسلام عنه ، فيه خصوصية له ، كونه من أهل بدر ، وهو ما لا ينطبق على أحد اليوم .

20- يواجه خائنو الأمانات في الدنيا الحرمان من هداية الله تعالى ، ويجعل الله كيدهم في نحورهم ، ويلبسهم لباس الذل والصغار ، ويهلكهم ويدمرهم . ثم إن الله تعالى أعد لهم أصنافا من العذاب يوم القيامة ، فهم في الدرك الأسفل من النار ، كما وإنه يُحال بينهم وبين المؤمنين بسور ، وتظهر عليهم علامات الحسرة والندم ، ويفضحهم الله تعالى على رؤوس الأشهاد .

21- أهم سبل معالجة الخيانة يكون بالوقاية والتحصين من خلال تربية النشء على مراقبة الله تعالى في كل عمل ، وتعليمهم أداء الأمانات على أكمل وجه ، وعدم الوقوع في الخيانة مهما دقت ، وهناك أساليب كثيرة أرشد القرآن الكريم إلى اتباعها في معالجة ظاهرة الخيانة كالحذر من أراجيف الخائنين ، وتعريتهم وفضحهم ، ومحاربتهم والقسوة عليهم .

الفهارس الفنية

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الأعلام المترجم لهم

فهرس المراجع والمصادر

فهرس الآيات القرآنية

الصفحة	رقم الآية	الآية	السورة
31	9	{ مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ وَآلِهِنَّ ءَامَنُوا ... }	البقرة
117	11	{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ... }	
117	12	{ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ... }	
118	13	{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنُوا ... }	
106	14	{ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا ... }	
128	15	{ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ ... }	
96	16	{ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى ... }	
129	17	{ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ... }	
129	18	{ صُمٌّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ }	
118	27	{ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ... }	
59	76	{ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا ... }	
50	85	{ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ ... }	
59	146	{ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ ... }	
50 ، 18	187	{ أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ ... }	
41	28	{ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ ... }	آل عمران

60	75	{ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ ... }	
132	86	{ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا ... }	
99	118	{ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِيْطَانَةً ... }	
99	119	{ هَتَأْتُنَّمُ أَوْلَاءَ نُحُبُوهُمْ وَلَا نُحِبُّوكُمْ ... }	
166 ، 99	120	{ إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسَوْهُمْ ... }	
173	144	{ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ ... }	
97 ، 95	154	{ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً ... }	
147 ، 33	161	{ وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعُلَّ ... }	
109	167	{ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ ... }	
46	21	{ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ .. }	النساء
59	46	{ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حُرِّفُونَ الْكَلِمَ ... }	
1	58	{ إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ ... }	
115	60	{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ... }	
115 ، 107	61	{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ... }	
177،158 ،155	63	{ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي ... }	
157	64	{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ ... }	
113	65	{ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ .. }	
59	75	{ وَمَا لَكُمْ لَا تُقْنِتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... }	
126	76	{ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقْنِتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... }	
103	78	{ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ ... }	
167 ، 158 ، 94	81	{ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا ... }	
171	83	{ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ ... }	

96	88	{ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ ... }	
159 ، 112	89	{ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا ... }	
161 ، 91 ، 24	105	{ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ... }	
161	106	{ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا ... }	
، 91 ، 24 ، 21 161 ، 92	107	{ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ ... }	
161 ، 92	108	{ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ ... }	
161	109	{ هَتَأْتُمْ هَتُؤَلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ ... }	
142 ، 111	138	{ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا }	
111	139	{ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ ... }	
164	140	{ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ... }	
99	141	{ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ ... }	
127 ، 104 ، 31 146 ،	142	{ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ ... }	
105	143	{ مُدْبِدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَتُؤَلَاءِ ... }	
143	145	{ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ ... }	
157	146	{ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا ... }	
61 ، 39 ، 22	13	{ فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ ... }	المائدة
115	44	{ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ... }	
115	50	{ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ... }	
43	51	{ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ ... }	
63 ، 44	52	{ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ... }	

44	80	{ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ... }	
85 ، 44	81	{ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ ... }	
133 ، 123	123	{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا ... }	الأنعام
135 ، 123	124	{ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ ... }	
117	82	{ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ ... }	الأعراف
81	83	{ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ ... }	
81	84	{ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ ... }	
141 ، 98	99	{ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ... }	
117	123	{ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمْنُم بِهٖ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ ... }	
132	186	{ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ... }	
139	18	{ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ }	الأنفال
113 ، 15	24	{ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ ... }	
15	25	{ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا ... }	
19،15 ، 14 ، 1 ، 36 ، 32 ، 24 ، 90 ، 40 ، 38	27	{ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ ... }	
15	28	{ وَءَعْلَمُوا أَنَّمَا ءَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ ... }	
167 ، 124 ، 15	30	{ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ... }	
108	31	{ وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمُ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا .. }	
97	49	{ إِذْ يَقُولُ الْمُنٰفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي ... }	
175 ، 57	56	{ الَّذِينَ عٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ ... }	
175	57	{ فَمَا تَتَّقِفْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ ... }	

174 ، 158 ، 22	58	{ وَإِمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ ... }	
166 ، 31	62	{ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ ... }	
136 ، 37 ، 25 137 ،	71	{ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ ... }	
159	72	{ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَنَّهُدُوا ... }	
122 ، 95	8	{ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا ... }	التوبة
108	9	{ أَشْتَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا ... }	
122	10	{ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَا ذِمَّةً ... }	
157	11	{ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا ... }	
95	42	{ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا ... }	
98	45	{ إِنَّمَا يَسْتَفْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ... }	
173	47	{ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا ... }	
104 ، 102	54	{ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ ... }	
101	57	{ لَوْ يَخْتَدِرُونَ مُلْجَأًا أَوْ مَعْرَاتٍ ... }	
136 ، 127 ، 95	64	{ يَحْذَرُ الْمُنْفِقُونَ أَنْ تُنَزَلَ عَلَيْهِمْ ... }	
110 ، 108	65	{ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا ... }	
110	66	{ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ... }	
107 ، 96 ، 33 160 ،	67	{ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ ... }	
143 ، 137	68	{ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ ... }	
122	70	{ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمٍ ... }	
175	73	{ يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنْفِقِينَ ... }	
110	74	{ سَخِلْفُوكَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا ... }	

101	75	{ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَإِنِ ءَاتَيْنَا مِنْ ... }	
102	76	{ فَلَمَّا ءَاتَتْهُمْ مِّنْ فَضْلِهِءَ نَجَلُوا بِهِءَ ... }	
102	77	{ فَأَعْقَبْتَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِم إِلَى يَوْمِ ... }	
101	81	{ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ ... }	
168 ، 136	94	{ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ... }	
158	95	{ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ ... }	
137	101	{ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ ... }	
165	113	{ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ... }	
164	114	{ وَمَا كَانَ أَسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا ... }	
152	118	{ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى ... }	
81	40	{ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا ... }	هود
72	7	{ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِحْوَتِهِءَ آيَاتٌ ... }	يوسف
72	8	{ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا ... }	
72	9	{ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ ... }	
72	10	{ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهُ ... }	
72	11	{ قَالُوا يَتَّبِعَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى ... }	
72	12	{ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا ... }	
72	13	{ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِءَ ... }	
72	14	{ قَالُوا لَئِن أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ... }	
72	15	{ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِءَ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ ... }	
72	16	{ وَجَاءَ وَآبَاهُمُ عِشَاءً يَبْكُونَ }	
72	17	{ قَالُوا يَتَّبِعَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا دَسْتِيقُ ... }	

72	18	{ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ... }	
73	19	{ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ... }	
73	20	{ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ... }	
64	23	{ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ... }	
64	24	{ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ ... }	
64	25	{ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ... }	
64	26	{ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ... }	
64	27	{ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ ... }	
125 ، 64	28	{ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ قَالَ ... }	
64	29	{ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي ... }	
70	51	{ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ ... }	
70 ، 29 ، 25 131 ، 94 ،	52	{ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ... }	
50	53	{ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ... }	
79	64	{ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ... }	
78	86	{ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَحِزْبِي إِلَى اللَّهِ ... }	
97	33	{ أَفَمَنْ هُوَ قَابِئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا ... }	الرعد
79	42	{ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا ... }	إبراهيم
125	46	{ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ ... }	
140	26	{ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى ... }	النحل
140	45	{ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَهُ ... }	
141	46	{ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ... }	

141	47	{ أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخُوفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ ... }	
131	104	{ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ... }	
133	16	{ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا ... }	الإسراء
155	43	{ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ... }	طه
155	44	{ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ ... }	
124	60	{ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ }	
124	69	{ وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا ... }	
167 ، 157	38	{ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ... }	الحج
46	5	{ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ }	المؤمنون
46	6	{ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ... }	
46	7	{ فَمَنْ أَبْغَىٰ وِرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ ... }	
169 ، 47	11	{ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ... }	النور
169	12	{ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ ... }	
169	13	{ لَوْلَا جَاءَ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ... }	
169	14	{ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ... }	
169	15	{ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ ... }	
169	16	{ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا ... }	
169	17	{ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا ... }	
169	18	{ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ... }	
120	19	{ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ ... }	
47	23	{ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ... }	
154	24	{ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ ... }	

52	30	{ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ ... }	
52 ، 49	31	{ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ .. }	
115	47	{ وَيَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ ... }	
116	48	{ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ ... }	
116	49	{ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ }	
116	50	{ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرْتَابُونَ أَمْ تَخَافُونَ .. }	
116	51	{ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا ... }	
149	27	{ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ ... }	الفرقان
133	31	{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا ... }	
130	44	{ أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ ... }	
138 ، 28	50	{ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَتًا مَكَرًا ... }	النمل
138	51	{ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ ... }	
138	52	{ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ... }	
126	11	{ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ... }	العنكبوت
168	47	{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى ... }	الروم
160	1	{ يَتَّيِبُهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ... }	الأحزاب
173 ، 98	12	{ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي ... }	
49	32	{ يٰنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ }	
119	60	{ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي ... }	
128	61	{ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقُفُوا أُحْذُوا وَقُتِلُوا ... }	
36 ، 13 ، 11	72	{ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ ... }	
144	73	{ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ ... }	

148 ، 124	33	{ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ... }	سبأ
142 ، 134	10	{ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ... }	فاطر
134 ، 123	43	{ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ... }	
168	173	{ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَلِبُونَ }	الصافات
168	36	{ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۗ وَخُوفُونَكَ ... }	الزمر
، 52 ، 21 ، 11 151 ، 95	19	{ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ... }	غافر
139	25	{ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا ... }	
116	26	{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ ... }	غافر
139	37	{ اسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلَعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ ... }	
167 ، 139	45	{ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ... }	غافر
96	17	{ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ ... }	
54	19	{ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَىٰ النَّارِ ... }	فصلت
54	20	{ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ ... }	
54	21	{ وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ... }	
54	22	{ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ ... }	
54	23	{ وَذَالِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ ... }	
100	20	{ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ... }	
110 ، 44	25	{ إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَيَّ أَدْبَرِهِمْ مِنْ ... }	
110 ، 44	26	{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ... }	
127 ، 99	29	{ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ ... }	محمد
99	30	{ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَاعْرِفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ... }	

144 ، 97	6	{ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ... }	الفتح
170	6	{ يَتَّيِبُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ ... }	الحجرات
151 ، 30	12	{ يَتَّيِبُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنْ ... }	
140	42	{ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ ... }	الطور
142	45	{ فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ ... }	
142	46	{ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا ... }	
144	13	{ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ ... }	الحديد
144 ، 98	14	{ يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ... }	
144	15	{ قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ... }	
85 ، 44	22	{ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ... }	المجادلة
112 ، 44	11	{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ ... }	الحشر
، 85 ، 83 ، 40 159	1	{ يَتَّيِبُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي ... }	المتحنة
44	9	{ إِنَّمَا يَنْهَيْكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ ... }	
104	1	{ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ ... }	المنافقون
95	2	{ اتَّخِذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ ... }	
136 ، 128 ، 100	4	{ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ... }	
108	5	{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ ... }	
103	7	{ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مَن ... }	
103	8	{ يَقُولُونَ لِنِ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ... }	الطلاق
168	3	{ وَيَرْزُقُهُ مِّنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ... }	
146	8	{ يَتَّيِبُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ ... }	

80 ، 38 ، 25	10	{ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا ... }	
149	10	{ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا ... }	الملك
23	13	{ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا }	نوح
133 ، 125 ، 28	22	{ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا كُبْرَارًا }	
109	29	{ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ... }	المطففين
109	30	{ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ }	
109	31	{ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ }	
109	32	{ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ }	
109	33	{ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ }	
128 ، 109	34	{ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ ... }	
109	35	{ عَلَىٰ الْأَرَابِكِ يُنظُرُونَ }	
109	36	{ هَلْ تُؤْتُونَ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ }	
147	9	{ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ }	الطارق
124 ، 29	15	{ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا }	
124 ، 29	16	{ وَأَكِيدُ كَيْدًا }	
124	17	{ فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُؤِيدًا }	
147	7	{ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ }	الهمزة
133	1	{ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ }	الفيل
133	2	{ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ }	
133	3	{ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ }	
134	4	{ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ }	
134	5	{ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ }	

فهرس الأحاديث النبوية

الرقم	طرف الحديث	المصدر	الصفحة
1	آية المنافق ثلاث	البخاري ومسلم	102
2	إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة	مسلم	147
3	أربع من كن فيه كان منافقا خالصا	البخاري	104 ، 90
4	اسق يا زبير ، ثم أرسل الماء إلى جارك	البخاري	114
5	اغزوا باسم الله في سبيل الله	مسلم	153، 151
6	ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم	مسلم	152
7	انطلق ثلاث رهط ممن كان قبلكم	البخاري	65
8	انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ	البخاري ومسلم	84
9	إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث	البخاري ومسلم	151
10	أي عم قل لا إله إلا الله	البخاري ومسلم	165
11	تجد من شرار الناس يوم القيامة	البخاري	106
12	تلك صلاة المنافق	مسلم	105
13	الحرب خدعة	البخاري	31
14	حرمة نساء المجاهدين على القاعدين	مسلم	152
15	خيركم قرني ثم الذين يلونهم	البخاري	120
16	سبعة يظلمهم الله تعالى في ظله	البخاري ومسلم	65
17	سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان	الترمذي	165
18	سيأتي على الناس سنوات خداعات	ابن ماجة والمستدرک	117
19	قال الله عز وجل : إذا هم عبدي بحسنة	مسلم	68
20	قال الله : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة	البخاري	144
21	كان أهل بيت منا يقال لهم : بنو أبيرق	الترمذي والمستدرک	163

78	البخاري ومسلم	كان رسول الله عليه السلام إذا أراد سفرا أقرع	22
53	مسلم والبخاري	كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا	23
171	مسلم	كفى بالمرء كذبا	24
121 ، 57	البخاري	لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ	25
153	البخاري ومسلم	لم أتخلف عن رسول الله عليه السلام في غزوة	26
18	البخاري	لما نزل صوم رمضان	27
47	البخاري ومسلم	لولا بني إسرائيل لم يخنز اللحم	28
105	البخاري ومسلم	ليس صلاة أثقل على المنافقين	29
148	البخاري ومسلم	ما بال العامل نبعثه فيأتي فيقول	30
106	مسلم	مثل المنافق كمثل الشاة العائرة	31
152	الترمذي	المسلم أخو المسلم لا يخونه	32
159	البخاري	المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده	33
153	مسلم	من استعملناه منكم على عمل	34
175	الترمذي	من كان بينه وبين قوم عهد	35
54	مسلم	هل تدرون مم أضحك ؟	36

فهرس الأعلام

الصفحة	العلم	الرقم
87	أحمد بن إدريس (القرافي)	1
85	أحمد بن عبد الحليم (ابن تيمية)	2
19	إسماعيل بن عمر (ابن كثير)	3
19	بشير بن عبد المنذر (أبو لبابة)	4
83	حاطب بن أبي بلتعة	5
36	سيد قطب	6
19	صخر بن حرب (أبو سفيان)	7
21	طعمة بن أبيرق	8
13	عبد الله بن عمرو بن العاص	9
29	عبد الله بن عمر (البيضاوي)	10
27	محمد بن أبي بكر (ابن القيم)	11
12	محمد بن أبي العز (ابن منظور)	12
25	محمد بن أحمد بن أبي بكر (القرطبي)	13
42	محمد بن أحمد بن محمد (الكلبي)	14
19	محمد بن جرير (الطبري)	15
23	محمد بن عبد الله (ابن العربي)	16
46	محمد بن علي بن الحسن (الحكيم الترمذي)	17
87	محمد بن علي بن عمر (المازري)	18
23	محمد بن علي بن محمد (الشوكاني)	19
120	محمد بن محمد (الغزالي)	20
20	محمد بن يوسف (ابن حيان)	21

14	محمود بن عبد الله (الألو سي)	22
10	محمود بن عمر (الزمخشري)	23
85	مسطح بن أثانة	24
10	ميمون بن قيس (الأعشى)	25

قائمة المصادر والمراجع

- 1- الألو سي ، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي ، ت 1270هـ ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .
- 2- الأحمد نكري ، عبد النبي بن عبد الرسول ، ت 961هـ ، دستور العلماء ، أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون ، تحقيق : حسن هاني فحص ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (ط1/1421هـ) .
- 3- الأدنه وي ، أحمد بن محمد ، ت ق11هـ ، طبقات المفسرين ، تحقيق : سليمان بن صالح الخزي ، مكتبة العلوم والحكم - السعودية ، (ط1/1417هـ) .
- 4- الأزهرى ، أبو منصور محمد بن أحمد ، ت270هـ ، تهذيب اللغة ، تحقيق : محمد عوض مرعب ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (ط1/2001م) .
- 5- الأعشى ، ميمون بن قيس بن جندل ، ت 7هـ ، ديوان الأعشى ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .
- 6- الألباني ، محمد ناصر الدين ، ت 1420هـ ، صحيح الجامع الصغير وزيادته ، المكتب الإسلامي - بيروت ، (ط2/1406هـ) .
- 7- الألباني ، محمد ناصر الدين ، ت1420هـ ، صحيح وضعيف سنن الترمذي ، مكتبة المعارف - الرياض (ط1/ بدون سنة نشر) .

- 8- البخاري ، محمد بن إسماعيل الجعفي ، ت 256هـ ، **الجامع الصحيح المختصر** ، تحقيق : مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير - بيروت ، (ط 1407/3هـ) .
- 9- البستي ، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد ، ت 354هـ ، **مشاهير علماء الأمصار** ، تحقيق : م. فلايشهمر ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (ط سنة 1959م) .
- 10- البغوي ، الحسين بن مسعود بن محمد ، ت 516هـ ، **معالم التنزيل في التفسير** ، تحقيق : خالد عبد الرحمن العك ، دار المعرفة - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .
- 11- أبو البقاء ، الحسيني أيوب بن موسى ، ت 1094هـ ، **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية** ، تحقيق : عدنان درويش وغيره ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، (طبعة سنة 1419هـ) .
- 12- البوطي ، محمد سعيد رمضان ، **فقه السيرة** ، دار الفكر - بيروت ، (طبعة سنة 1410هـ) .
- 13- البيضاوي ، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي ، ت 685هـ ، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** ، دار الفكر - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .
- 14- البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله ، ت 458هـ ، **كتاب الزهد الكبير** ، تحقيق : عامر أحمد حيدر ، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت ، (ط / 1996م) .
- 15- الترمذي ، أبو عبد الله الحكيم محمد بن علي بن الحسن ، ت 320هـ ، **نوادير الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم** ، تحقيق : عبد الرحمن عميرة ، دار الجبل - بيروت ، (طبعة سنة 1992م) .

- 16- الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى السلمى ، ت 279هـ — ، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .
- 17- أبو تمام ، حبيب بن أوس بن الحارث الطائي ، ت 231هـ ، ديوان أبي تمام ، (بدون طبعة ولا سنة ولا بلد نشر) .
- 18- ابن تيمية ، أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني ، ت 728هـ ، الفتاوى الكبرى ، قدّم له : حسنين محمد مخلوف ، دار المعرفة - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .
- 19- ابن تيمية ، أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني ، ت 728هـ ، كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (مجموع الفتاوى) ، تحقيق : عبد الرحمن بن محمد العاصمي ، مكتبة ابن تيمية ، (ط2/ بدون سنة نشر) .
- 20- الثعلبي ، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري ، ت 427هـ ، الكشف والبيان ، تحقيق : الإمام أبي محمد بن عاشور ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (ط1/1422هـ) .
- 21- الثعلبي ، أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر ، ت 422هـ ، التلقين في الفقه المالكي ، تحقيق : محمد ثالث سعيد الغاني ، المكتبة التجارية - مكة المكرمة ، (ط1/1415هـ) .
- 22- الثوري ، أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق ، ت 161هـ — ، تفسير سفيان الثوري ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (ط1/1403هـ) .
- 23- الجرجاني ، علي بن محمد بن علي ، ت 816هـ ، التعريفات ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي - بيروت ، (ط1/1405هـ) .

- 24- الجصاص ، أبو بكر أحمد بن علي الرازي ، ت 370هـ ، أحكام القرآن ، تحقيق : محمد الصادق قمحاوي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (طبعة سنة 1405هـ) .
- 25- الجلالين ، المحلي ، جلال الدين محمد بن أحمد ، ت 864هـ ، والسيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ، ت 911هـ ، تفسير الجلالين ، دار الحديث - القاهرة ، (ط1/بدون سنة نشر) .
- 26- ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ، ت 597هـ ، ذم الهوى ، تحقيق : مصطفى عبد الواحد ، (طبعة سنة 1962م) .
- 27- ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ، ت 597هـ ، زاد المسير في علم التفسير ، دار المكتب الإسلامي - بيروت ، (ط3/1404) .
- 28- ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ، ت 597هـ ، كشف المشكل من حديث الصحيحين ، تحقيق : علي حسين البواب ، دار الوطن - الرياض ، (طبعة سنة 1418هـ) .
- 29- ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ، ت 597هـ ، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ، تحقيق : محمد عبد الكريم كاظم الراضي ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، (ط1/1404هـ) .
- 30- جوهرى ، طنطاوي ، الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، المكتبة الإسلامية - بدون بلد نشر ، (ط3/1974م) .
- 31- الحاكم ، محمد بن عبد الله النيسابوري ، ت 405هـ ، المستدرک علی الصحيحین مع تضمينات الإمام الذهبي في التلخيص ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (ط1/1411هـ) .

32- ابن حبيب ، الحسن بن عمرو ، ت 799هـ ، **المقتفى من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم** ، تحقيق : مصطفى محمد حسين الذهبي ، دار الحديث - القاهرة ، (ط1/1416هـ) .

33- الحلبي ، علي بن برهان الدين ، ت 1044هـ ، **إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون** ، دار المعرفة - بيروت ، (طبعة سنة 1400هـ) .

34- حمدون ، غسان ، **من نسمات القرآن كلمات وبيان** ، راجعه وقدم له : جميل غازي وآخرون ، دار السلام - بدون بلد نشر ، (ط2/1407هـ) .

35- أبو حيان ، محمد بن يوسف الأندلسي ، ت 745هـ ، **البحر المحيط** ، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وآخرون ، دار الكتب العلمية - لبنان ، (ط1/1422هـ) .

36- الخالدي ، صلاح عبد الفتاح ، **سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد** ، الدار الشامية - بيروت ، (ط1/1991م) .

37- ابن أبي الدنيا ، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي ، ت 281هـ ، **مكارم الأخلاق** ، تحقيق : مجدي السيد إبراهيم ، دار مكتبة القرآن - القاهرة ، (طبعة سنة 1411هـ) .

38- ابن أبي الدنيا ، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي ، ت 281هـ ، **الورع** ، تحقيق : أبي عبد الله محمد بن حمد الحمود ، الدار السلفية - الكويت ، (ط1/1408هـ) .

39- الذهبي ، أبا عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ، ت 748هـ ، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام** ، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي - لبنان ، (ط1/1407هـ) .

40- الذهبي ، أبا عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ، ت 748هـ ، **تذكرة الحفاظ** ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (ط1/ بدون سنة نشر) .

- 41- الذهبي ، أبا عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ، ت 748هـ ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط وغيره ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، (ط9/1413هـ) .
- 42- الذهبي ، أبا عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ، ت 748هـ ، المعجم المختص بالمحدثين ، تحقيق : محمد الحبيب الهيلة ، مكتبة الصديق - الطائف ، (ط1/1408هـ) .
- 43- الذهبي ، أبا عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ، ت 748هـ ، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ، تحقيق : بشار عواد وآخرون ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، (ط1/1404هـ) .
- 44- الرازي ، ابن أبي حاتم عبد الرحمن بن محمد بن إدريس ، ت 327هـ ، تفسير القرآن العظيم ، تحقيق : أسعد محمد الطيب ، المكتبة العصرية - صيدا ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .
- 45- الرازي ، فخر الدين محمد بن عمر التميمي ، ت 606هـ ، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (ط1/1421هـ) .
- 46- الرازي ، أبو القاسم تمام بن محمد ، ت 414هـ ، الفوائد ، تحقيق : حمدي عبد المجيد السلفي ، مكتبة الرشد - الرياض ، (ط1/1412هـ) .
- 47- الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ، ت 721هـ ، مختار الصحاح ، تحقيق : محمود خاطر ، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت ، (طبعة سنة 1415هـ) .
- 48- الراغب ، الحسين بن محمد الأصفهاني ، ت 502هـ ، المفردات في غريب القرآن ، تحقيق : محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة - لبنان ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .

- 49- رضا ، محمد رشيد ، ت 1354هـ ، تفسير المنار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر ، (طبعة سنة 1972م) .
- 50- الزبيدي ، محمد مرتضى الحسيني ، ت 1301هـ ، تاج العروس من جواهر القاموس ، دار الهداية ، (بدون طبعة ولا سنة ولا بلد نشر) .
- 51- الزحيلي ، وهبة ، التفسير الوجيز ، دار الفكر - دمشق ، (ط2/1416هـ) .
- 52- الزركشي ، أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله ، ت 794 هـ ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة - بيروت ، (ط سنة 1391 هـ) .
- 53- الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمر ، ت 538هـ ، أساس البلاغة ، دار الفكر - بيروت ، (طبعة سنة 1399هـ) .
- 54- الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمر ، ت 538هـ ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .
- 55- ابن أبي زمنين ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله ، تفسير القرآن العزيز ، تحقيق : أبو عبد الله حسين بن عكاشة وغيره ، دار الفاروق الحديثة - القاهرة ، (ط1 / 1423) .
- 56- الزيلعي ، جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد ، ت 762هـ ، تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري ، تحقيق : عبد الله بن عبد الرحمن السعد ، دار ابن خزيمة - الرياض ، (ط1/1414هـ) .
- 57- زين الدين ، أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي ، ت 795هـ ، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، (ط7/1417هـ) .

- 58- السبكي ، تاج الدين بن علي بن عبد الكافي ، ت 771هـ ، طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق : محمود محمد الطناحي وغيره ، هجر للطباعة والنشر والتوزيع - بدون بلد نشر ، (ط2/1413هـ) .
- 59- ابن سعد ، أبا عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري ، ت 230هـ ، الطبقات الكبرى ، دار صادر - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .
- 60- السعدي ، عبد الرحمن بن ناصر ، ت 1376هـ ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، تحقيق : ابن عثيمين ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، (طبعة سنة 1421هـ) .
- 61- السعدي ، أبو القاسم علي بن جعفر ، ت 514هـ ، الأفعال ، عالم الكتب - بيروت ، (ط1/1403هـ) .
- 62- أبو السعود ، محمد بن محمد العمادي ، ت 982هـ ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، المعروف بتفسير أبي السعود ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .
- 63- السمعاني ، منصور بن محمد بن عبد الجبار ، ت 487هـ ، تفسير القرآن العزيز ، تحقيق : ياسر بن إبراهيم وغيره ، دار الوطن - الرياض ، (ط1/ 1418هـ) .
- 64- السمرقندي ، نصر بن محمد بن أحمد ، ت 375هـ ، تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم ، تحقيق : محمود مطرجي ، دار الفكر - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .
- 65- السيوطي ، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال ، ت 911هـ ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، دار الفكر - بيروت ، (طبعة سنة 1993م) .

- 66- السيوطي ، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال ، ت 911هـ ، **لباب النقول في أسباب النزول** ، دار إحياء العلوم - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .
- 67- الشافعي ، أبو عبد الله محمد بن إدريس ، ت 204هـ ، **الأم** ، دار المعرفة - بيروت ، (ط 1393/2هـ) .
- 68- الشافعي ، أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله ، ت 571هـ ، **تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل** ، تحقيق : محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري ، دار الفكر - بيروت ، (ط سنة 1995م) .
- 69- الشرباصي ، أحمد ، **يسألونك في الدين والحياة** ، دار الجيل - بيروت ، (ط 1977/1م) .
- 70- شلتوت ، محمود ، **تفسير القرآن الكريم** ، دار القلم - بدون بلد نشر ، (ط 3/ 1965م) .
- 71- الشنقيطي ، محمد الأمين بن محمد بن المختار ، ت 1393هـ ، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن** ، تحقيق : مكتب البحوث والدراسات ، دار الفكر - بيروت ، (طبعة سنة 1415هـ) .
- 72- الشوكاني ، محمد بن علي بن محمد ، ت 1250هـ ، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير** ، دار الفكر - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .
- 73- الشوكاني ، محمد بن علي بن محمد ، ت 1250هـ ، **نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار** ، دار الجيل - بيروت ، (طبعة سنة 1973م) .
- 74- الصابوني ، محمد علي ، **صفوة التفاسير** ، دار الفكر - بيروت ، (طبعة سنة 1420هـ) .

- 75- الصالح ، صبحي ، ت1406هـ ، مباحث في علوم القرآن ، دار العلم للملايين - بيروت ، (ط17/1988م) .
- 76- الصنعاني ، عبد الرزاق بن همام ، ت 211هـ ، تفسير القرآن ، تحقيق : مصطفى مسلم محمد ، مكتبة الرشيد - الرياض ، (ط1/1410هـ) .
- 77- طبارة ، عفيف عبد الفتاح ، روح القرآن الكريم تفسير جزء قد سمع ، دار العلم للملايين ، (بدون طبعة ولا سنة ولا بلد نشر) .
- 78- الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد ، ت310هـ ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، دار الفكر - بيروت ، (طبعة سنة 1405هـ) .
- 79- ابن عاشور ، محمد الطاهر ، ت 1393هـ ، التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر ، (طبعة سنة 1972م) .
- 80- عبد الباقي ، محمد فؤاد ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، دار الفكر - بيروت ، (ط2/1401هـ) .
- 81- ابن عبد البر ، يوسف بن عبد الله بن محمد ، ت463هـ ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار الجبل - بيروت ، (ط1/1412هـ) .
- 82- العبدري ، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن أبي القاسم ، ت897هـ ، التاج والإكليل لمختصر خليل ، دار الفكر - بيروت ، (ط2/1398هـ) .
- 83- ابن عبد الوهاب ، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي ، ت 1206هـ ، الفتاوى ، تحقيق : صالح بن عبد الرحمن الأطرم وغيره ، مطابع الرياض - الرياض ، (ط1/بدون سنة نشر) .

84- العراقي ، زين الدين عبد الرحيم بن الحسيني ، ت 806هـ ، طرح التثريب في شرح التقریب ، تحقيق : عبد القادر محمد علي ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (ط1/ 2000م) .

85- ابن العربي ، أبي بكر محمد بن عبد الله ، ت 543هـ ، أحكام القرآن ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، دار الفكر - لبنان ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .

86- ابن عطية ، عبد الحق بن غالب الأندلسي ، ت 541هـ ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية - لبنان ، (ط1/1413هـ) .

87- العسقلاني ، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر ، ت 852هـ ، الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار الجيل - بيروت ، (ط1/1412هـ) .

88- العسقلاني ، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر ، ت 852هـ ، العجائب في بيان الأسباب ، تحقيق : عبد الحكيم محمد الأنيس ، دار ابن الجوزي - السعودية ، (ط1/1418هـ) .

89- العسقلاني ، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر ، ت 852هـ ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، تحقيق : محب الدين الخطيب ، دار المعرفة - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .

90- العيني ، بدر الدين محمود بن أحمد ، ت 855هـ ، عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .

91- الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد ، ت 505هـ ، إحياء علوم الدين ، خرّج أحاديثه : زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي ، مكتبة مصر - مصر ، (طبعة سنة 1998م) .

92- الغلاني ، صلاح بن محمد ، ت1218هـ ، **قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر** ، تحقيق : عامر حسن صبري ، دار الشروق - مكة ، (ط1405/1هـ) .

93- ابن فارس ، أحمد بن فارس بن زكريا ، ت 395هـ ، **معجم مقاييس اللغة** ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل - بيروت ، (ط2/1420هـ) .

94- الفراهيدي ، الخليل بن أحمد ، **كتاب العين** ، تحقيق : مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال (بدون بلد نشر ولا طبعة ولا سنة نشر) .

95- ابن فرحون ، إبراهيم بن علي بن محمد ، ت 799هـ ، **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب** ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .

96- القاري ، علي بن سلطان محمد ، ت1014هـ ، **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح** ، تحقيق : جمال عيتاني ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (ط1/1422هـ) .

97- ابن قاضي شهبة ، أبا بكر بن أحمد بن محمد بن عمر ، ت851هـ ، **طبقات الشافعية** ، تحقيق : الحافظ عبد العليم خان ، دار عالم الكتب - بيروت ، (ط1407/1هـ) .

98- ابن قدامة ، محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي ، ت744هـ ، **العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية** ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .

99- القرافي ، شهاب الدين أحمد بن إدريس ، ت 682هـ ، **الذخيرة** ، تحقيق : محمد حجي ، دار الغرب - بيروت ، (طبعة سنة 1994م) .

100- القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ، ت 631هـ ، **الجامع لأحكام القرآن** ، دار الشعب - القاهرة ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .

101- القسطنطيني ، مصطفى بن عبد الله الرومي ، ت1050هـ ، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (طبعة سنة 1413هـ) .

102- قطب ، سيد ، ت 1386هـ ، في ظلال القرآن ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (ط5/1386هـ) .

103- القنوجي ، صديق بن حسن ، ت1357هـ ، أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم ، تحقيق : عبد الجبار زكار ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (طبعة سنة 1978م) .

104- ابن القيم ، محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي ، ت751هـ ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط وغيره ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، (ط14/1407هـ) .

105- ابن القيم ، محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي ، ت 751هـ ، الفوائد ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (ط2/1393) .

106- (الكتاب المقدس) ، طبعة سنة 1991م .

107- ابن كثير ، إسماعيل بن عمر الدمشقي ، ت 774هـ ، تفسير القرآن العظيم ، دار الفكر - بيروت ، (طبعة سنة 1401هـ) .

108- الكلبي ، محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي ، ت 741هـ ، التسهيل لعلوم التنزيل ، دار الكتاب العربي - بيروت ، (ط4/1403هـ) .

109- ابن ماجه ، محمد بن يزيد القزويني ، ت 273هـ ، سنن ابن ماجه ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .

- 110- الماوردي ، أبا الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري ، ت450هـ ، **النكت والعيون ، المعروف بتفسير الماوردي** ، راجعه وعلّق عليه : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .
- 111- مجاهد ، أبو الحجاج بن جبر المخزومي التابعي ، ت 103هـ ، **تفسير مجاهد** ، تحقيق : عبد الرحمن الطاهر ، دار المنشورات العلمية - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .
- 112- مسلم ، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري ، ت 261هـ ، **صحيح مسلم** ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .
- 113- مصطفى ، إبراهيم وآخرون ، **المعجم الوسيط** ، تحقيق : مجمع اللغة العربية ، دار الدعوة ، (بدون طبعة ولا سنة ولا بلد نشر) .
- 114- مقاتل ، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي ، ت150هـ ، **تفسير مقاتل بن سليمان** ، تحقيق : أحمد فريد ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (ط1/1424هـ) .
- 115- المقدسي ، أبو عبد الله محمد بن مفلح ، ت763هـ ، **الفروع وتصحيح الفروع** ، تحقيق : أبو الزهراء حازم القاضي ، دار الكتب العلمية - بيروت ، (ط1/1418هـ) .
- 116- المناوي ، محمد عبد الرؤوف ، ت 1031هـ ، **التوقيف على مهمات التعاريف** ، تحقيق : محمد رضوان الداية ، دار الفكر - بيروت ، (ط1/1410هـ) .
- 117- المناوي ، محمد عبد الرؤوف ، ت 1031هـ ، **فيض القدير شرح الجامع الصغير** ، المكتبة التجارية الكبرى - مصر ، (ط1/1306هـ) .
- 118- ابن منظور ، محمد بن أبي العز مكرم بن علي ، ت 711هـ ، **لسان العرب** ، دار صادر - بيروت ، (ط1/ بدون سنة نشر) .

119- النسفي ، عمر بن محمد بن إسماعيل ، ت 537هـ ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، (بدون طبعة ولا سنة ولا بلد نشر) .

120- نوفل ، أحمد ، سورة يوسف دراسة تحليلية ، دار الفرقان - عمان ، (ط2/1420هـ) .

121- النووي ، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مرّي ، ت 676هـ ، صحيح مسلم بشرح النووي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (ط2/1392هـ) .

122- ابن هشام ، عبد الملك بن هشام بن أيوب ، ت 213هـ ، السيرة النبوية ، تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد ، دار الجيل - بيروت ، (ط1/411هـ) .

123- الواحدي ، أبو الحسن علي بن أحمد ، ت 468هـ ، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، تحقيق : صفوان عدنان داوودي ، دار القلم - دمشق ، (ط1/1415هـ) .

124- ياسين ، محمد نعيم ، الإيمان أركانه حقيقته نواقضه ، مكتبة الفلاح - الكويت ، (ط5/1407هـ) .

125- ياقوت الحموي ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله ، ت 626هـ ، معجم البلدان ، دار الفكر - بيروت ، (بدون طبعة ولا سنة نشر) .

www . tafseer . org -126

**An – Najah National University
Faculty of Graduate Studies**

Breach in the Holy Quran

**By
Mohammed A.Mahmud Al Haj Hasan**

**Advisors
Dr . Odeh Abdallah**

**Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of
Master of Usool e-Deen , Faculty of Graduate Studies , at An- Najah
National University , Nablus , Palestine .**

2010

Breach in the Holy Quran
By
Mohammed A. Mahmud Al Haj Hasan
Advisors
Dr . Odeh Abdallah
Abstract

Breach of trust is outrageous crime . The holy Quran assures its danger and confirms it in several verses . These verses talk about the different sides of this breach . They talk about the features of the betrayers , in addition to their deeds . There are examples of breach , such as , breach of religion , honour , land , and organs . Holy Quran shows us the breach of the people of the book , the wife of Al- Aziz , the wives of prophets Nauh and Lut , Yousif's brothers , and the breach of Hateb . It also shows the end of the betrayers . This is the way that Quran deals with this habit .

I studied the verses carefully and in an objective way . I defined the breach in two forms ; in language and in tradition . I also showed the meaning in context .

It is a comprehensive breach that include all trusts , of religion and the legitimate orders , the trust of honor , holy lands , self ,organs and others.

I studied it through the word "breach" and its synonyms as it is in Quran : cunning , hypocrisy , spying and so on .

I used various explanation books and I obtained the lessons with meanings . I classified them into 4 sections . The first one is a definition, secondly, its types , thirdly Quran forms of breach , e.g : the breach of people of the book , the wife of AL – Aziz

In the fourth section , about the breach in the verses of hypocrisy I mentioned the features and deeds of betrayers , and the end of the breach in life and after death . I illustrated the method of Quran in dealing with this habit , either by cure or prevention .